



# شخصيات عسكرية إسلامية

محمّد فوّج

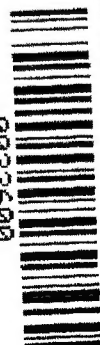


ملززة الطبع والنشر

دار الفکر العربی



Bibliotheca Alexandrina



0022600



# محدث فوج

## شخصیات عسکریتہ اسلامیہ

ملفوظ الطبع والنشر  
دار الفکر المکرمی  
۱۱ شارع جبرامسوق / القاهرة  
ص ۱۳۱۱ - ۷۶۰۹۳





الإهداء

إلى عمالة العبور

في معركة العاشد من شهر رمضان العظيم  
ابتغاء نصرة مؤزرا واستشهاد كريم

محمد فتحي



شخصيات الكتاب

على بن أبي طالب  
سعد بن أبي وقاص  
خالد بن الوليد  
عمرو بن العاص  
المثنى بن حارثة



## مقدمة المؤلف

### الطبعة الثانية

أحمد الله حمدا كبيرا وأشكره تعالى شكرا كثيرا وأصلى وأسلم على  
أعظم الخلق محمد بن عبد الله نبي الهدى رسول الرحمة خاتم الأنبياء سيد  
المرسلين ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبيه ، ومن دعا بدعوته بإحسان  
إلى يوم الدين ، وأسستفتح بالذى هو خير « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا  
واليك المصير » .

### أما بعد

فإن دراسة التاريخ الإسلامى وترجمة الشخصيات العسكرية الإسلامية  
لم تنل ما تستحقه من البحث والتسجيل والتحليل ، بما يتكافأ مع أبعاد ذلك  
التاريخ وعظمة تلك الشخصيات وحجم المعارك الإسلامية .

من هذا المنطلق قدمت لقراء العربية والإسلام هذا الكتاب ، وفى فهمى  
أن الحق بكتب أخرى تتناول عددا آخر من الشخصيات العسكرية الإسلامية  
لذات الأماجد فى تاريخ الحرب والجهاد .

ولم يكن يخطر ببالى أبدا أن الكتاب — بعد أن غمر الأسواق — سيجد  
القارئ العربى مثلها على اقتنائه أو الاطلاع عليه والوقوف على مسيرة  
شخصياته .

وتلقت خلال الأشهر الأولى من صدور الكتاب العديد من الآراء من  
كتاب فى داخل حدود مصر ومن خارجها ، امتدح بعضها الكتاب فكرة وعرضا  
وأسلوبا واختيارا لشخصياته ، وكان للبعض الآخر — بجانب الإعجاب  
الذى أبداه — آراء تلقيتها بالشكر والامتنان ، دارت حولها دراسات كثيرة  
ومناقشات عديدة أفدت منها وإفاد أصحابها أيضا ، ولا عجب فى ذلك فإن هذا  
كله كلن نتيجة طبيعية لمنهج الإسلام التربوى فى توجيه النفوس والقلوب  
والعقول وهدايتها إلى الجادة .

اننا أمة أراد لها قدر الاختبار والابتلاء أن تصيها طعنات خلفت من ورائها جراحات وعاشت أمتنا تأمل أن تلتئم الجراح وأن تستعيد قوتها ومنعتها ، وعندما تنادى الشعوب على مجدها القديم في زمن المحنة فهي تنادى على قوتها التي تدفعها الى الأمام في اتجاه أعز أمانيتها ، ولقد كان يوم العاشر من رمضان يوما أعز الله فيه بلادنا ونصر جيشنا ودمر عدونا ، وجعل القوة والقدرة الى جانبنا ، فبدأت أمتنا تتنفس من جديد هواء صحيا منبعه الايمان الصادق ومصدره قيم الاسلام وأخلاقياته ، ومبعثه سيرة الصالحين ومواقف المجاهدين من اتباع رسول الله الذين أكدوا مجد الأمة الاسلامية وعزتها بالجهاد في سبيل الله .

وهأنذا — على غير ما تعودت وبناء على رغبات كثيرة — أقدم الطبعة الثانية من الكتاب ترجمة صادقة لبطولة هؤلاء القادة العظام ، وتسجيلا لمعاركهم المجيدة بمنطق العصر ، فقد آن الأوان لكى نستدرك ما فاتنا وأن نقوم بواجبنا في احياء تراثنا فلا ريب في أن الحرص على احيائه هو حرص على حياتنا ، واذا كنا في حضرنا المرجى الى مستقبلنا المأمول ، نحتاج الى دفعات قوية مباركة نحو أهدافنا الشريفة في معركتنا المظفرة بإذن الله ، فان في بطولات شخصيات الكتاب مددا معطاء لا ينضب ، والله وحده المستعان لما فيه خير البلاد وخير العباد و « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » ، والحمد لله أولا وآخرا .

## مقدمة المؤلف

### الطبعة الأولى

سطع نور الاسلام في الجزيرة العربية ، وبدأت الدعوة اليه من مكة على لسان رسول الله خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ... وعارضت القبائل العربية الدعوة الجديدة ووقفت في وجهها وكثر المعارضون وتكتلت جبهتهم والقى بثقلها في المعركة تريد أن يبقى دين الأجداد والآباء ، وأن يقبر الدين الجديد قبل أن يقوى ويشتد ويدخل فيسه الناس .

ورغم تمسك الرسول بالدعوة السامية للدين الجديد ، إلا أنه كان لابد للقوتين — وقد اشتدت المعارضة — من أن تتلاقيا وجها لوجه وأن يقع الصدام المسلح بينهما .

ووقع الصدام المسلح فعلا رغم محاولات السلم المتعددة من جانب رسول الله ، وأذن للمسلمين بحمل السلاح ومقاومة العدوان والدفاع عن الدين وعن الداخلين فيه المؤمنين به .

وبرز خلال المعارك رجال أبطال أشداء كانوا يرفعون الوية المسلمين ويذودون عنها ... يقودون الجيوش ويعدون للمعارك ويواجهون الأعداء وينتزعون النصر الذي وعد الله به المجاهدين من عباده .

وسطعت فوق أرض الممارك قيادات اسلامية كان لها نصيب السبق والتدح المعلى ، فقد تولت قيادة الجيوش الاسلامية من فهم وإدراك ، ووعى ومقدرة ، وكفاءة وعلم بشئون المعركة وأمورها ومستلزماتها ، وحقت بهذا كله أعظم انتصارات في تاريخ الحروب أكدت أصالة الفن العسكري الاسلامي .

وان المتتبع لدور هذه القيادات والانتصارات العظيمة التي تمت تحت لوائها ليثمر بلزهو والفخر ، ذلك أن هذه القيادات فاقت القيادات الأخرى التي جاءت بعد الاسلام ، وحفل بها التاريخ الحربى الحديث ، وتصدرت قائمة القادة الأمجاد .

## ١٠ -

وموطن الزهو والفخر هنا أن هذه القيادات لم تتعلم الفن الحربي في مدرسة ولم تتلق أصوله في أكاديمية ولم تطلع على تاريخ الحروب التي سبقتها لتأخذ عنها ١٠

وموطن الزهو والفخر أيضا أن هذه القيادات مارست القتال كأعظم ما تكون الممارسة ، فلم يخض قائد عربي إسلامي غمار معركة قبل أن يلم بظروفها ويرتب لها ، ويعد جنده وسلاحه ويضع خطته ... فإذا ما دار القتال أشرف بنفسه على أحداث المعركة حتى ينتزع النصر ١٠

وموطن الزهو والفخر أيضا أن هذه القيادات واجهت في ميادين القتال جيوشا جرارة ذات عدد وعدة ، ولها تاريخ سابق معروف في مجالات الحرب ، وانتصرت هذه القيادات في المعارك الكثيرة المتعددة فازالت سلطة قريش في مكة ، وقوة اليهود في المدينة وفي المواقع الأخرى ، وجبروت الفرس والروم في موطنهما ١٠

وموطن الزهو والفخر أيضا أن هذه القيادات خاضت غمار المعارك بقلوب ثابتة ونفوس مؤمنة وأعصاب لا تلين ، لم تزعجها أحداث المعارك الرهيبة ، ولم تهن من قوتها شدة العدو وقسوته ، ولم ترهبها أعداد تفوقها وأسسلحة لا تعرفها ، ولم تزعجها هزيمة ألت بها لأنها كانت تصبر عليها وتستمد منها أسباب النصر وعوامله وتحولها الى نصر ساحق عظيم ...

كانت هذه القيادات تخرج الى القتال يداعبها أحد أملين ، اما نصر عظيم يعز الله به الاسلام والمسلمين ، أو موت كريم تنال به الشهادة فتحظى عند ربها بالجنة ... قيادات تمكنت منها العقيدة وسيطر عليها الايمان . . لقد جعلت العقيدة من كل فرد في المعارك الاسلامية معنى يتحرك وجعل الايمان للحرب هدفا يستعذب فيه المحارب أن يقتل كأقصى ما يكون الأهل ... كانت القيادات لا تقاتل ببشر من لحم ودم وانما كانت تقود ارواحا مجندة متكلفة استبشرت بما باعت واندفعت الى لقاء ربها ايمانا به وجهادا في سبيله ولسان كل منهم وقلبه يرددان قول الحق تبارك وتعالى « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فليستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » وقوله تعالى ... « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة



في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب  
وبشر المؤمنين » ١٠

فها هو ذا عبد الله بن جحش يدعو ربه « اللهم لقتنى من المشركين رجلا عظيما كفه ، شديدا حرده ، فاقبله فيقتلني فيك ويسلبني ثم يجده انفى وأذنى ، فماذا لقيتك فقلت : يا عبد الله بن جحش فميم جدعت قلت : فيك يا رب » وما هو ذا خالد بن الوليد يقول لأهل فارس « والله الذى لا اله الا هو لأسمين اليكم يقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا » .. وما هو ذا المغيرة بن شعبة يخاطب يزيدجرد « يدخل من قتل منا الجنة ، ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقى منا على من بقى منكم » .. وما هو ذا مالك بن سنان يقول « نحن والله بين احدى الحسينين ، اما أن يظفرنا الله بهم فلا يبقى منهم الا الشريد ، والاخرى أن يرزقنا الشهادة ، ووالله ما نبألى أيها كان ... ان كلا لفيه الخير » .

وانه لما يدعو الى الأسف أن الناس فى العصر الحديث أصبحوا يعرفون عن نابليون ومونتجرى وروميل وغيرهم من قادة الحرب أكثر مما يعرفون عن خالد وعمرو والمثنى والزبير وعلى بن أبى طالب وجعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وشرجيل بن حسنه وأبى عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبى وقاص وغيرهم من قادة الاسلام الأمجاد الميامين .. ولهذا أصبح من الواجب والضرورى أن تعنى الهيئات الاسلامية والمؤرخون ورجال الحرب بنشر تاريخ هؤلاء القادة وصفحات حياتهم المشرقة ليعرف الناس فضلهم ويقدرون منزلتهم ويضعونهم حيث يجب أن يكونوا بين قادة الحرب ورجال المصارك .

ومن خلال إيمانى بهذا الواجب واحساسى بضرورته ، أعددت هذا الكتاب ، تناولت فيه بالدراسة والتحليل خمس شخصيات اسلامية ، أسهمت كلها فى تطوير الفن الحربى ، وكانت لها فى مجالات الحرب جولات وبطولات .

وقد يتساءل البعض .. لماذا وقع الاختيار على هذه الشخصيات بالذات دون غيرها ؟

لقد وقع اختيارى على **على بن أبى طالب** فهو شخصية اسلامية متميزة ، كان من السابقين الى الاسلام ، فأسلم وهو صغير ، ثم صاحب رسول الله طيلة حياته ، وجاهد جهاد الأبطال فى كل المعارك والغزوات ، وكانت آثاره واضحة فى كل منها ، ثم انه قوبل بمعارضة شديدة حين تولى الخلافة ، وواجه

معارضية في معارك متتالية ، كانت له فيها مواقف تميزت بالروح الاسلامية  
الاصيلة .

ووقع الاختيار على **سعد بن ابي وقاص** صاحب أول دم أهرق في  
الاسلام ، وصاحب المواقف البطولية في غزوات الرسول ، وهو الأسد الذي  
أطلقه عمر بن الخطاب ليقضي على دولة الفرس ويرفع راية الاسلام في أرض  
فارس ، وهو صاحب المعارك الخالدة في القادسية والمدائن .

ووقع الاختيار أيضا على **خالد بن الوليد** سيف الله الذي سله الله على  
المشركين ، فعلى يديه انتهت الفتنة في الجزيرة العربية عقب وفاة الرسول ،  
وبيديه اهتز عرش كسرى فارس وانتهت دولة الروم في بلاد الشام ، فوق أنه  
رجل حرب أرسى للمعركة قواعد ونظما وأسس جعته في مصاف القادة  
العظام .

ووقع اختياري أيضا على **عمرو بن العاص** القائد الداهية الذي كان أول  
عسكري مسلم توجه أنظاره الى القارة الأفريقية ، فقد رأى من وجهة نظر  
الامن العسكرية ضرورة المحافظة على الفتوحات الاسلامية في بلاد الشام ،  
بتأمين جبهة مصر ، ولقد مهد عمرو أمام المسلمين الطريق الى بلاد الأندلس .

ووقع الاختيار على **المنى بن حارثة** أول مسلم اتجه الى بلاد الفرس  
ذات الأمجاد والتاريخ والدراية بفنون الحرب ، وكانت مواجهتها تتطلب رجلا  
قادرا قويا شديد الايمان ، وكانت مسيرته الى هناك تهيدا لازالة حكم كسرى،  
وانهاء عبادة النار لتقوم على أنقاضها عبادة الله الواحد القهار .

ولقد كان لي لقاء سابق مع خالد وعمرو والمنى في ثلاث كتب تناول كل  
منها حياة واحد منهم ، وكان لقائي معهم يقوم على أسس التاريخ لحياة كل  
منهم ، متتبعا لكافة أحداث حياته ، وللخطوط المعروفة في كل بحث ، والتي  
تتناول دراسة البيئة والأسرة ثم النشأة والتكوين ، ثم الحياة مستمرة الى  
نهايتها .

أما في هذا اللقاء مع هذه الشخصيات في هذا الكتاب فنحن لا نتعرض  
لحياتهم ولكننا ننظر الى هذه الحياة من وجهة نظر موقفهم كقادة عسكريين ،  
وتصرفاتهم في ميادين القتال ، ونزن أعمالهم بميزان الفكر العسكري الحديث ،  
لنحدد مكانتهم بين قادة الحرب على طول العصور ، وحتى هذا العصر الذي  
نعيشه والذي برزت فيه أسماء عسكرية كل لها دوى .

## - ١٣ -

واننى لأرجو أن يجد القارئ في هذه الدراسة شيئا جديدا مفيدا يقنعه بمكانة هؤلاء القادة ومنزلتهم في مجالات الحرب وميادين القتال ، ثم يقنعه أيضا بما كان للقيادات الإسلامية من كفاءة نادرة وقدرة فائقة وإدراك عميق بشئون الحرب ، ثم يؤمن معي أخيرا بأنه يجب أن يكون القادة العسكريون في مكان الصدارة دائما بالنسبة لقادة الحرب جميعا مثلا وأسوة وقدوة .

ولما كان لى مع شهر رمضان من كل علم لقاء مع كتاب جديد فقد بدأت في رمضان ( ١٣٩٢ هـ ) صياغة هذا الكتاب في صورته النهائية ولم أستطع أن أنتهى منها في هذا العام فواصلت العمل فيه مع بداية شهر رمضان من العام التالى أعنى عام ١٣٩٣ هـ .

ومن يمين الطالع — وأنا أضع اللامسات الأخيرة للكتاب — أن أصدر الرئيس المؤمن أنور السادات قراره التاريخى العظيم في العاشر من رمضان أيذانا ببداية قتال شريف وعادل ، وإيذانا بانطلاقة عربية عملاقة أكدت يقظة الأمة العربية التى حشدت إمكانياتها على امتداد الساحة القومية في مواجهة التحدي الكبير .

وكانت معركة العاشر من رمضان معركة الأمة العربية كلها خاضتها بالروح العربية والأصالة العربية وأثبتت أنها أمة واحدة تدفع العدوان عن أرضها وشرفها وعرضها . عبرت القوات المصرية المسلحة قناة السويس واحتلت خط بارليف وأسقطت الى الأبد أسطورة إسرائيل بأنها أمة لا تقهر وأن جيشها دعامه لا تكسر .

ولا يمكن لمؤرخ أن ينسى فضل الله تبارك وتعالى خلال معركة رمضان ، فقد أحس كل عربى أسهم في المعركة أن الله تعالى كان مع المقاتلين الذين استهدفوا عزة الدين ورفعوا الاسلام ، والذين اتخذوا من كلمة « الله أكبر » سلاحا هز مشاعر العدو وزلزل معنوياته وأفقدته شعوره وكشفت حقيقته للعالم أجمع .

ونصر الله المؤمنين وأعز جند رمضان في سيناء والجولان كما نصر من قبل محمدا وأتباعه وأعز جند رمضان في بدر وكان نصرا عزيزا مؤزرا « وما النصر إلا من عند الله » و « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » .

— ١٤ —

أما بعد

فها هو ذا الكتاب بين يدي القارئ .

وهو حصيلة جهد فرد يرجو أن يكون قد ملأ فراغا وسد حاجة ، فإن كنت قد وثقت بالفضل الله العلي الكبير « وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » .

أسأل الله — وله وحده الفضل والمنة — أن يتقبل منا هذا العمل ، وأن يجعله خالصا لوجهه ، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا .

والحمد لله أولا وأخيرا .

محمد فرج

الشخصية الأولى

علي بن أبي طالب

« جزي الله ابن أبي طالب الجنة »  
عائشة

## شخصية متميزة

شخصية اسلامية متميزة أراد الله تبارك وتعالى لصاحبها أن يكون فريداً بين أقرانه ... فسمى على ... ولم يكن هذا الاسم معروفاً لدى العرب في جاهليتهم ، فلم يعرف في العرب من سمي بهذا الاسم قبله ، وقيل أن أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم حين ولدته سمته أسداً ، وكان أبوه أبو طالب غائباً ، فلما رجع رأى أن يسميه علياً ، وقيل في بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي عرض هذا الاسم فسمى به ، والملاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يطلق على أحد من العرب قبله ، وقد اختار هذا الاسم جده عبد المطلب حين أخطر بولادته ، وبذلك فإن اسم محمد واسم علي كانا من الأسماء الجديدة التي عرفت لأول مرة في تاريخ العرب ، ولعل في هذا التوافق معنى جليلاً ، فكأنما أراد الله تبارك وتعالى لهما أن يحملتا اسمين جديدين رمزاً لمكانتهما عنده سبحانه ، فمحمد هو رسوله الأمين ، وعلي هو درع الإسلام وسيفه ، وقد ردد كثيرون من أنصار سيدنا علي حديثاً نسبوه إلى رسول الله جاء فيه « خلقت أنا وعلي من نور » وكنا على يمين العرش قبل أن يخلق آدم بألف عام ، ثم خلق آدم فانتقلنا في أصلاب الرجس ، ثم جعلنا في صلب عبد المطلب ثم شق اسماعنا من اسمه ، فالله محمود وأنا محمد ، والله الأعلى وعلي على » .

شخصية اسلامية متميزة كانت تتسم بمقومات الرجولة ، ولا عجب في هذا فقد رعته العناية الالهية منذ ولد ، إذ دفعت به إلى بيت النبوة حيث نشأ وترعرع في أحضان ابن عمه سيد البشر محمد بن عبد الله يوجهه ويرثسه ويأخذ بيده على الطريق السوي ، وحيث عنيت به خديجة بنت خوياد أو سميتها نسماء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً ، قال ابن أسحق « كان مما أنعم الله به على علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام ، وهكذا عاش علي منذ طفولته قريباً من رسول الله الجاهلية وأبطلها » ، وهكذا عاش علي منذ طفولته قريباً من رسول الله يرى ويلبس ويتحقق ، ويأخذ عنه الخلق الكريم والسمعة الطيبة والصفة المتكاملة والسلوك الجي ، وكان ذلك موضع فخره واعتزازه .. قال « لقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعتني في حجره وأنا وليد ، بضمني إلى صدره ويكنفني إلى فراشه ويمسني جسده » كان يوضح الشيء ثم يلقينيه ، وكنت أتبعه أتباع

الفصيل اثر امه ، يرفع لى كل يوم من اخلاقه علما ويأمرنى بالاعتداء به ، ولقد كان يجاور فى كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيرى ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ فى الاسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما ، ارى نور الهدى والرسالة واشم ريح النبوة » .

ومن هنا كان على أكثر الناس حظا وأطولهم صحبتة لرسول الله ، فلم يفترق عنه فى سلم أو حرب ، فى حل أو سفر ، كان بين يدى الرسول وتحت سمعه وبصره ، حتى أن رسول الله لحق بالرفيق الأعلى وهو على صدر على ... قال على « لقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وان رأسه لعلى صدرى ، ولقد سألت نفسه فى كفى فأمررتها على وجهى ، ولقد وليت غسله صلى الله عليه وعلى آله ، والملائكة أعوانى ، فضجت الدار والأفنية ... ملا يهبط وملا يعرج ، وما فارقت سمعى هزيمة منهم يصلون عليه حتى واريناه ضريحه » .

شخصية اسلامية متميزة بحكمة العلم ونفاذ البصيرة وشفافية الروح .. متميزة بالفتنة والذكاء وصدق الحس وصحة اللب وكمال العقل ... قال على « الحمد لله الذى شرع الاسلام فسهل شرائعه لمن ورده ، وأعز أركانه على من غلبه ، فجعله أمنا لمن علقه ، وسالما لمن دخله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خالص به ، ونورا لمن استضاء به ، وفهما لمن عقل ، ولبا لمن تدبر ، وآية لمن توسم ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق ، وثقة لمن توكل ، وراحة لمن فوض ، وجنة لمن صبر » ... آمن على بالاسلام ديننا وبالله ربا وبمحمد رسولا ، عرف الحق حق معرفته فدعا اليه وتمسك به .. قال « ما ضعفت ولا جبنيت ولا خفت ولا وهنت ، وأيم الله لا يقترن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته » .

شخصية اسلامية متميزة ميزه الله تبارك وتعالى بثلاث ... فقد كان أول من أسلم وآمن بمحمد ، وكان أول من صلى مع رسول الله ، وكان أول من آخى رسول الله فى المدينة ... قال ابن اسحق « ثم كان أول ذكر من الناس أبى طالب وهو يومئذ ابن عشر سنين » .. ودعاه رسول الله الى عبادة الله وحده لا شريك له ، والى الدين الذى بعث به ، والى انكار الأصنام ، وتلا عليه ما تيسر من القرآن ، فأخذ على عن نفسه ، وسحره جمال الآيات وأعجازها ، فاستمهل الرسول حتى يشاور أباه ، وقضى ليلة مضطربة يفكر فيها دعاه اليه رسول الله ، وأيقن بعد طول تفكير أنه على حق ، وأن دعوته ..

( م ٢ - شخصيات عسكرية اسلامية )

هى دعوة الخير والصلاح ؛ فلما أصبح أعلن أنه قد آمن بما جاء به محمد ؛ وأنه يتبعه دون حاجة الى رأى أبيه قائلا « لقد خلقنى الله من غير أن يشـاور أبـا طالب ؛ فما حاجتى أنا الى مشاورته لأعبد الله » .

وقال ابن اسحق « ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة ؛ وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعماله وسائر قومه ؛ فيصليان الصلوات فيها فلما أمسيا رجعا ... ثم ان أبى طالب غدا عليهما يوما وهما يصليان فقال لعلى : أى بنى ما هذا الدين الذى أنت عليه ، فقال : يا أبت آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به وصليت معه واتبعته » .

وعن عبد الله بن محمد بن عمر عن أبيه قال « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم ببعض ، وآخى بين المهاجرين والانصار ... آخى بينهم على الحق والمواساة ، فأخى رسول الله بينه وبين على بن أبى طالب « ... وعنه أيضا أن النبى حين آخى بين أصحابه وضع يده على منكب على ثم قال « أنت أخى ترثنى وأرثك » .

شخصية اسلامية متميزة أرادت له أمه منذ ولادته أن يكون فى حياته هصورا كالأسد ، يجمع من صفاته القوة والشجاعة وشدة المراس ، فأطلقت عليه اسم أسد ، وقيل انها سمته حيدر ، وهو اسم من أسماء الأسد ، وظل على — رغم أن أباه رفض اسم أسد — يعتز بهذا الاسم ويفخر به ، احساسا منه بقوته التى تجاوز قوة الأسد ، وبشجاعته التى تغالب شجاعة الأسد ، وبصلابته التى تفوق صلابة الأسد . ، وأنشد مرة ..

أنا الذى سمئنى أمى حيدر

كليث غابات كرىه المنظره

أكيلكم بالسيف كيل السندره

شخصية اسلامية متميزة القت عليها الاقدار دورا كبيرا وخطيرا يوم أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى المدينة ، فقد اتفقت كلمة قريش — بعد أن أعجزتها الوسائل — على قتل رسول الله ، وأخطر جبريل رسول الله بما دبرته قريش وطلب منه الا يبيت فى فراشه ، وكان لابد — حتى تمنى بصائر قريش وقد اجتمع رجالها حول بيته عليه السلام يرقبونه انتظارا للحظة الهجوم عليه وقتله وهو نائم — من اختيار شخصية جريئة رابطة الجاني لتبیت مكان رسول الله ، ووقع الاختيار على علي بن اسحق



« أتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبت هذه الليلة في فراشك الذي كنت تبيت عليه ، فقال : فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابها . يرصدونه حتى ينام فيشؤون عليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : ثم على فراشي ، وتسبح ببردى هذا الحضرمي الأخضر فثم فيه فانة لن يخلص اليك شيء تكرهه منهم » ... وخرج رسول الله من بيته وقد عبيت أبصار قریش فلم يروه ، فلما أصبح الصباح دخلوا البيت فوجدوا عليا في انتظارهم رابط الجأش قوى الإرادة صلب العزيمة .

شخصية اسلامية متميزة اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون منه بمنزلة هرون من موسى ، تأكيداً لمكانته عند رسول الله ، فقد حدث أن خرج رسول الله الى غزوة تبوك وخلف علياً في المدينة على أهله ، فتكلم في ذلك أهل الفتنة الذين أسلموا كذبا وخونا ولم يدخلوا الاسلام قلوبهم وعقولهم ؛ فقالوا « ما منعة أن يخرج به الا أنه كره صحبته » ، فبلغ ذلك عليا فاضطربت نفسه وخرج مسرعا ياحق برسول الله ليقتل على سبب منعة من الخروج ، فقال له رسول الله « ابا ابن أبي طالب أما ترعى أن تنزل مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي » .

شخصية اسلامية متميزة فاق أقرانه علما وحكمة وفقها ، كان له قلب مؤمن وعقل متفتح وإدراك واسع وإحساس مرهق ، يامسسه الناس - كل الناس - حين يطالعون خطبة وكتبة وحكمة ومواعظة وآداب وتسمعه ، التي خلطت النفوس ومازجت القلوب ، وسكنت الى العقول ، كان على مثلا حيا لنور القرآن وحكمته وعلوه وهدايته وأعجازه وفصاحته ، كان شرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ، منه ظهر مكنونها وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلة هذا كل قائل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ ... كان كلامه عليه مسحة من العلم الالهي وفيه عنقة من الكلام النبوي ، ولنبت هنا قولاً له يؤكد صدق ما نذهب اليه ، ولو كان المجال مجال حديث عن أدبه وبلاغته ومنطقه وفصاحته لسقنا الأمثلة العديدة من أقواله وكلماته وأشعاره . قال على « الحمد لله الذي لا يبلغ مدحة القائلون ، ولا يحصى نعماء العادون ، ولا يؤدي حق المجتهدون ، الذي لا يدركه بعد الهمم ، ولا يناله غوص الفطن ، الذي ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ، ولا أجل محدود ، فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، وودد بالصخور ميدان أرضه ، أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الاخلاص له ، وكمال الاخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف بها وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة »

فمن وصفنا الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزاه ، ومن جزاه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار اليه ، ومن أشار اليه فقد حده ، ومن حده فقد عده .

شخصية اسلامية متميزة في مجالات الحرب والقتال ، فقد كلن سيفنا بشارا يقتل اعداء الاسلام ، وحصنا منيعا يصدر عن الاسلام ويحميه ، ولا عجب في هذا فقد شارك رسول الله في كل معاركه ، لم يتخلف عن غزوة ولم يتعد عن جهاد ، بل كان دائما في مكان الصدارة ، حتى اشتهر بين الناس بالقوة والصبر والجلد ، واصبح اسمه ينتصر قبل سيفه ، واصبح سيفه علما من اعلام المعارك يهد الاعداء ويصرع الابطال ويحقق النصر ... قال محمد بن عمر « كان على من ثبت مع رسول الله يوم أحد حين انهزم الناس ، وباعيه على الموت ، وبعثه رسول الله سرية الى بنى سعد بفدك في مئة رجل ، وكانت معه احدى رايات المهاجرين الثلاثة يوم فتح مكة ، وبعثه الى اليمامة ، ولم يتخلف عن رسول الله في غزوة غزاها الا غزوة تبوك خلفه في اهله » . عاش على حياته بجوار رسول الله مجاهدا اعظم ما يكون الجهاد ، وكانت له في مجالات الحرب مواقف قل ان تكون لمثله ، وبعد وفاة الرسول ظل صاحب الراي الاول في امور الحرب ، حتى اذا ما ولى الخلافة ووجه بما لم يواجه به أحد من قبل — اذ وقفت في وجهه فئة مسلمة تحاربة وتصارعه طمعا في منصب الخلافة — كانت له جولات خاضها وهو مكره ، حمل فيها سيفه ، وقاتل قتال الابطال الشرفاء ، حتى كانت نهايته على يد عبد الرحمن بن ملجم ، الذي قتله غيلة غدرا ... قال الحسن بن علي « واثيته سحرا فتحدثت اليه فقتل انما بت الليلة اوقظ أهلى فملكتنى عيناي وانا جالس فسنح لى رسول الله فقتل يا رسول الله لقيت من أمك من الأود واللدد ، فقال لى : ادع الله عليهم » .

شخصية اسلامية متميزة لم يسع صاحبها ابدا الى مجد شخصي قدر سعيه الى رفعة الاسلام واستقرار اموره ، وكانت حياته كلها كفاحا من اجل هذا الهدف ، ومن خلال هذا الكفاح اختفت من حياته الانانية وحس الذات ، ولعل خير دليل على ذلك ، انه رغم اقتناعه بأنه أولى من أبى بكر بالخلافة ، بايعه بعد ان اتفقت كلمة المسلمين في سقيفة بني ساعدة على مبايعته ، ورغم اقتناعه بأنه أولى بالخلافة من عمر بايعه ايضا ، وظل الى جواره لا يحبس رايًا ولا يمنع مشورة ولا يحجب نصيحة ، يعالج معه امور الرعية بنفس راضية وقلب مخلص وفكر صادق ، ورغم اقتناعه بأنه أولى بالخلافة من عثمان بايعه وظل بجانبه يشد من أزره ويعاونه وينصحه ويشير عليه ، ورغم اقتناعه بأنه أولى المسلمين كافة بالخلافة فقد عزف عنها حين سار اليه الناس بعد مقتل

## — ٢.١ —

عثمان يبأيعونه بالخلافة ... قال الطبرى « أتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ان هذا الرجل ( عثمان ) قد قتل ، ولا بد للناس من امام ، ولا نجد اليوم أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقه ولا اقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا تفعلوا فانى اكون وزيرا خيرا من أن اكون أميرا » . . وفى رواية أخرى يقول الطبرى ايضا « اجتمع المهاجرون والأنصار فأتوا عليا فقاتلوا . يا أبا الحسن هلم نبايعك ، فقال : لا حاجة لى فى أمركم ، أنا معكم من اخترتم فقد رضيت فاحترأوا » ولما تبسك الناس ببيعته صعد المنبر وقال « انى قد كنت كارها لامركم ، فأنبئتم الا ان اكون عليكم » . . لقد كانت امينته أن يظل وزيرا يرشد وينصح ويوجه ، ولم يكن راغبا فى منصب سعى الى مكة الحاخم ، وانما كان همه الأكبر أن يخدم الاسلام وأن يرفع مصالحه ، دون أن يرتبط بمنصب معين ، ولكنه تحت الالحاح والتشيت قبل الخلافة مرغما فكانت نهايته ، اذ قوبل بما لم يكن يخطر على بال بشر ، عارضه المقربون انيه ، وحاربته الطامعون فى الخلافة ، وكانت له مع هؤلاء وهؤلاء جولات أريققت فيها دماء المسلمين بايدى بعضهم دون أيدى اعدائهم .

### سيد الشجعان

كان الجيش الاسلامى منذ عهد النبوة لا يلتزم بعدد معين من الأفراد ، لأن حجم الجيش كان يتوقف أساسا على عدد المؤمنين به الداخلين فيه ، فكل من دخل فى الاسلام أصبح جنديا ، يقع عليه عبء الدفاع عن دينه ، وواجب المشاركة افعالة الايجابية فى خدمة الاسلام والمسلمين .

وكان الاسلام يشترط فى المحاربين شروطا معينة . . فلم يكن يخرج للقتال الا من امن بالله وبرسوله ايمانا بلغ حد الرغبة الجادة الكريمة فى الاستشهاد ، فهو قد عقد بينه وبين ربه عقدا ياع فيه نفسه ووهبها للجهاد فى سبيله ، ولم يكن يخرج للقتال الا من أدرك عن عمق وفهم أن ايمانه تحت الاختبار ، وأن الله تجلت قدرته قد يتليه بالخوف والجوع ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، وأن عليه أن يتأبل ذلك بالصبر فلا يجزع ولا تهن قوته ولا يفقد عزمه ولا يضعف فى طلب العدو ولا يخفف من حماسه فى لقاء العدو ، فان كل ما يلاقيه فى الجهاد من صغيرة أو كبيرة قد كتبه الله له وألجبه عليه . . . ولم يخرج للقتال الا من آمن بعمق بأهمية الاتفاق التام على جميع العمليات الميدانية ، وبأهمية عدم الاختلاف فى شأن من شئونها ، مع التجرد من الأمور الشخصية عهد بقوله تعالى « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ، فلم يكن أحد من الخارجين يسعى وراء مصلحة خاصة أو غلية شخصية ، وانما كان الهدف الأكبر هو انتصار الاسلام أو الموت فى سبيله .

وكان الجيش الاسلامي فادة وجندا ، وكان القائد يتولى أمور جنده ويمالج مواقف المعركة ومشاكلها ويضع لها خططها ويتحمل مسئولياتها ، وكانت القيادة تتمثل في مستويين ... مستوى القيادة العليا وهذه تولاه رسول الله طيلة حياته ثم تولاه من بعده الخلفاء ، ومستوى قيادة الجيوش وهذه تولاه أبطال الاسلام الذين توافرت فيهم صفات القيادة الناجحة ، وكان الجند يتولون تنفيذ خطط القائد ، سامعين له مطيعين ، يخوضون المعارك بنفوس راضية وقلوب مؤمنة هادفين نصر الاسلام نصرا عزيزا عظيما ، أو الاستشهاد استشهادا جليلا كريما .

وكان على بن أبى طالب واحدا من هؤلاء الجند ، توافرت فيه كافة اشتراطات المقاتل الاسلامي ، فقد دخل الاسلام عن اقتناع ووهب نفسه منذ حدوثه للجهاد في سبيل الله ولو كلفه هذا الجهاد حياته ... تمهده رسول الله منذ صغره بحكمته ونفخ فيه من روحه ، فكان غرسا كريما ، اتصف بالقوة والشجاعة والايثار والتضحية والفداء ، وكان بذلك كله يعدل جيشا بأكمله بأسا وقوة وبطولة وحسن بلاء ... كذلك تولى على القيادة العليا للجيش الاسلامي حين تولى الخلافة ، فأثبت أنه يحتل مكانة مرموقة بين القادة على طول التاريخ ؛ بل ثبت أنه في مكان الصدارة بالنسبة لقادة الحرب أجمعين .

حارب على تحت إمرة رسول الله في بدر ... وكانت له في هذه الفزوة مواقف خالدة ، اذ أدرك رسول الله أنه مقاتل من طراز خاص اكتملت فيه صفات المحارب ، فكان عليه السلام يركن اليه في الأمور التي تتطلب دراسة وخبرة وقدرة وعلم وحسن تصرف ... كان أول عمل عسكري يسنده اليه هو القيام بعملية استطلاع ، كانت لها أهميتها البالغة ، فالاستطلاع خطوة هامة تسبق دخول الجيش - أي جيش - المعركة ... وهو يعنى جمع كافة المعلومات عن العدو حتى تكون هناك صورة واضحة عنه تفيد عند وضع خطة اللقاء ، وهذه العملية تتطلب أن يقوم بها انسان لديه صفات معينة كالشجاعة والجرأة وبعد النظر وخفة الحركة والقدرة على المناورة والتصرف السليم السريع واليقظة التامة ، وكان رسول الله حريصا على أن تتجمع لديه معلومات عن عدوه بعد أن بلغه تحرك قريش اليه ، فاختر من المسلمين ثلاثة رجال بواسل هم على والزبير وسعد بن أبى وقاص ... ثلاثة كانوا عماد الحرب في عهد رسول الله وكانوا ركائز الاسلام بعد حياة رسول الله ، واختيار هؤلاء الثلاثة يعنى ادراك الرسول لأهمية العملية وخطورتها .. خرج الثلاثة الى ماء بدر يلمسون الخبر عن قريش فأصابوا - كما حدث يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير - غلامين من بنى الحجاج وبنى العاص فسألوهما فقالا :

نحن سقاة قريش بعثونا نستقيهم من الماء ، فلم يصدقوهم فضربوها ، فقالا نحن لأبى سفيان فتركوها الا أن رسول الله قال : « اذا صدقاكم ضربتوها واذا كذبكم تركتوها ، صدقا والله انها لقريش » ، وبدأ رسول الله عملية الاستجواب للفلايين حتى وقف منها على كل ما كان يرجوه من أخبار قريش .

وظهرت قدرة سيد الشجعان على بن أبى طالب حين بدأ القتال في بدر ، فقدم نادى منادى قريش « يا محمد أخرج الينا أكفأنا من قومنا » فقال رسول الله « قم يا يا ابا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا علي » ، وهكذا وقع اختيار رسول الله على علي في اول لقاء ، وهو دليل ملهوس على ثقته عليه السلام فيه واعنازه به وتقديره لقدرته وفنه وامكانياته كقاتل لا يبارى ... قتل علي مبارز الوليد بن عتبة فلم يمهله أن قتله ، وبارز حمزه شبيه بن ربيعة فلم يمهله أن قتله ، وبارز عبيدة — وكان اسن الذوم — عتبة بن ربيعة واثبت كل منهما صاحبه ، فلم يقدر احدهما أن يقتل الآخر فأسرع على وحمزه وكرا بأسيفهما على عتبة وقتلاه ... ثم بدأ اتلاحم وصار العنال عنيما تسديدا فكان على بطل المعركة ، أخذ الناس بسيفه وهدم بساعده ، لم يجبن ولم يخف بل حارب وقتل واثقا من نفسه قادرا على مواجهة عدوه ، وكن هو بطل المعركة وفارسها ، قتل من أعداء الاسلام ورعوس انكر كثيرين منهم وجوه قريش واهل العزة والقوة فيها مثل عتبة بن ابي معيط ، واسعاص بن سعيد ، وبوفل بن خويلد بن اسد ، وقيس بن ابوليد بن المغيرة ، وميسعود بن أبى أمية ، والنضر بن الحارث .

والأمر الهام الذي نود أن نسلط عليه الأضواء هو أن عليا كان لا يدخر جهدا خلال المعركة بقدر ما كان يبذل ، فكم عاون اخوانه المقبلين وأسهم معهم وهم ينزلون بعص الكافرين ممن يجنون فيهم صبرا على انسا وتشارك في فتهم ، فقد عاون حمزة في قتل عتبة بن ربيعة ، وسارحه ايضا في من زمة بن الاسود بن عبد المطلب ، ونسارك زيد بن حارثة في قتل حنطه بن بن سفيان بن حرب ، وهددا كان على سيفا بنارا يضرب رماب ائمه الحفر حتى أن قريشا حين خرجت الى أحد تطلب الثار لفتلاها طابت براس على ايها منها بأن فتته سيكون هدمها لقوة المسلمين واضعفا لسيوكتهم وحسرا لحديهم ، فقد دعا جبير بن مطعم عبدا حبشيا يدعى وحشى وقال له « أن ملنت محمدا فأننت حر ، وان قتلت عليا فأننت حر ، وان قتلت حمزة فأننت حر » ، فقال وحشى « أما محمد فسيمنعه أصحابه ، وأما على فرجل حذر كثير الانفات في الحرب ، ولكنى سأقتل حمزة » ، وقتله .

وفي أحد كان لسيد الشجعان موقف بطولى يروى فيقتدى ، فقد دعاه

رسول الله عندما اشتد القتال فسلمه الراية وتقدم بها ليواجه أبا سعيد بن أبى طلحة صاحب لواء المشركين وهو يقول « أنا أبو القصم » ، فناداه أبو سعيد « هل لك يا أبا القصم في البراز من حاجة ؟ » ، فأجابه على « نعم » وتلاحما فضربه على فصرعه ، ثم انصرف عنه دون أن يجهز عليه ، فقال له أصحابه « أفلا أجهزت عليه ؟ » ، فقال « إنه استقبلني بعورته فعطفتني عنه الرحم ، وعرفت أن الله عز وجل قد قتله » .

وكان على يدفع عن رسول الله ويصد عنه هجمات قريش التي كانت تبغى قتله تخلصا منه ومن دعوته ، وكانت عينا على لا تغيب عن موقع رسول الله ، فقد حدث خلال المعركة أن رمى عتبة بن أبى وقاص رسول الله فكسر رباعيته اليمنى وجرح شفته السفلى ، وشج عبد الله بن شهلب الزهري رسول الله في جبهته ، وجرح ابن قميثة رسول الله في وجنته ، وسقط رسول الله في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون ، وكان على بن أبى طالب هو أسرع الناس إلى رسول الله ، فأخذه بيديه ثم ملأ درقته ماء ، وجاء به إلى الرسول ليشرّب منه فوجد له ريحا فعف عنه فلم يشرّب منه ، وغسل عن وجهه الدم .

ومهمة ثالثة كلف بها على في أحد ، فبعد أن تحول نصر المسلمين إلى هزيمة سيطرت الفرحة على أبى سفيان ، فأشرف على الجبل وصرخ بأعلى صوته « أن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أعل هبل ( أى أظهر دينك ) » ، ثم قال مخاطبا المسلمين « أن موعدكم بدر العام المقبل » ، وانصرف أبو سفيان وقومه ، وخشى رسول الله أن يكون أبو سفيان متجها إلى المدينة ، فدعا عليا وقال له « أخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فان كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن اليهم فيها ثم لأتأجزنهم » ، وقال على « خرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل وامتطوا الابل ووجهوا إلى مكة » .

قال ابن اسحق « فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ناول سيفه ابنته فاطمة فقال « اغسلي عن هذا السيف دمه يا بنية فوالله لقد صدقني اليوم » ، وناولها على بن أبى طالب سيفه فقال « وهذا أيضا فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم » وصور ابن أبى نجيع موقف على في أحد في قوله « لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا على » .

كان على يوم أحد رجل معركة وخبير قتال ، فتك بصناديد قريش وقتل

الأقران ، وثبت وقت المخنة .. كان على حد قول جعفر الاسكافي « هو أحب المسلمين الى الله لأنه كان أثبتهم قدما في الصف المرصوص ، لم يفر قط باجماع الأمة ولا بارزه قرن الا قتله » ... وقال أبو جعفر أيضا وهو يضع امام التاريخ صورة واضحة المعالم لبطولة على وهمة وجراته في القتال وشجاعته عند النزال « اذا تأملت أمر العرب وقريش ونظرت السير وقرأت الأخبار عرفت أنها كانت تطلب محمدا صلى الله عليه وسلم وتتصد قصده وتروم قتله ، فان أعجزها وفتتها ، طلبت عليا وأرادت قتله ، لأنه كان أشبههم بالرسول حالا ، واقربهم منه قربا وأثمدهم عنه دفعا وانهم متى قصدوا عليا فقتلوه أضعفوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكسروا شوكته ، اذ كان أعلى من ينصره في البأس والقوة والشجاعة والنجدة والافدام والبسالة » .

ها هو ذا على بن أبى طالب سيد الشجعان يواجه عمرو بن عبد ود ، وهو رجل له تجربة في القتال وصبر عليه وجلد في ملاقاته العدو ، حتى قيل انه كان يعدل بألف فارس ... خرج عمرو يوم الخندق مع بعض من رجاله منهم عكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب وضرار بن الخطاب ، الى مكان ضيق من الخندق ، وضربوا خيلهم فاقترحتهم ، ثم وقف ينادى « من يبارز ؟ » فتهيب الناس لقاءه ولم يخف أحد اليه ، فقام على يريد منازلته فأمره النبي أن يجلس ، ثم صال عمرو وجال ، وهو يدعو للمبارزة ، والناس على ما هم عليه ، ويحاول على في كل مرة أن يخرج اليه ، فيمنعه رسول الله خوفا عليه من لقاء عمرو ، وكان يقول له « اجلس انه عمرو » ، فقال له على : « وأنا على » ، فأدناه الرسول حين رأى اصراره ، وقبله وعمه بعمامته ومشى معه خطوات كأنها يودعه ، ثم تقدم على الى مكان عمرو ورسول الله يردد « الآن برز الاسلام كنه للشرك كله » ، وقال على مخاطبا عمرو « انك قد كنت عاهدت الله الا يدعوك رجل من قريش الى احدى خصلتين الا أخذتها منه ، قال : أجل ، فقال له على : فاني أدعوك الى الله والى رسوله والى الاسلام ، فقال له : لا حاجة لي بذلك ، قال على : انى أدعوك الى الفزال ، فقال : لم يا ابن أخى فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال له على : ولكنى والله أحب أن أقتلك » ، فغضب عمرو واقتحم عن فرسه فعفره وضرب وجهه ، ثم أقبل على على فتنازلا فقتله على ، وأسعد قتله حذيفة بن اليمان فأجرى شعرا على لسانه يقول قصيدة طويلة منها :

نصر الحجارة من سفاهة رايه      ونصرت رب محمد بصوابي  
لا تحسبن الله خاذل دينه      ونبيه يا معشر الأحزاب

وقال حذيفة أيضا « لو قسمت فضيلة على بقتل عمرو يوم الخندق بين

المسلمين اجمعهم لوسعتهم » ، وقال ابن عباس في قوله تعالى ( وكفى الله المؤمنين القتال ) قال بعلى بن أبى طالب .

وهكذا قضى على عمرو وهو واحد من صناديد قريش ، وكان رسول الله يرقب قتال الاثنين وهو يدعو الله أن يحفظ عليا وأن يرعاه وأن يجعل النصر رفيقه ، ذلك أنه عليه السلام كان يعرف ما لعمرو من التسلوة والبأس والخبرة ، وفي ذلك قال أبو جعفر الاسكافي « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وقد برز على الى عمرو بن عبد ود وقد رفع يديه الى السماء بمحضر من أصحابه : « اللهم انك أخذت منى حمزة يوم أحد وعبيدة يوم بدر فاحفظ اليوم عليا » .

وثقة من رسول الله في على أسلمه راية المسلمين الى بنى قريظة ، وكتب سيد الشجعان على بن أبى طالب في غزوة خيبر صفحة مجيدة تتميز بالعبقرية وتتسم بالبطولة ، فقد بعث رسول الله أبا بكر برايته الى بعض حصون خيبر فقاتل ورجع ولم يفتحها ، ثم بعث ممر بن الخطاب فقاتل ثم رجع ولم يفتحها ، فقال رسول الله لأصحابه « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويفتح الله على يديه ، ليس بفرار » ، وفي الغد دعا رسول الله عليا وهو أرمد فتقل في عينيه ، ثم قال له « خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك » ، فخرج على الناس من خلفه يتبعون أثره ، فما أن وصل الى الحصن حتى ثبت الراية في رضم من حجارة تحت الحصن ، ثم هاجمه وفتحه الله على يديه . . . روى ابن اسحق عن أبى رافع مولى رسول الله « خرجنا مع على بن أبى طالب رضى الله عنه ، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته ، فلما دنا من الحصن ، خرج اليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود فطاح ترسه من يده ، فتناول عايه السلام بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه » .

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى « حدثنا سهل عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر : لأدفعن الراية الى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ويفتح عليه ، فلما كان الغد دعا عليا فدفعها اليه فقال : قاتل ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك ، فسأله : يا رسول الله علام أقاتل ؟ قال : حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فاذأ فعلوا ذلك فقد منعوا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » .



## — ٢٧ —

وكان لعلى دور بارز وخطير في غزوة الفتح . فقد كانت رغبة رسول الله أن يدخل مكة دون قتال ، ولهذا أخفى أمر انتحرك وقال « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبقتها في بلادها » ، إلا أن حاطب بن أبى بلتعة كتب الى قريش ينبئهم بان الرسول يتجهز لهم ، وأعطى الكتاب لامرأة من مزينة تدعى سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على أن تبلفه قريشاً ، فجعلته في راسها ، ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به ، وعرف رسول الله الخبر من السماء ، وكان لابد من أن يمنع وصول الكتاب الى قريش ، فدعا على بن أبى طالب ودعا معه الزبير بن العوام وقال لهما « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب الى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم » . وان اختيار على والزبير يرجع الى ثقة الرسول فيهما واطمئنانه اليهما ، فخرجا معا ، حتى أدركاها ، فالتسما في رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقتل لها على « انى احلف بالله ما يكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك » . . . . موقف يتطلب اتخاذ قرار سريع وحاسم ، ولهذا هدها على ، فلما رأت منه التصميم والجدية قالت « أعرض » ، فأعرض فحلت قرون رأسها واستخرجت الكتاب ودمعته اليه ، وهكذا فشلت بفضل ذكاء على وجدته محاولة خطيرة كادت أن تكشف لقريش أمراً أراد له الرسول أن يكون سرا حتى يباغتها في دارها .

ودخل على مكة مع رسول الله .

وفي حنين تعرض المسلمون لمحنة قاسية ، فقد سبقهم أهل حنين الى الوادى فكمنوا في شعبه وأحنته ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، وروى ابن اسحق عن جابر بن عبد الله « فو الله ما راعنا ونحن منحطون الا الكتاب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، ثم قال : أين الناس ؟ هلموا الى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » . . . ان هذا الموقف الخطير يتطلب شجاعة وقدرة على الصمود وصلابة في المواجهة ، ولقد ثبت رسول الله في هذا الموقف بينما فر الناس ، اللهم الا سيد الشجعان على بن أبى طالب ، فقد ثبت مع رسول الله ، وكان وحده من ثبت معه من أهل بيته .

ظل على بجانب رسول الله في كل معاركه وغزواته الا غزوة تبوك ، فلم يشركه رسول الله فيها ، اذ خلفه على أهله ، وأمره بالاقامة فيها ، فأرجف به المرجفون وقالوا « ما خلفه الا استئثالا له وتخففا منه » ، فلما بلغ ذلك عليا أخذ سلاحه وخرج حتى أتى رسول الله وهو نازل بالجرى ، فقال : « يا نبى

الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استتقتلني وتخفت مني » ، فقال له الرسول « كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فخالفتني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدي » .

ورجع على الى المدينة .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سفره .

### موقعة الجمل

موقعة الجمل من المواقع الهامة ذات التأثير الكبير في التاريخ الاسلامي . فهي اول معركة يكون المسلمون طرفيها ...

كان المسلمون قبلها جبهة واحدة يحاربون عدو دينهم ويسعون بكل ما يجيش في نفوسهم ووجدانهم الى نصره الاسلام وقهر أعدائه ، أما في هذه الموقعة فقد اختلفت الصورة ، اذ أصبح المسلمون طرفين في معركة واحدة .. تحارب فئة منهم فئة أخرى منهم ... كانت معركة بين جماعتين من المسلمين ، قام الاسلام بجهدهم ، واشتد بليمانهم ، وانتصر بسبواعدهم ... كانت معركة قتل فيها المسلمون بأيديهم ، وسالت دماؤهم لا بسيوف عدوهم ، وإنما بأسلحتهم هم أنفسهم .

في هذه الموقعة أصيبت الأمة الاسلامية بفرقة خطيرة ، بلغت حد الصدام المسلح بين أبنائها الذين جمعهم رسول الله صفا واحدا يقاتلون في سبيل الله ، والذين ظلوا على هذا النهج في عهد أبي بكر وفي عهد عمر ... فلما كان عهد عثمان أطلت الفتنة برأسها ، فاثارت المسلمين على خليفتهم ، فلما انتهوا منه ، وأختير على بن أبي طالب خليفة ، ثارت النفوس وتطلع الكثيرون الى منصب الخلافة الذي أصبح مطعما وهدفا وغاية ، وتناسى المسلمون رسالتهم الأصلية ، وتفرقت بهم السبل ، كل يؤيد وجهة نظر صاحبه ، وأصبحوا اثنتائنا مبعثرين يكيدون لبعضهم ، حتى انتهى بهم الخلاف الى المواجهة العسكرية .

وكانت موقعة الجمل أولى هذه المواجهات .

وكانت أيضا مجرئة لمعلوية فأعد جيشا حارب به عليا في صفين ثم حارب أولاده من بعده .

\*\*\*

## — ٢٩ —

وقد سبقت موقعة الجمل أحداث هامة أدت اليها ، ومهدت الطريق أمامها ، ويسرت السبيل الى وقوعها ، وهيأت الأذهان لأحداثها .

فقد فوجيء المسلمون بعدوان رجل من أهل فارس يدعى أبو لؤلؤة فيروز على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، اذ طعنه بخنجر طعنة قاتلة ، وتولاهم الفزع اشفاقا على مصيرهم ، وجعلوا يفكرون فيمن يخلفه اذا قضى الله فيه بقضائه ، وتحدثوا اليه في هذا الأمر .

ورأى عمر أن يجعل الخلافة من بعده شورى ، فاختر ستة من المهاجرين من قريش ، هم عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام ، وطلب أن يختاروا من بينهم الخليفة . « لا أجد أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فأيهم استخلف فهو الخليفة من بعدى » .

ومات عمر ، وتباحث الرجال الستة ، واشتد الجدل بينهم ، وانتهى الرأى الى مبايعة عثمان ، وعادت الأمور سيرتها الاولى ، وجرى الناس فى مالوف حياتهم .

ولأسباب كثيرة متنوعة — ليس هنا مجال التعرض لها أو الحديث عنها — ثارت الأمصار على عثمان ...

وكانت الكوفة. هي موطن الثورة الأساسى ، فكم تذمر أهلها من أمرائهم وولاتهم حتى أن قيس بن سلمة قال :

أقسمت بالله رب البيت مجتهدا أرجو الثواب له سرا واعلانا  
لأخلعن أبا وهب وصاحبـه كهف الضلالة عثمان بن عفانا

وكذلك كانت البصرة ... فقد حمل لواء الثورة والاثارة بها يهودى يدعى عبد الله بن سبأ ، كان قد أسلم فى أيام عثمان ، ثم ما لبث أن تنقل فى الأمصار يثير الناس ضد عثمان ...

وفى مصر ... أفسد عبد الله بن أبى السرح ما بين أهلها وبين الخليفة ...

وفي المدينة ... استمع الصحابة الى ما رددته الوافدون من الامصار ،  
فاغضبهم ما سمعوا وتالموا له وفسد ما بينهم وبين عثمان .

وتجمعت في المدينة افواج متعددة من مختلف الامصار ، وحاصرت دار  
عثمان ، وبذلت محاولات عدة من جانب عثمان نفسه « يا قوم لا تقتلوني فاني  
والاخ مسلم ، فوالله ما اردت الا اصلاح ما استطعت اصبحت او اخطأت ،  
وانكم ان تقتلوني لا تصلوا جميعا ابدا ، ولا تغزوا جميعا ابدا ، ولا يقسم  
فيكم بينكم » ... وحاول على وطلحة والزبير تهدئة الموقف والوصول الى  
حل يرضى عنه الجميع ، وذهبت محاولاتهم ادراج الرياح ... وطالب الناس  
عثمان بالتنازل فرفض ... « لم اكن لاخلع سربلا سربلى الله » ...

وانتهى الموقف السيء العصيب بهاجمة دار عثمان — بعد حصار استمر  
اربعةين يوما — وقتله .

وباع المسلمون لعلى بن ابي طالب

واثرت مشكلات متعددة على اثر هذه البيعة

كانت اولها مشكلة الخلافة ذاتها ... فقد كان هناك كثيرون يطمعون  
في ان يكون الامر لهم ، وفي مقدمة هؤلاء طلحة بن عبيد الله ابن عم السيدة  
عائشة رضى الله عنها ... وكانت اسيدة عائشة من اكثر الناس تحبها  
له وتأييدها ، حتى انها كانت في مكة حين قتل عثمان فاسرعت الى المدينة  
ليكون لها رأيها في الخليفة الجديد ، وعندما بلغت موضعا يسمى سرف —  
على مسيرة ليلة من مكة — لقيها عبيد بن كلاب فأخبرها بمبيعة على ،  
فغضبت لذلك ، لانها كانت ترجو ان تكون الخلافة لطلحة ، قال لها عبيد  
« ... اجتمعوا الى على بن ابي طالب » فقالت « والله ليت ان هذه انطبقت  
على هذه ، ان تم الامر لصاحبك ... ويحك انظر ما تقول » قال « هو ما قتل  
لك » فلولت فسالها « ما شأنك يا ام المؤمنين ؟ والله لا اعرف بين لابتها احدا  
اولى بها منه ولا احق » .

وكان دم عثمان مشكلة اخرى واجهها على طوال عهده حتى يوم مقتله .  
ولقد اثارت السيدة عائشة هذه المشكلة فور وصولها الى المدينة ، فقد اجتمع  
الناس اليها فخاطبتهم « ايها الناس ان عثمان قتل مظلوما ، والله لا طلبن  
بدمه ... يا معشر قريش ان عثمان قتل ... قتله على بن ابي طالب ... والله  
الليلة من عثمان خم من على الدهر كله » .

## - ٣٢ -

وكان صوت السيدة عائشة هو أول صوت أعلن المعارضة لعلي ، وألقى عليه بتبعة قتل عثمان ، ومن وراء صوتها ارتفعت أصوات أخرى تعارض وتتهم ... واشتد الحاح المطالبين بدم عثمان ، وتحولت المطالبة بدمه الى اتهام صريح لعلي بالتواطؤ على قتله والتشجيع عليه والدفع اليه ، وأصبحت المطالبة بدم عثمان هي السبيل الوحيد لمقاومة علي ، وتآليب القوى عليه ، حتى تؤخذ منه الخلافة قسراً ، أن يسعى اليها ويطمع فيها ، سواء من في المدينة كطلحة أو من في الأمصار كعواوية ... يقول ابن سيرين « ما علمت أن علياً أتهم بدم عثمان حتى يبيع فلماً يبيع اتهمه الناس » ... وهذا يعنى أن الناس كانوا يسمعون الى الخلافة من خلال دم عثمان .

### \* \* \*

كان على رأس الخارجين على علي ثلاثة لهم شأنهم في التاريخ الاسلامي:

**عائشة** ... أم المؤمنين زوج رسول الله وابنة أبي بكر الصديق .. كانت صاحبة مكانة مرموقة بين المسلمين ، آثروها بالمودعة والتقدير والاحترام ، لمكانتها ومكانة أبيها من رسول الله ... وكان بيتها بعد وفاة الرسول مثابة للصحابدة ومقتصداً للمسلمين ، يلتبسون عندها آثار الرسول وأخباره ... كانت غاضبة على علي ، وكانت ترجو أن يكون طلحة هو الخليفة بعد عثمان ، فلما انصرف الناس عنه الى علي رأته أن تعارض هذا الاختيار ، فطالبت بدم عثمان ، واتهمت علياً بقتله ، وأثارت بذلك النفوس ضد الخليفة الجديد ...

**وطلحة** ... كان من السابقين الى الاسلام ، ومن العشرة الذين وعدوا الجنة ... كان فيمن ثبت مع الرسول حين ولى الناس ، ويايحه على الموت وصد عنه ضربة سيف شلت أصبعه ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ... وحين قتل عثمان طمع في الخلافة ، وطلب أن يجتمع الناس ليختاروا خليفة ، فلما بويع لعلي أبدى اعتراضه ولكنه اضطر تحت ضغط الناس الى المبايعة ... قال ابن ثور « ... وكان أول من صعد المنبر فبايعه بيده » ، ورغم مبايعة فقد ظل غاضباً آملاً أن تكون الخلافة له ، وأيدته في ذلك السيدة عائشة .

**والزبير** .. ابن عمه رسول الله صفية بنت عبد المطالب ... أسلم في سن مبكرة ، وكان من السابقين الى الهجرة ، فقد هاجر مرتين الى الحبشة ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ، قال عنه الرسول « لكل نبى حوارى وحوارى الزبير » ، .. نازع علياً في الخلافة ، وكان يرجو أن يكون هو الخليفة بعد عثمان ، لهذا انضم الى معسكر السيدة عائشة رغم أنه بايع لعلي ... روى اليعقوبى « أنه - يقصد علياً - طلحة والزبير فقالا : انه قد نالتنا بعد رسول الله جفوة فباشرنا في أمرك ، فقال : انتبها شريكاي في القوة وعوناي علي العجز

والأود .. وقال فيهما ابن عباس حين استشاره على « أرى أنهما أحبا  
الولاية .. » .

تجهز الثلاثة مع من انضم اليهم للتحرك لمواجهة على في معركة كانوا  
يأملون فيها نصراً يخلعه ويحقق هدفهم ، واختلف أمرهم في وجهة السير ، قال  
الزبير « الشام بها الرجال والأموال ، وعليها معاوية وهو ابن عم الرجل  
( يعنى عثمان ) ، ومتى نجتمع يولنا عليه » .. وقال عبد الله بن عمر « البصرة ،  
فان غلبتم عايبا فلکم الشام ، وان غلبكم على كان معاوية لكم جنة » .. وقال  
يعلى بن أمية « قدرا قبل ان ترحلا ، ان معاوية قد سبقكم الى الشام وفيها  
الجماعة ، وانتم تقدمون عليه غدا في فرقة ، وهو ابن عم عثمان دونكم ..  
أرايتم ان دفعكم عن الشام ، أو قتل لكم أجعلها شوري .. ما انتم صانعون ؟  
اتقاتلونهم ؟ أم تجعلونها شوري فتخرجان منها ؟ وأصبح من ذلك أن تاتيا رجلا  
في يديه أمر سبقكم اليه وتريدان أن تخرجاه منه ؟ » .. ووصحهم يعلى بالتوجه  
الى البصرة .

وبل طلحة والزبير جهداً كبيراً لجمع القوى وأثارتها ضد على .. كتب  
الى كعب بن سور في اليمن ، وإلى المنذر بن ربيعة في ربيعة ، وإلى الأحنف بن  
قيس في مصر .

والثلاثة « كلهم سيد مطاع » كما وصفهم عبد الله بن عامر حين سألهم  
الزبير « من رجال البصرة ؟ » .

\*\*\*

### وتحرك الركب الى البصرة

وبينما أم المؤمنين على الطريق وصلتها رسالة من أم سلمة زوج الرسول  
« يا عائشة انك سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أمته .. حجابك  
مضروب على حرمة ، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحية ، وسكن عقيرك  
فلا تصحريهما .. الله من وراء هذه الأمة .. قد علم رسول الله مكانك لو أراد  
أن يعهد اليك .. ان بعين الله مثواك ، وعلى رسول الله تعرضين ، ولو أمرت  
بدخول الفردوس لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً جعله الله على » ...

وجاء في العقد الفريد أن السيدة عائشة أجابت أم سلمة « ما أقبلي  
لوعظك ، وأعلمني بنصحك ، وليس مسيرى على ما تظنين ، ولنعم المطلوع  
مطلع أصلحت فيه بين فئتين متناحرتين » .

وبينما الركب يفذ السير — على حد ما رواه الطبري وابن قتيبة —  
سمعت السيدة عائشة نباح الحوالب ( الكلاب ) فتأملت « أنا الله وأنا اليه

راجعون ، انى لهيه ، وما ارانى الا راجعة ، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنفسه : كائى باحداكن قد نبحتها كلاب الجواب .. واياك ان تكونى انت ياحميراء .

واعترض المغيرة بن شعبة الركب « ايها الناس ان كنتم انما خرجتم مع امكم فارجعوا بها خير لكم ، وان كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان ، وان كنتم نفتم على شيتا فبينوا ما نفتم عليه .. انشدكم الله .. فنتين فى علم واحد » .

واقبل سعيد بن العاص وسأل أم المؤمنين عن وجهتها فقالت « أريد البصرة » ، فسألها عن هدفها فأجابت « أطلب بدم عثمان » فقال لها « فهؤلاء قتلة عثمان معك » .

فى هذه الأثناء كانت البصرة قد بايعت لعلى وعاهدته على الوفاء والولاء والمنصرة .. وسمع والى البصرة عثمان بن حنيف — وهو أنصارى وصاحب رسول الله — بأن القوم أصبحوا على مشارف المدينة ، فدعا عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلى وطلب منهما أن يلتيا القوم ، وأن ينباههم الى خطورة الموقف وجسامة ما هم مقدمون عليه ، وأن يطلب منهم ضبط النفس حرصا على صالح الاسلام ووحدۃ المسلمين .. والتقى الرجلان بالقوم وتحدث اليهم أبو الأسود فقال مخاطبا طلحة « انتم قتلتم عثمان غير مؤمرين لنا فى قتله ، وبايعتم عليا غير مؤمرين لنا فى بيعته ، فلم نغضب لعثمان اذ قتل » ، ولم نغضب لعلى اذ بويع ، فأردتم خلع على ونحن على الأمر الاول ، فعليكم المخرج مما دخلتم فيه » .. وخاطب عمران طلحة أيضا فقال « انكم قتلتم عثمان ولم نغضب له اذا لم تغضبوا ، ثم بايعتما عليا وبايعنا من بايعتم ، فان كان قتل عثمان صوابا فسيركم لماذا ؟ وان كان خطأ فحظكم منبۃ الأوفر ونصييكم منه الأوفى » .

ولم يستجب لها طلحة فقد قال « ان صاحبكم لا يرى ان معه فى هذا الأمر غيره وليس على هذا بايعناه والله ليسفكن دمه » .

وتحدث الرجلان الى الزبير فلم يستجب هو الآخر ، فلجأ الى السيدة عائشة وقال « يا أم المؤمنين ... ما هذا المسير ؟ أمعك من رسول الله به عهد ؟ » ، فأجابت « قتل عثمان مظلوما ، غضبنا لكم من السوط والعصا ولا نغضب لعثمان من القتل » ، فقال لها أبو الأسود « وما انت من عصانا

( م ٣ — شخصيات عسكرية اسلامية )

وسيفنا وسوطنا وانت حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرك أن تقرى في بيتك ، فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض » ، فسأله « وهل يقتلني ؟ فاجابها « أما والله لتقاتلن قتالا أهونه الشديد » .

وأقبل جارية بن قدامة السعدى على السيدة عائشة وقال « يا أم المؤمنين .. والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ... انه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك وأبحت حرمك ، انه من رأى قتالك فقد رأى قتلك ... ان كنت أتينا طائفة فارجعى الى منزلك ، وان كنت أتينا مستكرهة فاستعيني بالناس » .

روى الطبرى « لما نزلت عائشة البصرة اصطف الناس لها فى الطريق يقولون : يا أم المؤمنين ما الذى أخرجك من بيتك ؟ ... فلما أكثروا عليها تكلمت بلسان طلق - وكانت من أبلغ الناس - فحمدت الله وأثنت عليه ثم قالت : أيها الناس ... والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يستحل دمه ، ولقد قتل مظلوماً ، غضبنا لكم من السيوف والعصا ولا نغضب لعثمان من القتل !! فيقتلوا به ، ثم يرد هذا الأمر شورى على ما جعله عمر بن الخطاب ، ولا يدخل فيهم من شرك فى دم عثمان » وكانت تعنى بذلك أن يعاد الاختيار بين الستة الذين عيّنهم عمر ، على أن يبعد منهم على .

واتفق القوم مع عثمان بن حنيف عامل البصرة على أن تكون له دار الامارة والمسجد وبيت المال ، وأن ينزل وأصحابه حيث شاءوا ، وأن ينزل القوم حيث شاءوا ، حتى يقدم على ، فان اجتمعوا دخلوا فيما دخل فيه الناس ، وأن تفرقوا يلحق كل قوم بأهوائهم ، ودخل عثمان داره وأمر أصحابه أن يلحقوا ببيوتهم وأن يصعدوا سلاحهم ، واستجلب الناس الا بنى عبد القيس ، فقتلوا وقفوا ضد طلحة والزبير وعائشة فى صراحة ووضوح ، وقال رئيسهم حكيم بن جيل « وأيم الله لو لم يكن على أميراً لمنعناه لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف وله الولاية والجوار ؟ » ثم خاطب قومه « جاهدوا العدو فلما أن تموتوا كراما أو تعيشوا أحراراً » .

ومكث عثمان فى بيته ... وفى ليلة هاجمه طلحة والزبير ومروان وقتلوا حرسه ( قيل فى رواية ابن قتبية أنهم قتلوا أربعين من الحرس ، وقيل فى رواية للمسعودى أنهم قتلوا سبعين غير من جرح ) وأسروه وفتقوا احبته ورأسه وحاجبيه ثم أطلقوه وانتهبوا — على حد ما أورده اليعقوبى — بيت المال وأخذوا ما فيه : ...



وفي الجانب الآخر كان على حزيناً لهذا الموقف الذى وجد نفسه فيه مضطراً الى الدفاع عن حقه الشرعى .. واراد أن يرد عن نفسه الاتهام ، وأن يكشف أعداءه الذين تجمعوا ضده ، وأن يزيح الستار عن حقيقة نواياهم ، فخطب الناس قتيلاً « والله ما أنكروا على منكر ، ولا استأثرت بهال ، ولا ملت بهوى ، وأنهم ليطالبون حقاً تركوه ودماء سفكوه ، وما تبعة عثمان الا عندهم وأنهم لهم الفئة الباغية ، بايعونى ونكثوا بيعتى ، وما استأثروا بى ( أى انتظروا ) حتى يعرفوا جورى من عدائى ... انى قد بايت بأربعة ... أدهى الناس وأسخاهم طلحة ، وأشجع الناس الزبير ، وأطوع الناس فى الناس علقشة ، وأسرع الناس الى فتنة يعلى بن أمية » .

ان علياً — وهو أسبق الناس الى الاسلام واكثرهم دفاعاً عن الرسول وعن الدين واشدهم ضراوة لأعداء الاسلام — يجد نفسه فى مأزق ... انه يواجه فئة من المسلمين ، تقف فى وجهه وتصد عنه واجبه الشرعى فى اتهم رسالة الاسلام ، وفى استكمال ارساء قواعد دولته ، التى بدأها رسول الله ، واكملها من بعده أبو بكر ثم عثمان ... انه يواجه أمراً أشد على الاسلام وعلى المسلمين من الردة التى عانى منها المسلمون بعد وفاة رسول الله ...

ورأى على أن يواجه القوم ، فخرج من المدينة على رأس تسعمائة من وجوه المهاجرين والانصار من أهل السبق مع رسول الله ، ومعه بشر كثير من أخلاط الناس ، وانفقت جميع المصادر على انه لم يجبر أحداً على الخروج ، ولم يحمل أحداً على ما يكره ... وخرج معه أولاده الحسن والحسين ومحمد ... وولى على المدينة قثم بن عباس ...

وكتب على الى أخيه عقيل « ان قریشاً قد اجتمعت على حرب أخيك اجتماعها على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ... وجهلوا حتى وجدوا فضلى ونصبوا لى الحرب وجدوا فى اطفاء نور الله ... اللهم فاجز قریشاً عنى بفعالها ... قد قطعت رحمتى وظاهریت عالى وسابقتى سلطان ابن عمى ، وسلمت ذلك لمن ليس فى قرايتى وحفى فى الاسلام وسابقتى التى لا يدعى مثلها مدع ... ان رأيى جهاد المحقين حتىلقى الله ... لا يزيدنى كثرة من حولى عزة ، ولا تفرقهم عنى وحشة ، لأنى محق والله مع الحق ، وما أكره أن أميت على الحق لأن الخير كله بعد الموت لمن عتل ودعا الى الحق ... » .

وكان أبو موسى الأشعري على الكوفة فبعثت على اليه الحسن ابنه وعبد الله بن عباس وعمل بن ياسر وقيس بن سعد ومحمد بن أبى بكر ومعهم كتاب الى أهل الكوفة يشرح لهم وجهة نظره ويعرض عليهم الموقف متكاملًا

— ٣٦ —

ويضع أمامهم صورة واضحة لما حدث منذ مقتل عثمان ومبايعته ثم التخلي عن المبايعه والرغبة في قتاله... جمع أبو موسى الناس ، ودعاهم الى نصره على لقرايته من رسول الله ولسابقته الى الاسلام وبيعة طلحة والزبير ثم نكثهما بعدهما فقال شريح بن هانئ «... والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه سمعنا وطاعة» ، وخاطب الحسن وعمار وقيس الناس « ايها الناس وأيم الله لو لم ينصره منكم لرجوت فيمن أقبل من المهاجرين والانصار كفاية ، فانصروا الله ينصركم » ، « قد اظلكم على في المهاجرين والبدرين والانصار الذين تبوأوا الدار والايمان فانصروا الله ينصركم » ، و « ان الأمر لو استقبل به أهل الشورى كان على أحق بها ، وكان قتال من أبى ذلك حلالا ، فكيف والحجة على طلحة والزبير وقد بايعاه رغبة وخالفاه حسداً وجاعكم المهاجرون والانصار » .

وهكذا أراح على وأصحابه الستار ، فوضحت الحقيقة أمام أهل الكوفة ، واطمان الناس الى سلامة موقف علي ، وسكنت نفوسهم القلقة ، وهذأت قلوبهم المرتجفة ، وأعلنوا انضمامهم اليه... وتجمع منهم اثنا عشر الفا .

\*\*\*

أصبحت البصرة مع أصحاب الجمل والكوفة مع علي .

والطرفان يعدان العدة ويجهزان الصفوف انتظاراً للحظة اللقاء ويوم  
الفصل .

ورأى علي أن يلتقى بأخر سهم قبل أن يتم اللقاء ويقع القتال ، رغبة منه في السلم وفي توحيد جبهة المسلمين وضم صفوفهم والقضاء على الفتنة ، فأمر زجالة « لا يرمين أحد سهما ولا حجرا ولا يطعنن برمح حتى أعذر القوم فاتخذ عليهن الحجة البالغة » ، ثم خاطب طلحة والزبير « استحلنا علثشة بحق الله وبحق رسوله على أربع خصال أن تصدق فيها... هل تعلم رجلا من قريش أولى مني بالله ورسوله ، واسلامى قبل كافة الناس أجمعين ، وكفايتي رسول الله كفارة العرب بسيفي ورمحي؟؟ وعلى براعتي من عثمان؟؟ وعلى أني لم أكن أستكره أحداً علىبيعة؟؟ وعلى أني كنت أحسن قولاً في عثمان منكما؟؟ » .

ثم حدث شيء هام في جبهة طاحه :

فها هو ذا الزبير يقتنع تماماً بخطئه فتضطرب نفسه وتفتت رغبته في قتال علي ويلقى سلاحه ، ثم ينسحب من الميدان ، ويعود أدراجه متجهاً الى المدينة على فرس يقال له ذو الخمار... فقد حدث أن خرج علي على بقله رسول الله الشهباء ، ودعا الزبير ، فخرج اليه ومعه سلاحه . فقال له « هل تعلم أنك

مررت بى وأنت مع رسول الله ، وهو متكئ على يدك ، فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك الى ، ثم قال لك : يا زبير انك تقايل علياً وأنت له ظالم ؟ ، فقال الزبير « اللهم نعم » ، فسأله على : فعدم تقايلنى ؟ ، قال : « نسيتها والله ، لو ذكرتها ماخرجت اليك ولا قاتلتك » ، وعاد الزبير الى معسكره وخاطب السيدة عائشة « يا أمه ما شهدت موطناً قط فى الشرك ولا فى الاسلام الا ولى فيه رأى وبصيرة غير هذا الموطن ، فانه لا رأى لى فيه ولا بصيرة ، وانى لعلى باطل » ، ثم خاطب ابنه عبد الله « انى راجع الى بيتى ، لا تعدد هذا منى جبناً ، فوالله ما فرقت ( خفت ) أبداً فى جاهليه ولا اسلام ... يردنى ما ان علمته كسرك » .

وانسحب الزبير ولكنه ما أن وصل الى وادى السباع حتى لاقاه عير ابن جرموز فسأله « يا أبا عبد الله أحبيت حرباً ظالماً أو مظلوماً ثم تنصرف ! ، أنائب أنت أم عاجز لا » ، ثم عاد وسأله « يا أبا عبد الله حدثنى عن خصال خمس أسألك عنها ... خذلك عثمان ، وبيعتك علياً ، واخراجك أم المؤمنين ، وصلاتك خلف ابنك ، ورجوعك من الحرب » ... فأجابه الزبير « أماخذلى عثمان فأمر قدم الله فيه الخطيئة وأخر التوبة ، وأما بيعتى علياً فوالله ما وجدت من ذلك بداً حيث بايعه المهاجرون والأتصار وخشيت القتل ، وأما اخراجها أمنا عائشة فأردنا أمراً وأراد الله غيره ، وأما صلاتى خلف ابنى فلما قدمته عائشة أم المؤمنين ولم يكن لى دون صاحبه أمر ، وأما رجوعى عن الحرب فظن بى ما شئت غير الجبن » ... واحتال ابن جرموز على الزبير حتى سلبه سيقه ودرعه ، ثم صحبه الى الوادى ، وطعنه وقطع رأسه ، وعاد بها الى قومه فأغضبتهم فعلته ، وقال له أحدهم « يا ابن جرموز فضحت والله اليمن بأسرها ، قتلت الزبير رأس المهاجرين وفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، والله لو قتلت فى حرب لعز ذلك علينا ولمسنا عارك ، فكيف فى جوارك وذمتك » ، وقال على عندما رأى سيف الزبير « سيف والله طالما جلى به عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرب .. والله ما كلن ابن صفية جباناً ولا لثيماً ، ولكنه الحين ومصارع السوء » .

ورثته زوجه عائكة فقالت :

غدر ابن جرموز بفارس بهمة يوم اللقاء ، وكان غير معرد  
يا عمرو لو نبهته لوجدته لاطشاً ، رعش الجنان ولا اليد  
شلت يمينك ان قتلت لمساما وجبت عليك عقوبة المتعمد

واراد على أن يدخل تجربة ثانية مع طلحة ، عله يتوب ويعود ، فدعاه

وسأله « ما جاء بك ؟ » فأجابه « أطلب دم عثمان » ، فقال على « قتل الله من قتله » فقال طلحة « فخل بيننا وبين من قتل عثمان ، واعتزل الأمر فنجعله شورى بين المسلمين ، فان رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان رضوا غيرك كنت رجلا من المسلمين » ، فسأله على « ألم تبليعن طائعا غير مكره ؟ » ، فأجابه « بايعتك والسيف على عنقى » ، فعاد على يسأله « انكم أخرجتم أمكم عائشة وتركتم نساءكم فهذا أعظم الحداث منكم ... أرضى رسول الله أن تهتكوا سئرا ضربه الله عليها وتخرجها منه » ... فقال « انما جاءت للإصلاح » ... وعاد على يحاول معه فقال « أيها الشيخ .. أقبل النصيح وأرض بالتوبة مع العار ، قبل أن يكون العار والنار » ... ورفض طلحة النصيحة ... ولم يبق سوى القتال .

\*\*\*

### وجأت لحظة الصدام المسلح :

أصحاب الجمل يجتمعون وفي مقدمتهم طلحة وابنه محمد وعبد الله بن الزبير والسيدة عائشة ... ورجال على من حوله وقد لبس درع رسول الله ، وركب بغلة كانت لرسول الله ، وتعمم بعملة سوداء ، ودفع بالراية الى ابنه محمد .

وبدا الصدام قويا عنيفا ، واهتزت جبهة على ، وانهزمت بعض قواته ، ونظر حية بن جهين فوجد عليا يخفق نعاسا فأيقظه ، وقال « هزمت ميمتك ومسيرتك وأنت تخفق نعلسا » ، فانتبه على وقال « اللهم أنت تعلم ما كتبت في عثمان سوادا في بياض ، وأن الزبير وطلحة البا واجلبا على الناس .. اللهم أولانا بدم عثمان فخذ اليوم » .

وتقدم على وصاح في القوم أن يتقدموا ، وأخذ الراية من ابنه ، وحمل على أعدائه يطعن ويضرب ويقتل ... واقتتل الناس قتالا شديدا ، وحلوا كثيرون إصابة الجمل الذي كان يحمل عائشة ، فكان عبد الله بن الزبير يدفع عنها ويصد الواحد وراء الآخر ، حتى هاجمه الأشتر النخعي ، فتعرض له عبد الله فضربه الأشتر وأمسك به وصرعه ، وقعد على صدره ونادى في الناس :

أقتلواي ومالكاً واقتلوا ملكا معي

وأصيب طلحة بسهم قاتل ، واجمعت الروايات على أنه كان لمرwan بن الحكم ، روى ذلك ابن سعد في طبقاته وابن حجر في الإصالة والمسعودي في مروج الذهب ، وروى ابن عبد ربه والذهبي وابن عبد البر أنه كان أول قتيل ، ولكن ذكرت بعض الروايات ( ابن قتيبة ) أنه قتل في اليوم السابع من المعركة ...

أصابه سهم مسموم رماه به مروان فشك قدمه الى ركابه ، فلما أصيب قتل « سبحانه الله لا أرى في قريش اليوم أضيع منى دماً ولا أدرى من رمانى » ... ثم قال « هذا والله سهم أرسله الله ... انهم خذ لعثمان منى حتى ترضى » .

ووجد محمد بن طلحة قتيلاً دون أن يدري أحد من قاتله ... رآه على صريخاً فقال « رحمك الله يا محمد .. لقد كنت في العباداة مجتهداً آناء الليل قواماً ، وفي الحرور صواماً » ، ثم نظر الى الناس وقال « هذا رجل فتلته بر أبيه » .

وأصبحت عائشة وحدها في الميدان ، تتوود المعركة ، والناس يتسلفطون من حولها ... سقط كعب بن سور وأخوة ثلاثة له ... وسقط عبد الرحمن ابن عتاب بعد أن قطعت يده اثنى اخذ بها خطام الجمل ... وتتابع الرجل يأخذون بالخطام ويقتلون حتى قتل سبعون من قريش ، ثم قتل بنو ناجية جميعاً ، ثم الأزد وينوضبة ... واستمكت الرجال حول الجمل حفاظاً على عائشة ، حتى أن علياً صاح في رجاله « وليكم اعقروا الجمل فانه شيطان .. اعقروه والا فنيت العرب ، لا يزال السيف قائماً راکعاً حتى يهوى هذا البعير الى الأرض » ... وعن أبي مخنف « فلما رأى على أن الموت عند الجمل ، وأنه مادام قائماً فالعرب لا تطفأ ، وضع سيفه على عاتقه وعطف نحوه ، وأمر أصحابه بذلك ومشي نحوه والخطام مع بنى ضبة ، فقتلتوا قتالاً شديداً ، واستمر القتل في بنى ضبة فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخلص على في جماعة من النخع وهمدان الى الجمل ، وقال لرجل من النخع اسمه بجير : دونك الجمل يا بجير ، فضرب عجز الجمل بسيفه ، فوقع لجنبه ، فما هو الا أن صرع الجمل حتى فرت الرجال كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب ... ونادى على في القوم « اقطعوا انساع الهودج » ، وأمر بالجمل أن يحرق ثم يذر في الريح ، وقال « لعنه الله من دابة فما أشبهه بعجل بنى اسرائيل .. » .

وتجمع عدد من قادة أصحاب الجمل لدى على ، وطلب عمار بن ياسر « يا أمير المؤمنين اقتل هؤلاء الأسرى » ، ولكن الناس بايعوا ، فخلى على سبيلهم .

أما السيدة عائشة فكان لها وضع خاص ... وروى صاحب العقد الفريد أن علياً قال لابن عباس : ائت هذه المرأة — وكان قد أنزلها بيتاً من بيوت البصرة — فلترجع الى بيتها الذى أمرها الله أن تقر فيه ، فتوجه اليها ابن عباس وقال : ان أمير المؤمنين يأمرك أن ترجعى الى بلدك الذى خرجت منه ،

## ٤٠ -

فبكت وقالت : نعم أرجع فان أبغض البلدان الى بلد انتم فيه « ... وعلم على أن سبها أصابها دون أن يضرها فزارها وقال « يا حميراء ، رسول الله أمرك أن تقري في بيتك ، والله ما أنصفك الذين صانوا عقائلهم وأبرزوك » ، ثم أمر فجهزها ، وبعث معها أربعين امرأة ، فلما وصلت المدينة قالت « جزى الله ابن أبى طالب الجنة ... وددت لو أنى كنت جلست كما جلس صواحبي ، فكان ذلك أحب الى من أن أكون ولدت من رسول الله بضعة عشر » .

### صفين

طالب معاوية بن أبى سفيان بدم عثمان ولهذا رفض مبايعة على .

ولم يقتصر على عدم المبايعة بل طالب بالثأر .

وكان مقتل عثمان هو الورقة الخطيرة في يد معاوية ، فأحسن استغلالها الى أبعد الحدود ، حتى انها أوصلته في نهاية الطريق الى منصب الخلافة ، الذى كان يأمله ويصبو اليه .

ورغم أنه وصل الى هذا المنصب ، الا أن الثمن كان غاليا ، فقد فقد على بن أبى طالب حياته ، وكذلك فقدها ولداه وكثيرون من أهل بيت رسول الله ، بجانب هؤلاء الذين أسروا أو شردوا أو اختفوا مخافة سيوف بنى أمية ، هذا فوق ما تعرضت له الدولة الاسلامية في العهد الأموى من استبداد الحكام واستباحة الحرمات ، حتى أن الحجاج بن يوسف ، رمى بيت الله بالمجانيق ، فتساقطت جدره ، وحرقت ستائره ، وحتى أن مدينة رسول الله استبيحت حرملتها ، وقتل أهلها تشفيا وانتقاما .

### ولنبدا الأحداث من أولها ...

كانت هناك جبهتان ... جبهة على ... وجبهة معاوية .

وكانت الجبهتان تستمدان للمواجهة .

وبقدر ما ساعدت الظروف جبهة معاوية ، فقد أجهدت جبهة على ... ففي الوقت الذى كان فيه على يشغل في موقعة الجمل ويستهلك فيها قوته ، كان معاوية يجمع الجموع ويحشد الحشود ، بل أنه كان يسعى سعيا متصلا ليقطع ما بين على وبين رجاله وأصحابه ، ونجح مسعاه ، وكان في هذا يقول لروان بن الحكم « يا ابن عم ، انما نشترى لك الرجال » ، يعنى بذلك أنه يشتري الرجال ليقم بهم دولة بنى أمية .

## ٤١ -

وما كاد على ينتهى من موقعة الجمل ، حتى كان معاوية قد شدد قبضته على بلاد الشام ، وجمع أهلها حوله وأصبح قوة لا يستهان بها ، حتى أنه هدد عليا تهديدا مباشرا صريحا فى كتاب بعث به اليه قال فيه « ... خيل اليك ان الدنيا قد سخرت لك بخيلها ورجلها ... وانما تعرف أمنيته لو زرتك فى المهاجرين من أهل الشام ، بقية الاسلام ، فيحيطون بك من ورائك ، ثم يقضى الله علمه فيك ... » .

ان هذه الكلمات دعوة صريحة الى القتال ... دعوة تقوم على ثقة معاوية القامة بنفسه وأصحابه .

فماذا كان موقف على من هذه الدعوة ؟

بعث على الى معاوية قائلا « عندى السيف الذى أعضضته بجذك ، وذاك ، وأخيك ، فى مقام واحد » يقصد عتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وحظلة بن أبى سفيان ( ... ذكرت أنك زائرى فى المهاجرين والأتصار ، وقد انقطعت الهجرة يوم أسر أخوك ) يقصد عمرو بن أبى سفيان وكان قد أسر يوم بدر ) ، فان كان فيك عجل لاسترفه ( أى لا تعجل ) فانى ان أزرك فذلك أن يكون الله انما بعثنى للنقمة منك ، وان تزرنى ، فكما قال أخو بنى أسد :

مستقبلين رياح الصيف تضربهم بحاصب بين أخوار وجلمود

وهكذا كان موقف على موقفنا صريحا واضحا ، فقد قبل دعوة معاوية .. ثم انه هدد به بأنه سيلقى عند اللقواء أهوالا دونها الأهوال التى يلقتها من يتعرض لرياح الصيف العاصفة وما تحمله من سهم وتراب .

اذن أصبح الأمر يتطلب استعدادا جادا من الجانبين ، انتظارا للحظة الصدام المسلح والمواجهة .

## وسمى كل فريق الى حشد أكبر الجموع ..

انضم الى على الأحنف بن قيس وقومه بنو سعد من بنى تميم ، فقد جاء الأحنف الى على وقال « ... هذا جمع قد حشره الله عليك بالتقوى » ، ثم عرض أن ينضم وقومه اليه ، فقبل على ، فدعا الأحنف قومه قائلا « ... انى أخبركم أنا قدمنا على تميم الكوفة فأخذوا عينا بفضلهم مرتين ... مسيرهم اليها مع على ، وتهيبتهم للسمر الى الشام ، ثم انحسروا معهم فصرنا كأننا لا نعرف الا بهم فأقبلوا اليها ، ولا تتكلموا علينا ، فان لهم أعدائنا من رؤسائهم

فلا تبطئوا علينا ، فان من تأخير العطاء حرمانا ، ومن تأخير النصر خذلانا . .  
فحرمان العطاء القلة ، وخذلان النصر الإبطاء » .

وانضم الى على عمار بن ياسر ، وقد أيد عمار عليا بكل مشـاعره وأحاسيسه . . . قال عمار « انما بليعنك ، ولا نرى أحدا يقاقلك ، فقاتلك من بايعك ، وأعطاك الله فيهم ما وعد في قوله تعالى « ومن بغى عليه لينصرنه الله » وقوله « يا أيها الناس ، انما بغيتكم على أنفسكم » وقوله « فمن نكث فانما ينكث على نفسه » وقد كننت الكوفة لنا ، والبصرة علينا ، فأصبحنا على ما تحب ، بين ماض مأجور ، وراجع معذور ، وان بالشام الداء العضال . . . رجلا لا يسلمها أبدا ، الا مقتولا أو مغلوبا ! فعاجله قبل أن يعاجلك ، وانبذ اليه قبل الحرب » .

وانضم الى على رجل من أصحاب الرياسة والرأى في عـشيرته هو الأتـمـر النخعي ، فقد طالب عليا بأن يسرع بالتجهز والتحرك الى الشام لتأديب معاوية ورجاله ، وقال « انما لنا أن نقول قبل أن تقول ، فاذا عزمتم فلم نقل . . . فلو أسرعتم بنا الى الشام بهذا الحد والجـد ، لم يلقوك بمثله ، فان القلوب اليوم سليمة والأبصار صحيحة ، فبادر بالقلوب القسوة ، وبالأبصار العمى » .

وسار مع على الى صفين الأشعث بن قيس مع قومه ، بناء على نصـحهم له ، حين عرض عليهم أن يـأـحق بمعاوية ، فقالوا له « الموت خير لك ، أـتـدع بـصرك ، وجماعة قومك ، وتكون ذنبا لأهل الشام ؟ » . . . الا أن موقف الأشعث كان سلبيا ، فاضر دون أن ينفع ، إذ أنه دعا الى معارضة الحرب ، وكان عبئا على جيش على ، حتى أنه أجبره على قبول التحكيم . . . ولا شك في أن قبول على انضمام الأشعث وهو بهذه الروح أمر فيه خطأ ، فان الحرب تحتاج الى الرجل القوي الأمين الكميـت الذي لا يهاب أحداثها ويخوضها بعد اقتناع وإيمان . . . وكان واضحا أن الأشعث انضم الى على تحت ضغط قومه دون اقتناع ، لهذا فان خوضه المعركة بجانب على لم يكن بدافع أو احساس أو رغبة ، وكان لابد من معالجة موقفه قبل المعركة ، حتى يكون لـعلى وليس عليه . .

**أما في جبهة معاوية** فانه كان يسعى بكل ما أوتي من عقل وفكر ودهاء الى ضم الرجال من كل وجه الى صفه ، وكان يأخذهم بكل حيلة ويستميلهم بكل سبيل ، واستطاع أن يضم اليه داهية العرب عمرو بن العاص ، بعد أن اتفق معه على أن يعطيه ملك مصر .



ولعب معاوية دورا كبيرا ، فانه بقدر ما سعى الى ضم الرجال اليه ، بقدر ما سعى الى أن يضمن بقاء من لا يرغب في الانضمام اليه على الحياد ، فلا ينضمون الى طرف من الأطراف ، وكان معاوية يرى في موقف الحياد هذا نصرا له وهزيمة لعلى . . . من ذلك مثلا أنه سعى الى أهل مكة والمدينة فكتب اليهم « انه لم يغيب علينا أن عليا قتل عثمان ، والدليل على ذلك أن قتلته عنده ، وانما نطلب دمه ، حتى يدفع اليها قتلته فنقتلهم ، فان دفعهم اليها كففتنا عنه ، وجعلناها شورى بين المسلمين ، على ما جعلها عمر بن الخطاب . . . أما الخلافة فلنسنا نطلبها ، فاعينونا يرحمكم الله وانهمضوا من ناحيتكم » . . . ورفض أهل مكة والمدينة هذه الدعوة ، وأدركوا أنها خدعة من معاوية ، فأبوا الاستجابة اليها ، وكتبوا صراحة يقولون « انك أخطأت عظيما . . وأخطأت مواضع النصر ، وتناولتها من مكان بعيد ، وما أنت والخلافة يا معاوية ، وأنت طليق وأبوك من الأحزاب ، فكف عنا ، فليس لك قبلنا ولى ولا نصير » . ووقف أهل مكة والمدينة موقف الحساد في الصراع القائم ، وكان هذا الموقف مكسبا كبيرا لمعاوية .

من ذلك مثلا أن معاوية كتب الى ابن عمر ، محاولا أن يضمه الى رجاله ، فيعاونه في قتال على . . . قال له « أعنا يرحمك الله ، على حق هذا الخليفة المظلوم ( يقصد عثمان بن عفان ) فانى لست أريد الامارة عليك ، ولكنى أريدها لك ، فان أبيت كانت شورى فى المسلمين » . . ان معاوية يرمى بالطعم أمام ابن عمر ملوحا له بالخلافة ، بعد أن يتم القضاء على ، فان كان يأبأها فانه يسلك مسلك أبيه عمر بن الخطاب فيجعلها شورى بين المسلمين . . أسلوب اغراء لم ينخدع به ابن عمر فكتب اليه « لعمرى ما أنا كعلى فى الاسلام والهجرة ، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن حدث امر لم يكن اليها فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، ففزعت الى الوقوف وقلت : ان كان هذا فضلا تركته ، وان كان ضلالة فشر منه نجوت . . فاعن عنى نفسك » . . . وأوضح من هذا الرد أن ابن عمر قد اتخذ موقف الحياد ، وإطمان بذلك معاوية ورضى بهذا الموقف من جانبته .

من ذلك مثلا سعى معاوية لدى سعد بن أبى وقاص فقد كتب اليه « ان أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى ، الذين أثبتوا حقه ، واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكك فى الأمر والشورى ، ونظيرك فى الاسلام » . . ورد عليه سعد قائلا « ان أهل الشورى ليس أحد منهم أحق بها من صاحبه ، غير أن عليا كان من السابقة ، ولم يكن فينا ما فيه فشاركنا فى محاسنها ، ولم نشاركه فى محاسنه . . وكان أحقنا كلنا بالخلافة ، ولكن

## - ٤٤ -

مقادير الله تعالى التي صرفتها عنه ، حيث شاء ، لعلمه وقدره ، وقد علمنا أنه أحق بها منا ، ولكن لم يكن بد من الكلام في ذلك والتشاجر ، فدع هذا ، وأما أمرك يا معاوية ، فله أمر كرهنا أوله وآخره ، وأما طلحة والزبير ، فلو لزما بيوتهما لكان خيرا لهما » .. واتخذ سعد موقف الحياد في هذا الصراع ورضى بذلك معاوية .

من ذلك مثلا ان معاوية بذل محاولة جادة مع محمد بن مسلمة وقيس بن سعد بن عبادة وهما من سادة الانصار ، ودعاهما ومعهما الانصار لمعاونته والانضمام اليه ومساندته .. كتب الى كل منهما كتابا يسأله العون والنصرة ، قال لمحمد بن مسلمة « ان قومك الانصار ، قد عصوا الله تعالى ، وخذلوا عثمان ، وسائلهم وسألك الله تعالى عن الذي كان يوم القيامة » .. فكتب له محمد « لقد أخبرت بالذي هو كائن قبل أن يكون ، ( كان رسول الله قد أعطاه سيفاً وقال له « يا محمد بن مسلمة جاهد بهذا السيف في سبيل الله حتى اذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان ، فاضرب به الحجر حتى تكسره ثم كف لسائك ويدك حتى نأتيك منية قاضية أو يد خاطئة » ، فلما كان كسرت سيفي ولزمت بيتي » .. وكتب معاوية الى قيس يعده بسلطان العراق والحجاز في حالة انتصاره .. قال له « ان استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان ، فبائعنا على أمرنا ولك سلطان العراقيين ان انا ظفرت ، ما بغيت ، ولن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان ، وسلنى غير هذا ما تحب » ، وكان من الطبيعي أن يرفض قيس هذا العرض ، ولكنه اكتفى بالوقوف على الحياد ، لا ينضم الى أحد الطرفين ، وقال في ذلك لمعاوية « أنا كاف عنك ، وليس يأتيك من قبلى شيء تكرهه » .

### نقطة هامة يجب أن نبرزها في مجال الحديث عن الحشد والاستعداد ،

فانه من الملاحظ أن عليا قد فقد كثيرا من المؤيدين له ، الذين كانت لهم معه وقتيات وتربطهم به صلات قوية .. لقد انضم هؤلاء الى الجانب الآخر ... الى معاوية ، ومرد ذلك أن هؤلاء طمعوا في أموال الدولة ، ورأوا أن قرابتهم لعللي وصلاتهم به تجيز لهم أن يضعوا أيديهم على ما يشاءون من أموال بيت المال ، الا أن عليا وهو الذي حفظ للإسلام حقه ولم ينحرف في حياته عن الخط النبوي ، أبى أن يمس مال المسلمين وأن يسوء استقلاله ، حتى ولو كان ذلك على حساب بقائه ، قال في ذلك « ووالله لو أن الحسين والحسين فعلا مثل الذي فعلت ، ( موجهها الخطاب الى ابن عمه عبد الله بن العباس وكان قد استولى على أموال المسلمين أثناء ولايته على البصرة ) ،

## — ٤٥ —

ما كانت لهما عندي. هوادة ، ولا ظفرا منى بإرادة ، حتى آخذ الحق منهما ،  
وأزيل الباطن عن مظلمتهما ...

خرج على على ابن عمه عبد الله بن العباس وزيره وصاحب سره بعد  
أن أحسن البلاء ، حتى أن عليا بعث اليه يقول « فلما رأيت الزمان على ابن  
عمك قد كلب ( اشتد ) ، والعدو قد حرب ( قسا ) ، وأمانة الناس قد خزيت ،  
وهذه الأمة قد فنكت وشغرت ( فسدت وانكرت ) ، قلبت لابن عمك ظهر  
المجن ، ففارقته مع المفارقين ، وخذلتته مع الخاذلين ، وخنتته مع  
الخائنين ... » ....

وخرج على على أيضا عبد الله بن زمعة ، فقد جاءه يطلب بعض المال  
لبعض حاجته فرفض على « أن هذا المال ليس لى ولا لك وإنما هو فى  
المسلمين » وخرج على على أخوه عقيل ، فقد جاءه يطلب مئة مالا ، قال له  
« تأخر العطاء عنا ، وغلا السعر ببلدنا ، وركبنا دين عظيم ، فجئت  
لتصلنى » .. ، فلما لم يستجب اليه على قال « والله لأخرجن الى رجل هو  
أوصل لى منك » .. وخرج الى معاوية الذى رحب به وسعد بتقديمه فقال  
« مرحبا وأهلا بك ، يا ابن أبى طالب » ثم استغله معاوية أسوا استغلال فى  
محاربة أخيه والاساءة اليه ، قال « يا أهل الشام » هذا سيدا قريش وابن  
سيدها ، عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة فأناب الى أهل الدعاء الى  
الحق » .

### يبين من هذا العرض أن الحشد قام على ثلاثة محاور :

- دعوة الناس الى الانضمام الى صفوف المقاتلين .
- محاولة تحييد بعض ذوى الراى فى قومهم .
- شراء بعض النفوس بالمال أو باغراء المناصب .

ويقدر نجاح معاوية فى استغلال هذه المحاور الثلاثة لصالحه ، فان  
عليا أنكرها تماما ، ولم يعطها حقها .

### ولابد لنا من مناقشة موقف على ..

- فهو لم يدع أحدا لمعاونته ، ولم يسع الى أن يضم أحدا الى جانبه،  
وهذا من وجهة النظر العسكرية أمر خاطىء ، لأن الحرب تعتمد  
على الرجال ، فهم الذين يحملون السلاح ، وهم الذين يواجهون

## - ٤٦ -

العدو ، وهم الذين يحققون النصر .... والحشد العسكرى من أهم لوازم المعركة بل هو من الزم واجبات القيادة ، ولهذا تعمل القيادات جاهدة على جمع الجوع وتجييش الجيوش ... ومن هنا كان الخطأ واضحا فى موقف على ... فإنه لم يسع الى جمع الجوع ، وإنما اكتفى بمن انضم اليه رغبة وتطوعا ومحبة واحساسا ودون دعوة منه أو محاولة الاقناع بخطورة موقف معاوية وسلامة موقفه هو ... هذا فى الوقت الذى جاهد فيه معاوية لزيادة قواته ومؤيديه .

وهو لم يبذل جهدا واضحا لاثارة المشاعر والاحاسيس ضد معاوية ، ولم يبذل جهدا لتفتيت جبهة معاوية ، ولم يفكر فى توجيه رسالات الى رجال معاوية لينفروا منه فلا يعاونوه ولا يساندوه ، ولعلمهم يتخذون موقف الحيد ، ولا شك فى أن مثل هذه المحاولات كانت تضعف من موقف معاوية العسكرى وتزيد موقف على قوة ... الا أنه لم يتم باية محاولة فى هذا الاتجاه ، فى الوقت الذى نشط فيه معاوية ، ونجح فى أن يحصل على تأكيدات كثيرة من كثيرين - كان من الممكن أن ينضموا الى على فيزيدونه قوة - باتخاذ موقف الحيد التام بين الطرفين ، وكان ذلك نصرا له واضعافا لشان على .

وهو قد أهمل جانب الاغراء بالمال أو بالمنصب ... ذلك أنه :  
 أولا ... كان يرى أنه يدافع عن قضية عادلة ، وإن على من يحس بعدالتها أن ينضم اليه دفاعا عن العدل والحق ، دون تطلع الى مصلحة شخصية أو غاية ذاتية ... وهذه الرؤيا نابعة أسلسا من داخله الدينى ، فهو قد عاش حياته يدافع عن الاسلام ويخوض المعارك أملا فى النصر ورغبة فى استقرار الاسلام ، دون تطلع الى مصلحة تقضى أو جائزة تمنح .. لقد علمه رسول الله أن الكفاح فى سبيل الحق واجب ، وإن الجهاد فى سبيل الله حق .

ثانيا ... وكان يرى أن المال مال المسلمين ... ملك لهم جميعا ، فليس له أن يستغله لتحقيق مصلحة ، وليس له أن يحارب به طائفة من المسلمين عصته ووقفت فى وجهه ... وهذه الرؤيا نابعة أيضا من داخله الدينى ، فمال المسلمين

## - ٤٧ -

للمسلمين ، هكذا رأى رسول الله ... وهكذا رأى أبو بكر الصديق ... وهكذا رأى عمر بن الخطاب ... وهكذا يرى هو أيضا ... ان مال المسلمين وسيلة لاعداد القوة لمحاربة اعداء الاسلام وليس لمحاربة المسلمين أنفسهم .

ولقد استغل معاوية المال الذي في يديه استغلالا بعيد المدى فاشترى به النفوس والرجال ، حتى أنه منح عقيلًا أخا على ثلاثمائة ألف وقاتل له « هذه مائة ألف تقضى بها دينك ، ومائة ألف تصل بها رحلك » ، ومائة ألف توسع بها على نفسك » ، وكان المال سببا ومبررا لتجمع القلوب حول معاوية ، يؤلف له العدو ، ويدنى اليه البعيد ، ويبسط له سلطانه ... وكان في ذات الوقت حربا على أكثر من أعدائه ، فأسد عليه أصحابه ، وأبعد عنه أنصاره .

### وثم أمر هام في هذه الحرب التي كانت بين علي ومعاوية ...

فعلى كان يكره هذه الحرب ، وكان مكرها عليها ، وكان يرى فيمن خرج على طاعته أنهم مسلمون أصلا ، أصابهم انحراف وجرفهم تيار الفتنة ، فكان يحاربهم بنفس متحجرة ، متخوفا من اراقة دماء المسلمين ، ساعيا الى أن تكون خسائرهم في الأرواح قليلة ، اقتناعا منه بما قتاله له رسول الله يوم أحد « يا على ان القوم سيقتلون بعدى بأموالهم ، ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنون سطوته ، ويستحاون حرامه بالشبهات الكاذبة ، والأهواء الساهية » .

### تري ... هل كان على على صواب من وجهة النظر العسكرية ؟ :

ان الحرب تعنى الحرب ... وانحرب ضرب وطعن وقتل ، والحرب تتطلب قسوة مع العدو وشدة ، فالأين ليس من طبيعة الحرب ولا من سماتها ، انظر الى على وهو يبارز عمرو بن العاص يوم صفين فقد كاد أن يقتله ، فلما رأى عمرو سيف على يكاد يهوى عليه اتقاء بسواته فعف على عنه وبعد دون ان يرديه ... هذا موقف لا ترتضيه طبيعة الحرب ولا تقرها حالتها ، فهي تتطلب كما أشرنا قسوة وشدة وعنف ، ولو أن عليا قتل عمرا عندما حانت الفرصة ، لانتهى كل شيء ولتغير الموقف لصالحه ... وما فعله على مع عمرو فعله أيضا مع بسر بن أرطاة ، اذ لاحت له فرصة قتله ، فكشف هو الآخر عن بسواته ، فتركه علي ونجا بسر .

وقد صور ذلك الحارث بن النضر فقال :

أفي كل يوم فارس تنبدونه له عورة وسط العجاجة بادية  
يكف لها عنة على سنائه ويضحك منها في الخلاء معاوية  
بدت أمس من عمرو ففتح رأسه وعورة بسر مثلها خذو حاذيه

وكان على يرى أن حربه ضد معاوية لم ترق إلى مستوى المعارك ، بقدر كونها عملية تأديب لبعض من العصاة والخارجين على السلطان والدولة ... ولهذا وضع قواعد للقتال ، نشرها بين رجاله ، وطلب تنفيذها ، منها أنه لا يجهز على جريح ولا يقتل مدبر ولا يؤسر مستسلم ، ولا يستحوذ على نساء ، ولا يستولى على عبيد أو أماء ، يقول على لأحد رجاله : « .. لا تقتل إلا من قتلك ، ولا تجهز على جريح ، ولا تسخرن دابة ، ولا تستأثر على أهل المياه بمياهم ، ولا تشربن إلا فضلهم ( أي ما يزيد عن حاجتهم ) عن طيب نفوسهم ، ولا تشتمن مسلماً أو مسلمة ، وأسفك الدم في الحق ، وأحقنه في الحق » ، .. ويقول أيضاً في رسالة إلى أحد قاداته « لا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله وينقله » ، .. ويخاطب جنده قبل القتال فيقول « لا تقتلوهم حتى يبدعوكم ، فأنكم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدعوكم حجة أخرى لكم عليهم ، فإذا كانت الهزيمة باذن الله ، فلا تقتلوا مدبراً ولا تصيبوا معوراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تهينوا النساء بأذى ، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم » .

وأضح تماماً من هذا كله أن علياً كان متأثراً تأثراً بالغاً بروح الإسلام وسماحته ، وبما أوصى به من معاملة الأعداء ، وإذا كان الإسلام سمحاً مع أعدائه يعاملهم بالحسنى ، فكيف ينسى عى أو يتنلسى سماحة الإسلام وعطفه وهو يحارب أخواناً له في الدين يؤمنون بالله وبرسوله ...

هذه هي وجهة نظر على في الحرب القائمة بينه وبين بني أمية ...

أما وجهة نظر معاوية فقد كانت مخالفة تماماً لوجهة نظر على ، ذلك أنه كان يريد لها حرباً كؤوداً بكل ويلاتها ووحشيتها ، في أبشع صورها وأشنع وجوها ... وهو من خلال وجهة نظره كان يحرض رجاله ويحرض قواده « أقتل من رأيته ، من ليس وهو على رأيك ، وأضرب كل ما مررت به من القرى ، وأحرز الأموال ، فإن حرز الأموال شبيه بالقتل ، وهو أوجع للقلب » ...

هذه هي تعليمات معاوية في معاملة أعدائه ...

ولقد أزعجت تصرفات رجل معاوية علياً ، فخطب في أصحابه خطبة

قال فيها « هذا أخو غامد ، قد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكرى ، وأزال خيالك من مسالحتها ، وقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقتلائها ورعاها ، عجا والله يبيت القلب ، ويجلب الهم ، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم » ...

لقد نفذت تعليمات معاوية بكل دقة وقد خلت قلوب منفذها من الرحمة والتعاطف والحب .. ومن أمثلة ذلك أن معاوية بعث بسر بين أرطاة في جيش إلى المدينة ، فلما انتهى إليها قتل بها أصحاب على وأهل هواه ، وهدم دورها ، وقيل أنه كان يقتل الأطفال ، حتى أن امرأة صرخت في وجهه « يا هذا ، قتلت الرجال ، فعلام تقتل هذين ؟ ( تقصد طفلين صغيرين ) ، والله يا ابن أرطاة إن سلطاناً لا يقوم إلا بقتل الصبي الصغير والثشيخ الكبير ، ونزع الرحمة ، وعقوق الأرحام ، لسلطان سوء » .

لقد أباح معاوية الدماء والأموال والحرمة ، حتى تناسى هو ورجاله أنهم مسلمون ، وتناسوا أيضاً أن أعداءهم الذين يحاربونهم مسلمون يؤمنون بالله ورسوله وبكتابه ، وتناسوا أيضاً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل المسام على المسلم حرام .. دمه وعرضه وماله » ، لقد تناسوا الفارق الكبير بين محاربة المسلم للمسلم ومحاربة المسلم للكافر من الكافرين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ... لقد تساوى الاثنان من وجهة نظر معاوية .

### ● منهجان في الحرب مختلفان متباينان متباعدان ...

● منهج يرى أن محاربة المسلم للمسلم يجب أن تكون حرباً محدودة وفي حدود القواعد المشروعة دون أسراف في القتل والسفك والاساءة ، ذلك أن الاثنان يرتبطان بدين الله وبالأخوة الإسلامية وبالنسب وبكفاح سابق في عهد رسول الله وعهد خلفائه اشتركا فيه بكل قواهما ومشاعرهما .

●● ومنهج يرى أن الحرب لا تختلف في طبيعتها باختلاف وجوه المتحاربين ، ويجب أن تأخذ حقها وصورتها في أبعد حدودها ، دون رحمة أو شفقة ، دون مبادئ أو أصول ، دون نظر إلى أخوة إسلامية أو مروءة أو نسب أو أية صلة تربط بين الطرفين ... وليهن كل شيء في سبيل النصر ...

( م { - شخصيات عسكرية إسلامية )

## - ٥٠ -

وأدى منهج معاوية الى نصره ، بينما أدى منهج على الى هزيمته ، فان أصحابه قد ضاعوا بهذا المنهج كثيراً ، وافتقدوا الحماس وثأقلوا في الحرب . . كانوا يريدون انطلاقة بأحداثها الى نصر مؤكد ، فيضعون سيوفهم حيث أرادوا ، لا يبقون على أحد ، ولا يرحمون أحداً ، فلما منعهم على ، وهنت عندهم الرغبة في القتال . . . وكان لذلك أثره في سير المعارك .

سارت الأمور الى غايتها

وتهيا الفريقان للحرب

وتحركت الجيوش الى صفين

ولم يبق الا السيف يقول كلمة الفصل فيما اختلفت فيه الطرفان .

كان جيش معاوية ثلاثة وثمانين ألف مقاتل . . . في مقدمتهم أبو الاعور السلمي ، وعلى الساقية بسر بن أرطاة ، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر ، وعلى الميمنة يزيد العبيسي ، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وحمل اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

وكان جيش على مائة وتسعين ألفاً . . . الاشر النخعي في المقدمة ، وشريح بن هانئ على الساقية ، ومحمد بن أبي بكر على المهاجرين والانصار ، وعبد الله بن عباس على اهل البصرة ، وعبد الله بن جعفر على اهل الكوفة ، وعمر بن ياسر على الخيل ، والحسن بن على على القلب .

وكان جيش معاوية يضم دهاة العرب عمرو بن العاص وزبيد بن أبيه ، والمغيرة بن شعبه .

ويتلاحظ أن الكثرة العددية كانت لعلى ، الا أن الحكمة في المعركة ليست بالكم ولكنها بالكيف ، فان روح القتال كانت أكثر وفرة لدى جيش معاوية ، وروح القتال هي الدافع الى الحركة في أرض المعركة ، وهي التي تجلب النصر ، فإذا فاق فريق الآخر بروحه القتالية فإنه يسحقه ويرديه ، ومهما ارتفع حجم الأفراد ، فالروح القتالية هي التي تحدد دائماً نتيجة المعركة .

كانت معنويات جيش معاوية مرتفعة . . . كان الجيش كله ياتمر بأمره ، يسمعون له ويطيعون ، تظلم راية واحدة . . .

أما جيش على فكان كل يحمل راية ، وكان القوم مترددين غير مقتنعين بماهم مقبلون عليه ، وكان واضحاً أن علياً لم يكن له سلطان عليهم ، حتى



انه قتل « اما والذي نفسى بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ؟ ليس لانهم اولى بالحق منكم ، ولكن لاسراعهم الى باطل صاحبهم وابطائكم عن حتى » . . . وقال عن أصحابه ورفقائه « لقد أصبحت الامم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخافت ظلم رعيى » . . . وقال « صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه » .

خاطب معاوية رجاله قبل ان ينشب القتال فقال « يا أهل الشام . . . لقد سرتن ، لتبغوا الشام وتأخذوا العراق ، ولعمري ما للشام رجال العراق وأموالها ، ولا لأهل العراق نصر أهل الشام ولا صبرهم ، مع أن القوم ، بعدهم غيرهم ، وليس بعدكم غيركم ، فان غلبتوهم فلم تغلبوا الا من اتاكم ؟ وان غلبوكم عاقبوا من بعدكم . . . » .

وخاطب على رجاله فقال « . . . قد زعم معاوية أن أهل الشام أهل صبر ونصر ، ولعمري لأنتم اولى بذلك منهم ، لأنكم المهاجرون والأنصار ، والتابعون باحسان ، وانما الصبر اليوم والنصر غدا » .

سبق جيش معاوية الى صفين ، فاتخذ موقعا يمنع منه جيش على عن ورود ماء الفرات . . . والجيش — على حد القول المعروف عن نابليون — تمشى على بطونها ، والماء من أهم ما يحتاجه رجل الحرب ، لهذا كان معاوية بعيد النظر حين أسرع الى النهر ورأى أن يمنع الماء عن قوات على . . . ولكن عليا أيضا كرجل محارب خاض المعارك وعرف أسرارها ، كان يعرف أهمية الماء . . . لهذا قال للأشعث « اذهب الى معاوية ، فقل له ان الذى جئنا له غير الماء ، ولو سبقناك اليه لم نحل بينك وبينه ، فان شئت خايت من الماء ، وان شئت تناجزنا عليه ، وتركنا ما جئنا له » ، وقال الأشعث لمعاوية « انك تبغنا الماء ، وأيم الله لنشربنه ، فمرهم ينفوا عنا قبل أن نغلب عليه » ورفض معاوية بناء على نصيحة أصحابه أن يسمح لهم بورود النهر ، وغضب الأشعث فقال مخاطبا عليا « يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا وأنت فينا والسيوف في أيدينا ؟ خل عنا وعن القوم ، والله لا أرجع اليك حتى أردته او أموت دونه » ، ثم اقتحم الأشعث وجماعته مورد الماء ، وأزاحوا جند معاوية عنه ، ثم ملكوه ، ولكنهم بالروح العربى الاسلامى الاصيل لم يحولوا بين جند معاوية وبين وروده .

بقى الجيشان فى مواقعهما أربعين ليلة قبل أن يتم الاشتباك أو يقع التلاحم .

وفيّ خلال هذه المدة رمى معاوية بسهم أراد به أن يكسر حدة جيش عليّ، وأن يحطم روح القتال عند رجاله ، واختار عبد الله بن العباس ... اختاره له عمرو بن العاص مستشاره وصاحب الرأي عنده ... وكتب عمرو الى ابن عباس « أن الذي نحن وأنتم فيه ليس أول أمر قتاده البلاء ، وسألتك العافية ، وإنك رأس الجمع بعد علي ، فانظر فيما بقي بعد ما مضى ... فوالله ما أبقت الحرب لنا ولا لكم حياة ولا صبرا ، واعلم أن الشام لا تهلك إلا بهلاك العراق ، وأن العراق لا تهلك إلا بهلاك الشام ، فما خیرنا بعد أعدائنا منكم ؟ وما خیرکم بعد أعدائکم منا ؟ ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ، ولكننا نقول : ليتنا لم تكن ! وان فينا الآن يكره البقاء كما فيکم » .

وكان رد ابن عباس قاسياً فقد أزاح الستار عن الدور الذي يلعبه عمرو ... قال له « انی لا أعلم رجلاً أقلّ حياء منك في العرب ... انك مال بك الهوى الى معاوية ، وبعث دينك بالثمن الأوكس ، ثم خبطت الناس في عشواء ، ظمعا في هذا الملك » ، وقال له أيضا « ان كنت تريد الله ، فمدع مصر ، وارجع الى بيتك » ، فان هذه حرب ليس فيها معاوية كعلي ... بدأها على بالحق وانتهى فيها الى المعضرة ، وبدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها الى السرف ... وليس أهل الشام فيها كأهل العراق ، بايع أهل العراق عليا ، وهو خير منهم ، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه ، ولست أنا فيها عليا ، وهو خير منهم ، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه ، ولست أنا وأنت فيها سواء ... أردت الله ، وأنت أردت مصر ، وقد عرفت الشيء الذي باعدك

وكان ابن عباس صادقا في رده ، مخلصا في كلماته ، مؤمنا بصحة موقفه على ، وسوء موقف معاوية ، فلم تؤثر فيه محاولة ابعاده عن علي ، وتأكد من رده صموده واصراره ... ولكن هل رضي معاوية بهذه النتيجة ؟ ، وهل استسلم لهذا الفشل الذي صاحب هذه الخطوة ؟ ، أبدا ... لقد كان مقتنعا بفكرة ضرب جبهة علي من داخلها وتفتيت وحدتها وإثارة البلبلة في نفوس رجاله ... وإذا كانت وسيلة عمرو قد فشلت ، وإذا كان كلامه الى ابن عباس غير مقتنع ، فليحاول هو الجولة أملا في كسب ابن عباس فتختل جبهة علي ... كتب معاوية الى ابن عباس ملوحا له بالخلافة ، ومؤكدا له أنه سييابهه ومعه كل الناس ... « انکم معشر بنی هاشم لستم أسرع منكم في شيء أسرع بالمساءة الى أنصار عثمان ، فان يك ذلك لسلطان بنی أمية ، فقد ورثتها عدی وتيم ( يقصد أن الخلافة كانت لعمر ولأبي بكر ) ... ولستم ملاقينا اليوم بأحد من حدكم أمس ، ... اتقوا الله في قریش ، فما بقي من رجالها إلا سته ( قصد بهم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومعاوية ،

وعمره ، وعلى ، وابن عباس ) ... وأنت رأس هذا الجمع غدا ، ولو بايع الناس لك بعد عثمان كنا أسرع اليك منا الى على » ...

وفهم ابن عباس أن معاوية يرغبه بعلى وبالولاية ، فلم يستجب لدعوته ، بل رد عليه رداً قاسياً ... قال له « لقد أدركت في عثمان حاجتك ، لقد استنصرك فلم تنصره حتى صرت الى ما صرت اليه ... وأما قولك أنه لم يبق من رجال قريش غير ستة فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها ... أما اغراؤك اياي بعدى وتيم ، فأبو بكر وعمر كنا خيراً منك ومن عثمان ... كما أن علياً خير منك ... أما قولك أنا لن نلتصق إلا بما لقيناك به ، فقد بقى لك منا يوم ينسبك ما قبله ، وتخاف له ما بعده ... أما قولك أنه لو بايعني الناس استقمتم ، فقد بايعوا علياً وهو خير مني فلم تستقم له .. » وختم ابن عباس كتابه فقال « أنك طليق الاسلام ، وابن رأس الأحزاب ، وابن آكلة الأكباد من قتلى أحد » .

**محاولة من جانب معاوية فشلت ، ولكنها تؤكد أنه كان يسمى بئس الوسائل الى اضعاف جبهة على وكسب خلفاء جدد له .**

بدأ القتال عنيفاً ، وكان واضحاً رجحان كفة على ...

وأدرك معاوية أن الهزيمة سائرة اليه ، فاستدعى مستشاره العسكري صاحب الحيلة رجل الدهاء عمرو بن العاص ، الذي كان اتصاله به وانضمامه اليه مكسباً كبيراً دون شك ... فكر عمرو — وهو الذي كان يقول عن نفسه — « ما وقعت في أمر قط الا خرجت منه » وانتهى تفكيره الى أمر قال عنه لمعاوية « والله لأدعونهم الى أمر أفرق به جمعهم ويزداد به جمعك اليك اجتماعاً ... أن أعطوكه اختلفوا ، وأن منعوكم اختلفوا » ... ثم قال لمعاوية « تأمر بالمصاحف فترفع ، ثم تدعوهم الى ما فيها ... فوالله لأن قبله لتفترق عنه جماعته ، ولئن رده ليكفرن به أصحابه » .

واستدعى معاوية رجلاً يقال له ابن هند ، فرفع المصحف بين الفريقين ثم صاح « الله الله في دماننا ودمائكم ... بيننا وبينكم كتاب الله » .

ثم بعث معاوية ببعض رجاله الى اصحاب على من ذوى الراى والمكانة ، **يعرض عليهم الصلح** أملاً في كسب ودهم وتعاطفهم معه ... أرسل معاوية مثلاً أخاه عقبة بن أبى سفيان الى الأشعث بن قيس ، ودار بينهما حديث طويل انتهى باقتناع الأشعث برأى معاوية .

وكانت خديعة المصاحف والدعوة الى قبولها كضربة سيف هدت صفوف على ... اثارت الخلاف بين رجاله ... وتعددت الآراء وتفرق الناس ... حتى أن جماعة من رجاله خرجوا عليه وتحولوا عنه وأصبحوا له أعداء يحاربونه ومن معه ... هذه هى جماعة الخوارج التى كان مقتل على بيد واحد من رجالها هو عبد الرحمن بن ملجم .

قال بعض الناس ... لا تسمعوا القوم ... لا تعطوهم الا السيف .  
وقال البعض الآخر ... اجيبوهم الى ما دعوكم اليه ولا تردوا حكم الله .  
وقال البعض الآخر ... لا نقول الا ما يقول الامام ... خذوا رأيه واسمعوا قوله .

وزاد الحماس لكل رأى ، وتمسكت كل جماعة برأيها واخذت تدعو الآخرين اليه ، حتى تكهرب الجو ، وأصبح قوم على على وشك قتل بعضهم بعضا ... ورأى على ما أصبح عليه رجاله من الفرقة والاختلاف ، فحاول أن يجمع أمرهم ويوحد جبهتهم فوقف يخاطبهم وقال « أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمح فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم » ... ثم قال — والحزن يملأ نفسه ويملك وجدانه ويسيطر على أحاسيسه — « انه لم أزل من أمرى على ما أحب ، حتى قدحتكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت ، وهى لعدوكم انك ، وقد كنت بالأمس أميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً فأصبحت اليوم منهيأ ، فليس لى أن أحللكم على ما تكرهون » .

وواضح تماماً من أقواله أن الأمر قد أفلت من يده ، وأنه أصبح لا يملك سلطاناً أو سيطرة على جنده ، وهذه نقطة ضعف فى قيادته ، لأن من الزم واجبات القائد القدرة على توجيه الناس وتحريكهم والسيطرة عليهم ، فإذا ما فشلت القيادة فى ذلك تكون قد فقدت صلاحيتها ، وفشلت تماماً فى إدارة المعركة ، كما أن من مقومات الجيش الناجح أن يكون رجاله جميعاً متفقين فى الهدف مقتنعين بالخطة ملتزمين بأوامر القيادة .

ولقد اختفت هذه السمات الضرورية ، ولم يكن لها وجود فى جيش على ، بدليل أن الخلاف اشتد بين الناس ، وتفرقت كلمتهم وتعددت آراؤهم ...

وكان من الضرورى أن يكون الرأى الأخير فى أمر قبول التحكيم أو رفضه للقيادة التى تبحث الأمر وتدرسه وتنتهى فيه الى رأى ... فإذا انتهى رأى القيادة الى قبول التحكيم فليكن رأيها هو رأى الجيش بأكمله ... وإذا كل

قرارها رفض الفكرة وممارسة القتل فليكن قرارها نلخذاً ... ذلك أن أمور الحرب والمعرفة لا تحتل رأيين ، كما أن الجيش لا يفلح إذا خضع في وقت واحد لقيادتين ...

المهم ...

ماذا كان رأى على في مسألة التحكيم ؟

لقد رفض على الفكرة أساساً ، وقرر أن يستبر في حرب أعدائه ، وقال في ذلك « أيها الناس ، انه قد بلغ بكم وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم الا آخر نفس ، وأن الأمور اذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لهم القوم على غير دين حتى بلغوا منكم ما بلغوا ... وأنا غاد عليهم بنفس الغداة ، فأحاكمهم بسيفى هذا الى الله » .

القائد اذن مقتنع بالهدف مصمم عليه راغب في الاستمرار على الطريق الى تحقيقه ... وهناك كثيرون من رجاله يؤيدونه ويوافقونه ... منهم عدى ابن حاتم الذى قال له « ان دعوة أهل الباطل لا تعوق أهل الحق ... ناجز القوم » ، ومنهم الأشتر النخعى الذى قال له « افلج الحديد بالحديد » ، واستعن بالله « ، ومنهم الأحنف بن قيس الذى قال « لم نقاتل القوم لنا ولا لك ، انما نقاتلهم لله ... ولا أرى الا القتال » ، ومنهم عمير بن عطار الذى قال « فأنال القوم ... أنا معك » .

ومع كل هذه الأصوات المؤيدة لم يستطع على أن يقاتل القوم ، فقد كان تيار قبول التحكيم جارفاً وقوياً واضطر الى الرضوخ لرأى الاغلبية التى رفضت القتال ورأت أن تقبل التحكيم ، وأعلن أنه يقبل التحكيم ، وهو مكره مرغم ، فقد قال لعمار بن ياسر أحد رجاله المخلصين والذى كان يدعوه الى المقاتلة ويقول « ليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى يفيئوا الى أمر الله ان كان القوم مشركين ، وليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة ان كانوا أهل فتنة حتى يكون الدين كله لله » ... قال له على « والله انى لهذا الأمر كاره » .

وغضب عمار بن ياسر ، وخرج ثائراً الى الناس ، داعياً إياهم الى الحرب قائلاً « أيها الناس ... هل من رائح الى الجنة ؟ » ، فاستجاب له خمسمائة رجل ، واستسقى عمار الماء فجاءه غلام بآنية فيها لبن ، فكبر وقال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لى : آخر زادك من الدنيا لبن » ، ثم خرج ومعه أصحابه شاهراً سيفه وهو يرتجز :

اليوم القى الأحبه محمداً وصحبه

وحمل عمار على القوم فقتله رجلاً ، حملاً رأسه الى معاوية ، كل يحاول أن ينسب الى نفسه فضل قتله ، فرأهما عمرو ، فقال لهما « والله أن تتنازعا في النار ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تقتل عماراً الفئة الباغية » ، فاجابه معاوية « قبحك من شيخ ، فما تزال تنزل في قولك ، أو نحن نقتله ، انما قتله الذين جعلوا به » .

وأثار مقتله حماس الناس ومشاعرهم ، فهاجوا وثاروا ، وطلب الأستر — وكان قد أصابه جرح — من على أن يتقدم الناس قاتلاً « عد الى مكانك الذي كنت فيه ، فان الناس انما يطلبونك حيث تركوك » ، ودعاه عدى « يا أمير المؤمنين ، قاتل حتى يفتح الله تعالى لك ، فان فينا بقية » . . .

واستجاب لهم على ، ودعا بدرع وبغلة رسول الله ، وتعصب بعمامة الرسول ، ثم خطب الناس « من يبيع نفسه اليوم يبيع غدا ، يوم له ما بعده » ، واستجاب لدعوته عشرة آلاف أو يزيد ، هاجم بهم صفوف أهل الشام ، ووصل الى مكان معاوية ، فأثر هذا الهرب ، وركب فرسه ليهرب ، إلا أن عمرو بن العاص رآه فمنعه قاتلاً « اليوم صبر وغدا فخر » .

وحدث تلاحم بين الطرفين ، واستمر القتال ثلاثة أيام . . . قتل شديد عنيف قاس ، جرت فيه الدماء ، وكثر فيه القتل ، وعم البلاء ، وفي ذلك يقول ابن قتيبة « بات الناس يتحارسون ، وكرهوا القتال ، وهو اليوم الذي فيه البلاء العظيم ، يوم قتل عمار ، وكان يظن أن الدائرة عليه ، وأسرف الفريقان في القتل ، ولم يكن في الاسلام بلاء ولا قتل أعظم منه في تلك الثلاثة الأيام » .

ثم ارتضى الفريقان بعد هذه الأيام الثلاثة التحكيم الذي كان بطلاه عمرو ابن العاص وأبو موسى الأشعري . . .

وانتهى التحكيم بخلع على وتثبيت معاوية . . .

قال أبو موسى الأشعري « ان هذه الفتنة قد أكلت العرب ، وانى رأيت وعمر أن نخلع علياً ومعاوية ، ونجعلها لعبد الله بن عمر ، فانه لم ييسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً » . . . وقال عمرو « هذا أبو موسى شيخ المسلمين وحكم العراق ومن لا يبيع الدين بالدنيا قد خلع علياً . . . وأثبت معاوية » .

ورفض على هذا الفرار الذي قيل فيه أن « الأشعري سار يهدي الى ضلال ، وسار عمرو بضلال الى هدى » .

### ورفضه معه كثيرون :

وقرر على أن يحمل سلاحه ويحارب مرة أخرى ، ودعا بالناس « تهيأوا للجهاد وتأهبوا للمسير ... والله لأغزونهم ولو لم يبق أحد غيري لمجاهدتهم ».

ومرة أخرى يلتقى الجمعان في صفين ، ويتهيآن لمعركة فاصلة تنهى الموقف لصالح أحد الطرفين ، إلا أن مفاجأة وقعت في صفوف على ... فقد خرجت عليه جماعة من رجاله هم الخوارج ، وطالبوه بأن يعلن كفره ، وأن يشهد على نفسه به ، ثم يتوب إلى الله ، حتى يظلوا معه ... فقال لهم « أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم أبر ... أبعد إيماني بالله وجهادي مع رسول الله ، أشهد على نفسي بالكفر ؟ لقد ضللت اذن وما أنا من المهتدين » .

وكان لابد من قتالهم قبل مواجهة معاوية ...

وهكذا فتحت جبهة ثانية أمام على .

وكان عليه أن يدخل معركتين متتاليتين واحدة بعد الأخرى مع ما يلاقيه ورجاله من جهد ومشقة .

وكانت معركة حامية ضد الخوارج بالنهروان ... وهؤلاء كانوا أشد رجال على في القتال وأكثرهم استماتة فيه ... بدعوا بالهجوم وشدوا على رجال على شدة رجل واحد ، فأمر الرماة باستقبالهم بالنبل ، ثم كرت عليهم الخيل من الأجناب ، وهاجم على من القلب بالسيوف والرماح ، وقتل منهم الكثير ، وصرعهم الله ، فأمر على بجمع سلاحهم ودوابهم فوزعها على أصحابه .

وحان وقت مواجهة معاوية في صفين ...

فخطب على رجاله « ان الله قد أحسن بلاءكم ، وأعز نصركم ، فتوجهوا من نوركم هذا إلى معاوية وأشياعه القاسطين ( الظالمين ) الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

وتنبه على إلى أمر له خطورته في اللقاء القادم ، فرجلاه خرجوا توأ من معركة مع عدو شرس ، فكيف يقدون إلى معركة أخرى لا تفل عنها شراسة ، دون أن يعدوا أنفسهم وسلاحهم ودون أن يتجهزوا ... لهذا رأى أن يسير بهم أولا إلى موقع يسمى النخيلة فيعسكرون به ، يستعيدون نشاطهم ويتجهزون ، ويصلحون نبلهم وسيوفهم ورمحهم .

وفي هذا الموقع حدثت مفاجأة جديدة ، وما أكثر المفاجآت في حياة على ابن أبي طالب !!

لاحظ على أن رجاله بدعوا يهربون من المعسكر تباعا ، ويتجهون الى الكوفة حيث أسرهم وعيالهم !!!  
مفاجأة شديدة الوقع في وقت لا يحتمل المفاجآت ...  
مفاجأة ، واية مفاجأة ...

الرجال حملة السلاح وقود المعركة عدة القتال ... يديرون للمعركة ظهورهم ... لقد كان واضحا أنهم سنهوا الحرب ، ولم يعد أحد منهم راغبا فيها ، وانما أصبح الكل عازفين عنها غير راغبين فيها .

ودعاهم على الى الاجتماع والمناقشة وبحث الموقف رغبة في الوصول الى قرار حاسم ... ونادى في الناس « استعدوا للمسير الى عدو في جهاده القرية الى الله ودرك الوسيلة عنده ، فاعدوا له ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله ، وكفى به وكيفا » .  
ولم يستجيب له الناس .

فمعد يخاطبهم ويحثهم ويثير حماسهم أملا في الاستجابة اليه ، قال « ملككم اذا امرتكم أن تنفروا في سبيل الله اثقلتكم الى الأرض ؟ ... أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلا ؟ ورضيتكم بانذل والهوان من العز خلفا ؟ كلما ناديتكم الى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة ... استنفرتكم فلم تنفروا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا ، وأسمعتكم فلم تعوا ... أتلو عليكم الحكمة ، وأعظكم بالموعظة النافعة ، وأحثكم على جهاد المحلين ( الذين أحلوا ما حرم الله ) الظلمة الباغين ، فما آتى على آخر قولى حتى آراكم متفرقين » ...

ولم يستجيب الناس وكأنهم لا يسمعون .

وفشلت كافة مساعيه .

وأحس بقرب النهاية .

ورأى أن محاربة معاوية قد أصبحت وهما وخيالا .

وهو لم يعد يملك الا نفسه .

وكانت أمنيته أن ينال الشهادة تحت ظلال السيوف ، مجاهداً في سبيل الحق الذى آمن به ، وكافح من أجله ، وعاش حياته له .

ونال على الشهادة ، اذ قتله واحد من الخوارج هو عبد الرحمن ابن ملجم ، قتله في ليلة الجمعة ... ليلة الحادى والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة .

وانتهت حياة كانت صورة من الايمان العظيم والكناح الكريم .

انتهت حياة سيد الشجعان كرم الله وجهه ورضى عنه ...



الشخصية الثانية

سعد بن أبي وقاص

(( أسد الله في برائه ))

( عمر )

## رجل من اهل الجنة

وكان جنديا من الطراز الأول ..

شجاعا مقداما يؤمن بالطاعة يؤدي واجبه احسن ما يكون الاداء .

قتلدا ممتازا يرقى الى مستوى القادة العظم .

قادرا على دراسة الموقف العسكرى والاستجابة لاحتياجات المعركة  
ووضع خطط الحرب .

انسانا يفوق غيره من الناس خلقا واحسلسا وضميرا .

صاحب عقلية ممتازة مترنة وذكاء خارق ، يتحلى بشجاعة نادرة و ارادة  
قوية ، ونفسية كريمة لا تتغير أو تتبدل في حالات النصر والهزيمة .

كانت جميع الدلائل تشير منذ صغره الى ملامح شخصيته كرجل حرب  
وبطل ميدان ، فقد اشتغل وهو صغير في برى السهام وصناعة القسي وهى عدة  
الحرب في زمانه .

وكان يهوى الصيد والفنص وهى مهمة تشبه الى حد كبير أعمال المعركة  
ومتطلباتها .. خبرة وذكاء ومهارة وأعصاب قوية وتفكير مركز وتخطيط سليم .

أسلم وهو صغير ، فقد دخل الايمان قلبه مبكرا ، فتهيأ منذ صغره ليكون  
جنديا من جنود الاسلام ، وليتولى في غده قيادة أكبر جيش اسلامى لتتحقق  
على يديه أعظم الانتصارات التى شهدتها ميادين الحرب .. فقد شهد وهو  
على رأس الجيش الاسلامى هزيمة الفرس وزوال دولتهم واثضاء عهدهم .

أسلم وهو صغير .. وكان نسبه يجتمع بنسب رسول الله في كلاب ..

كان أخا الأمانة بنت وهب أم سيد الخلق وخاتم الرسل ، ومن هنا كان  
سعد خال رسول الله ، الذى كان يفخر به ويردد على أصحابه كلما قدم عليهم  
سعد « هذا خالى .. فليرنى امرؤ خاله » .

أسلم وهو صغير .. عن عائشة بنت سعد قالت « سمعت أبى يقول  
أسلمت وأنا ابن سبع عشرة سنة » ، وقال سعد « لقد أتى على يوم وأنا

## - ٦٩ -

لثالث الاسلام .» ، وقيل انه كان صديقا مقربا الى أبى بكر ، وكانت الثقة والمحبة والاحترام متبادلة بينهما ، فلما نزل الوحي على رسول الله أسلم أبو بكر وأظهر اسلامه ، ودعا الى الله والرسول ، فأسلم بدعته عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وجاء بهم الى رسول الله حين استجابوا ، فأسلموا وصلوا .

وقال سعد في اسلامه « ما أسلم أحد الا في اليوم الذى أسلمت فيه ، ولقد مكثت سبعة أيام وانى لثالث الاسلام » . . . يعنى بذلك الرسول وأبا بكر ، ولكن جاء في جوامع السيرة لابن حزم أن سعدا كان سابع سبعة في الاسلام هم أبو بكر ، وعلى ، وزيد بن حارثة ، وبلال بن أبى رباح ، وعيسى السلمى ، وخالد بن سعد ، وسعد بن أبى وقاص . . . واذا أضفنا السيدة خديجة أول من أسلم من النساء فيكون سعد هو ثامن المسلمين .

وكان لاسلامه قصة ارتبطت بحياته ، فقد لاقى معارضة شديدة من أمه .

وحكى سعد ما حدث له مع أمه فقال « كنت رجلا برا بأبى فلما أسلمت قالت : ما هذا الدين الذى أحدثت لتدعن دينك ، لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى ، فقلت لها : والله لو كان لك ألف نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت هذا الشئ ، فلما رأت ذلك منى أكلت وشربت » . . . اتخذت أمه من التهديد وسيلة للتأثير عليه علّه يعود الى دين آبائه ، وأعلنت صومها عن الطعام والشراب حتى أشرفت على الهلاك ، ولكنه مع حبه لأمه وبيرة بها ، لم يبع أيمانه ودينه بشئ ، حتى لو كان هذا الشئ حياة أمه ، وعندما أشرفت ، أمه على الموت أخذ بعض الرجال اليها عل قلبه يرق ، ورأى سعد مشهدا يذيب الصخر ولكن أيمانه انتصر لأنه كان يفوق كل شئ ، فلما رأت أمه منه ذلك عدلت عن عزمها . . . وأنزل الحق تبارك وتعالى « وان جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا » .

جلس رسول الله يوماً مع بعض أصحابه ، فرنا ببصره الى الأفق كأنه يتلقى همسا ، ثم نظر الى أصحابه وقال لهم « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » ، وتلفت أصحاب رسول الله هنا وهناك يرقبون القادم السعيد الذى وهب الجنة ووعد بها ، فطلع عليهم سعد بن أبى وقاص .

كان سعد من السابقين الأولين من المسلمين ، فقد أسلم قبل أن تفرض الصلاة ، وجاهد مع أصحاب النبى بهاله - وكان كثير المال آناء الله الكثير الحلال الطيب - وبأنفسه .

تكلن يضع ماله في خدمة الاسلام والمسلمين .. في حجة الوداع كان مع رسول الله ، وأصلبه مرض فذهب رسول الله يعوده ، فسأله سعد « يا رسول الله ، انى ذو مال ولا يرثنى الا ابنة — وكان سعد حتى هذه الآونة اباً ببنت واحدة ثم رزق بعدها بابناء آخرين — أفأتصدق بثلاثى ملى؟ » فقال النبى « لا » ، قال « فبنصفه » ، قال النبى « لا » ، قال « فبثلثه » ، قال النبى « نعم » ، والثالث كثير ، انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس ، وانك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله الا أجرت عليها ، حتى اللقمة تضعها في نم امرأتك » .

وكان سعد أول من رمى في سبيل الله .. فقد بعث رسول الله عبدة ابن الحارث ومعه لواء أبيض على سرية في ستين من المهاجرين ، وليس بينهم من الأنصار أحد ، وكان سعد أحد رجال السرية .. سار عبدة بمن معه حتى بلغوا ماء بالحجاز الى بطن رابغ بأسفل ثنية المرة ، فوجد عندها جماعة من قريش يبلغ أفرادها المائتين ، كان عليها عكرمة بن أبى جهل ، ولم يقع التحام بين الطرفين ، الا أن سعداً رمى المشركين بسهم ، فكان أول رام في الاسلام ، وكان يفتخر بذلك قائلاً « وانى لأول المسلمين رمى المشركين بسهم » .. عن قيس بن أبى حازم قال « سمعت سعداً يقول انى لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله » .. وعن القاسم بن عبد الرحمن قال « أول من رمى بسهم في سبيل الله سعد بن مالك » .

وكان سعد صاحب أول دم أهرق في الاسلام .. فقد كان أصحاب رسول الله اذا ارادوا أداء فريضة الصلاة ذهبوا الى شعاب مكة بعيداً عن أعين قريش وانظارها ، .. وفي أحد الأيام كان سعد في نفر من أصحاب رسول الله في شعب مكة ، فظهر عليهم بعض من المشركين ، فعابوا عليهم دينهم ، وحلولوا منعهم من أداء الصلاة وقتلواهم ، فضرب سعد رجلاً منهم بلحى ( عظم الخد ) جهل فشجه ، فكان هذا أول دم أهرق في الاسلام .

قلنا ان سعداً أسلم وهو صغير .. ولنا هنا وقفة ... هو صديق لأبى بكر وعرض عليه أبو بكر الاسلام ، فقبل الدعوة وأسلم ، وكان اسلامه صحيحاً ، فقد وضع أنه أسلم عن إيمان وعقيدة ويقين ، بعد أن امتلأ قلبه ووجدانه بالدين الجديد .. بتعاليم ورسالاته وأهدافه وغاياته ، وأدرك سعد منذ صغره أن الله ارادة في أن يرتفع العالم الى الكمال ، وأن تنفذ الانسانية المنهارة ، وأن تسمو القيم الأخلاقية وأن تنتشر الاخوة والمحبة والخير ... من خلال هذا الايمان والادراك كان سعد يبني حياته وينشئ نفسه .. ومن هنا وهب نفسه للجهاد في سبيل الله جهاداً جاداً نابعاً من الوجدان والضمير

## - ٦٣ -

والفكر والعقل والاحساس ... ومن هنا لم ييحل على الاسلام بهذه وماله وعمله .. فكان جندى الاسلام الذى لا يهاب ولا يخاف .. ثم كان قائداً لجيوش الاسلام فى اشد المعارك هولا واقساها عنفا واكثرها رهبة ، فصمد فيها وثبت ، حتى اتاه نصر الله وانتشر على يديه الاسلام فى ربوع فارس ، واطفا بيديه النار المعبودة هناك الى الابد .

ولعل الله تبارك وتعالى قد قبل من سعد اسلامه ، وعرف عنه ايمانه ، فكانت هناك صلة ثقة بينه وبين ربه ، حتى انه لم يكن يدعو على احد الا مفوضا الى الله امره ، ومن ذلك ما يرويه عامر بن سعد « رأى سعد رجلا يسب عليا وطلحة والزبير ، فنهاه ، فلم ينته ، فقال له : اذن ادعو عليك ، فقال الرجل : اراك تهددنى كأنك نبي ، وانصرفت سعد ، وتوضأ وصلى ركعتين ، ثم رفع يديه وقال : اللهم ان كنت تعلم ان هذا الرجل قد سب اقواما سبقت لهم منك الحسنى ، وانه قد أسخطك سبه اياهم ، فاجعله آية وعبرة ، ولم يمض غير وقت قصير حتى خرجت من احدى الدور ناقة لم يرد لها شيء ، حتى دخلت فى زحام الناس وكأنها تبحث عن شيء ، ثم اقتحمت الرجل ، فأخذته بين قوائمها ، ومازالت تتخبطه حتى مات » .

كان سعد من أوائل المهجرين الى المدينة ، حين اذن رسول الله المسلمين بالهجرة اليها .. هاجر اليها معه أخوه عمير ، وهناك آخى رسول الله بينه وبين مصعب بن عمير الذى قال فيه رسول الله « ما رايت بمكة أحدا أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير » ، وقيل فى بعض الروايات ان الرسول آخى بينه وبين سعد بن معاذ سيد الانصار من الخرج الذى أسلم على يد مصعب بن عمير بالمدينة .

### الجندى

كان رسول الله يعرف فى سعد قوة وبطولة وشجاعة .

وكان عليه السلام يرى فيه شفافية روح وصدق يقين وعمق اخلاص .

وهذه كلها سمات رجل الحرب ، ولهذا لم يشأ رسول الله ان يحرم سعدا شرف الجهاد فى سبيل الله .

فعندما بدأ الجهاد فى الاسلام كان سعد من أوائل من بذلوا أقصى جهدهم فى ميادين القتال .. قاتل جندياً تحت لواء الرسول وتحت لواء أمراء الرسول .. وقاتل أيضا قائدا لبعض السرايا .. حدث شعبة عن يحيى بن

الحصين قال « سمعت الحى يتحدثون أن أبى قال لسعد : ما يمنعك من القتال ؟  
قال : حتى تجيئونى بسيف يعرف المؤمن من الكافر » .

وروى أنه قال لابن أخيه هاشم بن عتبة « أريد من مائة ألف سيف سيفاً  
واحداً .. إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً ، وإذا ضربت به الكافر قطع » .

فى العام الأول الهجرى عقد الرسول راية لسعد ، فخرج فى ثمانية من  
التهاجرين على لواء أبيض يحملة المقداد بن عمرو ، ومضى بسريره حتى بلغ  
مكاناً يسمى الخرار - وهو واد من أودية المدينة - ولم يلتق سعد فى خروجه  
بأحد ، وكان رسول الله قد عهد إليه أن يجاوز الخرار ، فلما بلغ المكان كانت  
عمر قريش بقيادة أبى سفيان ( وقيل بقيادة مكرز بن حفص ) قد سبقته بيوم  
أو يومين .

قال سعد « كنا نكنم النهار ونسير الليل ، حتى أصبحنا الخرار أصبح  
خامسه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد الى ألا أجوز الخرار ،  
وكانت العير قد سبقتنى قبل ذلك بيوم وكانوا ستين » .

وفى قول سعد براعة عسكرية تدل على مدى فهمه لأساليب التحرك  
العسكري ..

يقول سعد أنه كان يكمن النهار ويسير الليل ، وهذا يعنى فى مفهوم  
الحرب الحديثة مبدأ هاماً من مبادئها ، هو السرية والمحافظة على أمن القوات  
المتحركة .

فعلى عاتق القائد تقع مسئولية المحافظة على قواته .. سلامتها  
وصيانتها .. ومن أجل هذا تبذل القيادات أقصى جهدها لتحقيق هذه السلامة ..  
ومن وسائل ذلك إخفاء التحركات حتى تكون بعيدة عن أعين العدو ..

ولا شك فى أن التحرك نهاراً يساعد على استكشاف التحرك ، بالإضافة  
الى أنه يجعل القوات هدفاً سهلاً للعدو ، وكذلك فإنه لا شك فى أن التحرك  
ليلاً يحمى القوات من أعين العدو .

وبالتالى من تدخله ضدها ، ونظرة عاجلة على عمليات العصر الحديث  
نجد أن أغلب عمليات الهجوم والانسحاب تتم ليلاً جتبي تضمن القوات حصرية  
الحركة والعمل دون تدخل الجانب الآخر ..

### وهناك جانب آخر في أسلوب سعد في التحرك .

فقواته تتحرك في منطقة صحراوية لا ظل فيها ، حرارتها مرتفعة نهائياً ، وربما ساخنة بفعل حرارة الشمس ، وهذا يسبب إجهاداً للقوات المتحركة ، ولهذا فإن التحرك ليلاً يتم في جو معتدل قليل الحرارة رقيق الهواء مما يخفف العبء . . هذا بالإضافة إلى أن حرارة النهار تعطي الجسم كسلاً غير عادي ، فتجعله راغباً في قلة الحركة ميالاً إلى الهدوء والراحة ، أما نسيم الليل وهواؤه فينعش النفس ويجعل الجسم أكثر رغبة في الحركة والعمل ، وأكثر قدرة عليهما .

وخرج سعد في سرية عبد الله بن جحش الأسدي القرشي ، وكان معه من المهاجرين أبو حذيفة بن عتبة ، وعكاشة بن محصن وعتيبة بن غزوان ، وعلمر ابن ربيعة ، وواقد بن عبد الله . . وهؤلاء من أمثل أصحاب رسول الله طاعة وشجاعة ، وكانوا يمثلون قبائل ربيعة وأسد ومازن وزهرة وعنزة وتميم وليث وفهر . . .

كتب رسول الله كتاباً مقلداً إلى عبد الله ، ورسم له طريق سيره ، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمر به ، ولا يستكره أحداً من أصحابه ، ومضت السرية ، وفتح عبد الله الكتاب فوجد فيه « إذا نظرت في كتابي هذا ، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم » .

وعرض عبد الله على أعضاء السرية كتاب الرسول ، وأخبرهم أنه لا يستكره أحداً منهم ، فمن أحب الشهادة فليخرج معه ، ومن كره فليرجع ، ولم يرجع أحد من القوم بل قالوا وفيهم سعد « كلنا نرغب فيما نرغب فيه ، وما من أحد إلا وهو سامع مطيع لرسول الله صلى الله عليه وسلم » . .

وسار بهم عبد الله حتى أتى مكاناً يقال له بحران ، وعندما بلغوا هذا المكان أضل سعد وعتبة بغيراً لهما كأنهما يتبادلان ركوبه ، ويبدو أنهما كانا قد تركاه دون قيد فشرد ، واضطرا أن يتخافا عن السرية بحثاً عنه ، فأوغلا في البداية عند نخلة وراعه ، فعثرت بهما قريش فقادتهما إلى مكة أسيرين ، وعلم رسول الله بخبرهما فالتفت نظر امر الله فيهما .

وكانت السرية قد عادت إلى المدينة ومعها أسيران هما عثمان بن عبد الله ابن المغيرة والحكم بن كيسان ، وبعثت قريش تطلب الأسيرين ، فرأى الرسول

( م ٥ ع شخصيات عسكرية اسلامية )

أن لا يفاديهما حتى يقدم ضابطاه من الأسر ، واشترط أن يصلا المدينة قبل إطلاق سراح أسرى مكة ، وقبلت قريش ، وقدم سعد وعتبة إلى المدينة ففاداهما رسول الله ، وأطلق سراح المكين .

وأسهم سعد — وكان حديث السن — في غزوة بدر ، قال في ذلك « لقد شهدت بدرًا وما في وجهي غير شعرة واحدة أمسها ، ثم أكثر الله لي بعد من اللحي » .

وقدم سعد أخاه عميرا شهيدا في بدر . . . . . قال في ذلك « رأيت أختي عميرا قبل أن يعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج إلى بدر يتواري مثلت : مالك يا أختي ، قال : أخفت أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرنى فيردننى ، وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقنى الشهادة ، قال فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستصغره فقال لا أرجع ، فبكى عمير ، فاجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكنت أعقد حائل سيفه من صفه » . وقتل عمير في بدر وهو ابن ست عشرة سنة ، قتله عمرو بن عبدود .

وشارك سعد في غزوة أحد ، ثبت يومها ، ووقف إلى جانب رسول الله يرمى بالنبل دونه ، والرسول يناوله النبل ، ويترصد له أصابته ، وكان له فيها فخر ومجد ، ظل يتفنى بهما حياته كلها . . . فقد كان الجندي الوحيد في الجيش الإسلامي الذي افتداه رسول الله بأبوية ، إذ قل له « أرم سعد . . . فذاك أبى وأمى » . . . ويقول على بن أبى طالب « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفدى أحدا بأبوية إلا سعدا ، فأنى سمعته يوم أحد يقول : أرم سعد . . . فذاك أبى وأمى » .

وكان سعد يفخر بأنه من أشجع فرسان العرب والمسلمين ، وكان الرمح سلاحه الذي لا يخيب ، فكان إذا رمى به عدوا أصابه ، ورد الصحابة ذلك إلى دعاء الرسول له « اللهم سدّد رميته » . . .

عن سعيد بن المسيب قال « سمعت سعد بن أبى وقاص يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له أبويه يوم أحد » . . . وكانت ابنته عائشة تردّد « أبى والله الذى جمع له النبى صلى الله عليه وسلم الأبوين يوم أحد » . . . وقد قال سعد في ذلك :

ألا هل أتى رسول الله أنى حميت صحابتي بصدق نبلى  
أذود بها عدوهم ذبادا بكل جزونة وبكل سهل  
فمما يعتد بهم من عبيد . . . بسيمهم مع رسول الله قبلى



.. وشارك سعد في الخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة ، ولقد المشاهد كلها مع رسول الله ..

كان في الحديبية أحد الشهود على وثيقة الهدنة ، ومعه أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهل بن عمرو ..

وكان له دور في فتح مكة .. روى الترمذي عن عائشة قولها « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أرق فقتل : ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني ، إذ سمعنا صوت السلاح فقتل : من هذا ؟ قال : أنا سعد ، فسلم .... » .

### الأسد في برائته

دار القتال عنيفا بين قوات المسلمين وقوات الفرس ..

وتبدلت القيادات في الجانبين ..

بدأ الصراع بينهما على يد القائد العربي المثنى بن حارثة ..

تقدم المثنى بقواته شمالا من البحرين في ثمانية آلاف من خيرة الأبطال ، وخاض غمار معارك كثيرة ، وضع يده على القطيف وهجر ، وبلغ مصب دجلة والفرات ، وهاجم مدينة الأبله ..

وبلغت أخباره الخليفة الأول أبا بكر الصديق ، فرأى أن تسهم الحكومة المركزية في المدينة في القتال الدائر .. وجاء المثنى الى المدينة والتقى بأبي بكر وقال « يا خليفة رسول الله استعملني على قومي فإن فيهم أسلما أقاتل به أهل فارس وأكثيك ناصيتي من العدو » ، واستجاب أبو بكر وكتب له عهدا بذلك .

الا أن الخليفة بدأ يفكر بصورة جدية في أمر حملة اسلامية الى العراق ، تعرض عليهم الاسلام أو الجزية أو القتال ، ووقع اختياره على خالد بن الوليد فأرسله على رأس ألف رجل ، وانضم اليه ثمانية آلاف من ربيعة ومضر ، كما انضم اليه المثنى على رأس ثمانية آلاف أخرى ، وعياض بن غنم ومعه مثل هذا العدد ..

وواجه خالد جيوش الفرس في مواقع متعددة ... في كاظمة .. المذار .. الولجة .. اليس .. امغيشيا .. الحيرة .. الأنبار .. عين التمر .. التحصين .. الثني .. الفراض .. وكان نجاح خالد نجاحا منقطع النظير ، شجع أبناء بكر على أن يستمر في متابعة اخضاع بلاد الفرس كلها للحكم الاسلامي ..

أبو بكر مزهواً بانتصارات خالد « يامعشر قريش عدا أسدكم على الأسد ،  
فغلبه على خراذيله » .

وكان الموقف العربي في بلاد الشام يحتم تحرك خالد الى هناك ، ليقود  
الجيش الاسلامي في مواجهة جيوش الروم ، وترك خالد بلاد العراق بعد أن أعاد  
القيادة الى المثنى الذي استمر في أداء واجبه ، فحاض مع جنده غمار معارك  
كثيرة تحقق له فيها النصر وكان أوج انتصاراته في بابل .

وطلب المثنى الامداد من الخليفة ، الا انه كان مريضاً قد أشرف على  
الموت ، ومع هذا فقد أوصى عمر بأن يولى الحرب الدائرة في العراق غياصة  
اهتمله ، والا يتوانى عن تقديم العون الكامل لهذا الميدان الحيوي .

ومع بداية عهد عمر دخلت معارك العراق مرحلة جديدة .

فقد سعى عمر الى جمع الجموع وحشد القوى لتدعيم الموقف هناك ...  
عفا عن أهل الردة ، وسمح لهم بالمشاركة في القتال ، ثم دعا الناس « أيها  
الناس ، ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله  
الا بذلك » .

وتجمع الناس استجابة لدعوة عمر فولى أمرهم ابا عبيد عمرو بن مسعود  
الثقفي ، لانه كان أسبقهم الى الخروج ... قال له « يا أمير المؤمنين ، انا  
تسمعناك وأطعناك ، وأنا أول من أجاب هذه الدعوة انا وقومي وعشيرتي » ،  
وفي ذلك قال عمر « .. أولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع ، وأجلب الى  
الدعاء ، والله ، لا أؤمر عليهم الا أوامهم انتداباً » .

وتولى أبو عبيد بن مسعود قيادة جيش المسلمين ، وواجه أعداءه في  
معارك عدة انتصر فيها كلها .. في النمارق .. القاطية .. باروسيا ..

ثم كانت معركة الجسر آخر معاركه هناك فال فيها شرف الاستشهاد ،  
بعد أن أدى دوره وقام بواجبه ..

وعاد المثنى من جديد يتولى قيادة المسلمين ، وأخذ بثأرهم في غزوة  
البويب ، حيث أحيا الأمل ، وأعاد الثقة الى المسلمين الذين ذاقوا مرارة هزيمة  
ساجقة في الجسر .. ثم باشر المثنى مهله بمجموعة من الغارات على سوق  
الخنافس .. الأنبل .. بلادوريا .. قطريل .. سوق بغداد .. صنين ..  
تكريت ..

- ٤٩ -

وكانت الهزائم المتكررة التي لحقت بقوات الفرس ناقوس خطر ، تنبئة على صوت دقاته الفرس قلادة وحكها ، فبدأوا يفكرون في أمرهم ، وأصبح واضحاً أن الأمر سيفلت من أيديهم نتيجة لما أصابهم من الفرقة والانقسام والاختلاف ، فجمعوا أمرهم ، وطرحوا خلافاتهم ووجدوا كلمتهم ، ونظموا جيوشهم لمواجهة الزحف الاسلامي .

اجتمع أهل فارس بالقائدين رستم والفرزان وتحدثوا اليهم في صراحة ووضوح « فما بعد بغداد وسلباط وتكريت الا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدان بكما قبل أن يشمت بنا شامت ونشفين نفوسنا منكما » .

وتم الاتفاق على أن يتولى يزيدجرد العرش ، وأن تتف جميع القوى خلفه صفا واحدا يواجه المصير ... ونشط يزيدجرد في جمع الجوع وتكوين الجيوش.

وأحس أهل السواد بالاستعداد الكبير في معسكر الفرس ، فهدعوا يثورون على المسلمين ، ويهاجمون مواقعهم .

وأُسند يزيدجرد قيادة المعركة الى قائد الفرس وبطلها رستم ، فبعث على مقدمته الجالينوس في أربعين ألفا ، وجعل على يمينه الهرمان ، وعلى يسارته مهران بن بهرام ، وبقي هو في مركز القيادة ، وأصبح عدد قوات الفرس مئة وعشرين ألفا ، تقدمهم ثلاثة فيلة ، كان أكبرهم وأخطرهم فيل سابور الأبيض .

ووصل رستم بقواته الى القادسية .

وفي ذات الوقت كان الاستعداد يجري في الجانب العربي على قدم وساق تقديراً من المسلمين لأهمية المعركة القادمة التي كانت تبدو وكأنها المعركة الفاصلة ، فإذا انتصر المسلمون فتحت أمامهم أبواب المدائن ، وانهلرت تحت أقدامهم دولة الفرس ، وإذا نهزموا تعقد الموقف ، ولا أحد يعرف ما قد يترتب على ذلك .

ولقد أدرك الخليفة عمر ذلك فبعث الى عماله « لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبنيوه ، ثم وجهتموه الى ، العجل .. العجل » ثم قال لأصحابه « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » .

واجتمعت لدى عمر بضعة آلاف ، وقرر أن يخرج بنفسه على رأس الجيش ، ولكن أصحاب الرأي والمشورة رفضوا ذلك ، وطلبوا منه البقاء ،

## — ٧٠ —

فإن كان الذى يشتهى من الفتح فذلك ما يريد ويريدون ، والا نذب جنداً آخر يعيظ به العدو ، حتى يجيء نصر الله ، وقتل عبد الرحمن بن عوف « أقم وأبعث جنداً ، وإن تقتل أو تهزم فى أنف الأمر ، خشيت أن لا يكبر المسلمون والا يشهدوا أن لا إله الا الله » ، وتكلم عمر فقال « يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وأنى أنما كنت كرجل منكم ، حتى صرفنى ذوو الراى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلاً » .

ولكن من يكون هذا الرجل ؟

أخذ الناس يعرضون الأسماء ويناقشون الترشيحات .

وبينما البحث مستمر ، وصلت رسالة الى عمر من سعد بن أبى وقاص ، وكان على بعض صدقات نجد ، يخبره أنه قد تخير ألف فارس ذوى بطولة وقوة .

وضع عمر يده على الرجل المنشود وقتل لأصحابه « قد وجدت الرجل » ، فسأله فى لهفة « من ؟ » ، فأجلب « أسد الله فى برائه ، سعد بن مالك » ، ونال الترشيح قبول الناس جميعاً وصاحوا « نعم . انه رجل شجاع رام » ، واستدعاه عمر على الفور ، وعينه قائداً لجيوش المسلمين « انى قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى ، فانك تقدم على أمر شديد كربه ، لا يخلص منه الا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به » .

وتولى سعد القيادة .

### توجيهات القائد العام

يتولى القائد عادة أمور الجند وأمور المعركة ..

والقيادة تتمثل فى مستويين :

● القيادة العليا .

● قيادة الجيوش .

وكان رسول الله يتولى بنفسه وطيلة حياته القيادة العامة للجيش الاسلامى ثم تولاها من بعده أبو بكر ثم عمر .. وكان مركز القيادة فى المدينة .

كان رسول الله يجمع بين القيادتين العليا وقيادة الجيش المحارب — الا

## - ٧١ -

في سرايا قليلة - ، ولكن الوضع تغير في عهد ما بعد الرسول ، فقد كان عليه السلام عند الخروج يولى امر المدينة واحدا من اصحابه الذين ارتقوا الى مستوى المسؤولية ، فمثلا عند الخروج الى بدر جعل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس ، واستعمل أبنا لبابة على المدينة ..

ولكن تغير الوضع في عهد الخلفاء ، فلم يكن في استطاعة الخليفة ان يترك امور الدولة ليخرج مع الخارجيين ، وخاصة ان الجيوش تعددت ، وميادين القتال تنوعت ، والحرب زادت رقعتها ، واستوجب الامر أن يكون الخليفة في مكان القيادة العليا او العامة يصدر منها الاوامر ويحرك منها الجيوش ويعد فيها الاهدادات .

كما استوجب أيضا أن تتواجد في أرض المعركة قيادات للجيوش مستقلة ، تنحل عبء المعركة في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا .

والقت المسؤوليات الجديدة لاتساع ميادين القتال وتعدد جبهاته مهمة خطيره على عاتق القائد العام فأصبح مسئولوا عن متابعة الأحداث وامداد القوات بالاضافة الى تنظيم أمور الدولة .

تولى أبو بكر قيادة الجيوش الاسلامية بعد رسول الله ، فحرك القوات الى داخل الجزيرة العربية والى بلاد العراق وبلاد الشام ولم يخرج على رأس أى منها ، بل ظل في المدينة يباشر أمور المعركة والدولة ، واختار لكل جيش قائدا يثق به ويؤمن بقدراته وامكانياته .

وكذلك فعل عمر بن الخطاب حين تولى أمر المسلمين .

الا أن المسؤوليات التي القيت على عاتقه كانت خطيرة وضخمة ، وكان لابد له من أن يباشرها بنفسه بكل عناية ودقة ورعاية ، حتى تتحقق ما كانت تنشده الأمة الاسلامية في عصره ، من قيامها على أسس من الدعم الداخلي والدعم الخارجى ..

كان عليه أن ينظم الدولة داخليا ، في ذات الوقت الذى ينظم فيه أمور الفتح ويرتب المشاكل الناتجة عنه .

لهذا عاش عمر مع قواته المحاربة بحساساته ومشاعره .. كان كأنه يعيش معهم المعركة في الميدان ، يرى الأحداث وينظمها ويرتب لها ... كان يبعث بصفة دائمة بأوامره ونصائحه وآرائه .. كانت صاته بهم لا تنقطع ،

## — ٧٢ —

ورسائله مستمرة متتابعة ، ترسم لهم طريق العمل ، وتحدد امامهم سبيل الجهاد ، وتضيء لهم مواقع النصر .

ومن اهم واجل رسائل عمر رسالته الى سعد بن ابي وقاص بعد ان تولى قيادة الجيش العربى فى العراق ، وتعد هذه الرسالة من اعظم الرسائل التى وجهت للجيش المقاتلة فى عصور ما قبل الاسلام وفى عصور ما بعده . .

تؤكد هذه الرسالة معانى قتالية جايبة ، ، وتبرز مبادئ ذات قيمة فى مجال الحرب ، وتلقى الضوء على سياسة القتال ، وتضع خطة اللقاء مع العدو على أسس تضمن الارتقاء بمستوى المعركة وأخلاقياتها ، وتمهد الطريق للنصر . .

وكان سعد حين تلقى الرسالة يتف على رأس جيش قوى يؤوده فى احدى معارك التاريخ الكبرى ، وكان يتلقى الاوامر والتوجيه فينفذها ، لا غرور القوة ولا صلف الزعامة يحملانه على الركون المفرط لثقتهم بنفسه ، بل كان يلجأ الى أمير المؤمنين فى المدينة ، وبينهما ابعاد ، فمرسل له اخباره ويتبادل معه الراى والمشورة ، ويتقبل ما يرد اليه بروح الجندية الاسلامية الاصيلية .

### قال عمر فى رسالته . .

انى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فان التقوى افضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم الله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فلذا استويننا فى المعصية كان لهم الفضل علينا من القوة ، والا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله ، يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وانتم فى سبيل الله ، واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه العون على عدوكم . . أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم .

### وقال . . . .

ترفق بالمسلمين فى سيرهم ، ولا تجشمهم سيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يلبثوا عدوهم ، والسفر لم ينقص قوتهم ، فانهم

## ٧٣ -

سلّون الى عدو مقيم ، حلمى الانفس والكراع ، واقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة ، يحيون بها انفسهم ، ويرمون اسلحتهم وامتعهم .

### وقال \*\*\*\*

نح منازلهم عن قري اهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من اصحابك الا من تنق بدينه ، ولا يرزا احد من اهلها شيئا ، فان لهم حرمة وذمة ابتليت بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فان صبروا لكم فتولهم خيرا ، ولا تستنصروا على اهل الحرب بظلم اهل الصلح .

### وقال \*\*\*\*

واذا وطأت ارض العدو ، فاذاك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك امرهم ، وليكن عندك من العرب او من اهل الارض من تطعن الى نصحه وصدقه ، فان الكذب لا ينفعك خبره وان صدقك فى بعضه ، والغاش عين عليك وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك من ارض العدو ان تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم .

وتنق للطلائع اهل الراى والبأس من اصحابك ، وتخبر لهم سوابق الخيل ، فان لقوا عدوا كان اول ما تلقاهم القوة من راىك ، واجعل امر السرايا الى اهل الجهاد والصبر على الجلال ، ولا تخص بها احدا تهوى ، فتضيع من راىك وامرك اكثر مما حابيت به اهل خاصتك ولا تبعن طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة او ضيعة او نكاية .

### وقال \*\*\*\*

فاذا عاينت العدو ، فاضم اليك اقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعالجهم بالمنجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر غورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الارض كلها كمعرفة اهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك . ثم اذك احراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدا .

### وقال فى نهاية رسالته ..

والله ولى امرك ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان والحمد لله رب العالمين .

والى هنا تنتهى رسالة الخليفة عمر الى القائد سعد بن ابي وقاص .

في هذه الرسالة وضع الخليفة عمر بصفته القائد العام لجيوش المسلمين دستوراً للحرب ، وقدم لقائد قواته مبادئ خالدة يلتزم بها ولا يحيد عنها .

**فالقائد العام طلب من قائد قواته أن يتقى الله ، فتتوى الله قوة تساعد على العدو وتعين على مواجهته ، تزيد الايمان ، وتثبت العقيدة ، وتتوى العزم ، وتذهب الوهن ، وتعطى الشجاعة ، وتمنح الصبر والصمود ، وتدفع الى النصر الذى وعد الله به المجاهدين .**

**والقائد العام أمر قائد قواته أن يبتعد وجنده عن المعاصي ، وأوضح له ولهم أن النصر على العدو يكون نتيجة لطاعة الله ، فالعدو يعصى الله ولهذا فهو عدو ضعيف ، لا يلتزم بخلق ولا ينتهج سبل التقوى والايمان ، فتضعف عنده الرغبة فى القتال ، وتهن عزيمته فتسهل هزيمته .**

**والقائد العام نصح قائد قواته أن يستعين بالله ويتوكل عليه ، فتخلص نياتهم ، وتصفو مشاربهم ، وترقى عواطفهم ، ويشدد ساعدتهم ، فيتميزون بذلك على عدوهم ، ولهم فى رسول الله أسوة ، فقد اتجه عليه السلام بكل أحاسيسه ومشاعره فى موقعة بدر الى ربه ، وناشده ملتصبا بالنصر والعون « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتني » ، وظل رسول الله فى مناشدته ربه وأبو بكر من خلفه يقرئ له « يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ما وعدك » .**

**والقائد العام وضع دستوراً لتحرك الجند الى ميدان المعركة فقد كان يعرف أن القوات تحركت من الجزيرة الى حيث يقع القتال فوق أرض العراق . . . مشوار بعيد مرهق ، ومسيرة طويلة مهلكة للقوى ، ولهذا نصح قائد قواته أن يترفق بالجند ، ولا يحملهم ما لا طاقة لهم به ، ولا يجشهم سيرا يؤثر فى امكانياتهم ، وذلك حتى يصلوا الى الميدان وهم فى راحة دون جهد ، وفى حالة نفسية غير مرهقة ، لأنهم سيواجهون عدوا قابعاً فوق أرضه لم يبذل جهداً ، ولم يتطلب الأمر انتقاله .**

**وهذا الذى رآه الخليفة عمر ودعا اليه ، هو ما يلتزم به القيسادات فى حروب اليوم ، فهى تحرص على عدم إجهاد الجند قبل المعركة ، ولهذا أنشئت المركبات وحاملات الجنود برا وبحرا وجوا ، تنقل المقاتلين من مراكز التجمع الى أماكن القتال ؛ دون أن يصيبهم جهد أو إرهاق ، فيكونون فى حالة نفسية تؤهلهم لدخول المعركة ومواجهة العدو وقواهم موفورة .**



**والقائد العام طلب من قائد قواته أن يمنح جنده راحة أسبوعية** يجددون فيها نشاطهم ويصلحون سلاحهم ويعيدون أنفسهم لمرحلة قادمة ، فيها عنف وشدة .. وهذا هو ما تسلكه قيادات اليوم وتحرص عليه ، فهي تمنح جنودها ما يسمى « أجازات الميدان » .. لذات الغرض الذي كان عمره يهدف إليه .

**والقائد العام أوصى قائد قواته بعدم التعرض بالايذاء لأهل الصلح والذمة ،** وبعدم التعرض الأموالهم ، فلا يستعين به في محاربة الأعداء ، لأن لهؤلاء حرمة ، ولأن المسلمين أمروا بالوفاء بالمعهود .

كما رأى أن يكون مقلم الجند بعيدا عن قرى أهل الذمة والصلح ، وطلب أن يمنع اختلاط الجند بهم .

**وأبرز القائد العام في رسالته أهمية الاستكشاف** .. فهو يصر على أن يعرف قائد قواته كل شيء عن عدوه ، أخباره .. تسليحه .. مواطن الضعف ومواطن القوة .. ولهذا طلب من قائد قواته أن يستعين في ذلك بالعيون الصادقة المخلصة التي تنقل ما تراه بأمانة دون تعديل أو تغيير ، والتي تبحث عن الأخبار الهامة والمعلومات المفيدة ، وقد أعطت القيادات الحديثة لعملية الاستكشاف غاية اهتمامها وعنايتها وتقديرها .. فأصبح الاستكشاف ( الاستطلاع ) أول مرحلة من مراحل الأعداد للمعركة فالمعلومات التي تصل إلى القائد خلال هذه المرحلة عن عدوه تكون الأساس الذي يضع عليه خطة اللقاء .

**وفوق ذلك كله فإن رسالة القائد العام قد حوت مبادئ قتالية هامة :**

● منها .. ضرورة تحطيم مرافق العدو وقطع خطوط مواصلاته ومنع العون أو المدد عنه ... وهذه خطوة ذات أهمية بالغة وقت القتال ، فسلامة خطوط المواصلات تعنى سلامة القوات لأنه عن طريقها تصل الإمدادات ويتم الاتصال بالقيادات ، وقطع هذا الاتصال يؤدي إلى عواقب وخيمة ونتائج خطيرة .. ولقد كان المسلمون حريصين على بقاء هذه الخطوط سليمة ، وعن طريقها كانت تصل توجيهات القيادة العامة ، وكانت أيضا تصل الإمدادات التي يتطلبها الموقف في الميدان .

● ومنها .. عدم إرسال السرايا إلى أماكن غير معروفة أو مدروسة يخاف عليها فيها الهزيمة والمضياع ، ولهذا كان المسلمون يقومون بدراسة المناطق ومعرفة أسرارها حتى لا يتورطوا في منطقة يعرف العدو كل

شبر فيها ويجهلونها هم ، ولهذا نصح القائد العام قائد قواته أن يطيل مدة البقاء في أرض العدو ، لأن ذلك يزيد الخبرة بها .

● ومنها .. **عدم البدء بالعدوان** ، وهذه سياسة عامة وضع قواعدها الاسلام ، وجعلها مبدأ من مبادئ القتال ، الا في حالة الاكراه على البدء به .. كانت خطة المسلمين تقوم أساسا على عرض الاسلام ، فان استجاب العدو أصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وان رفض عرضت عليه الجزية مقابل حمايته والدفاع عنه ، فان استجاب عاش مع المسلمين لا يمس بسوء ، وان أبى لم يعد في جعبة المسلمين سوى القتال .

● ومنها .. **الاهتمام البالغ بأقامة حراسة كاملة حول معسكر الجند** حتى لا يفاجئهم العدو ، وضرورة اليقظة التامة ، وعدم الاطمئنان الى العدو .. وهذا يعنى الاهتمام بالسرية وسلامة الجند والحرص خوفا من وقوع مفاجأة تهز أعصاب الجند وتحطم معنوياتهم وتوهن عزيمتهم ، وهو يؤكد على أهمية الحراسة ليلا ، واتخاذ الحيطة والاستعداد لأية مفاجأة .

وفي ختام رسالة القائد العام ، ركز عمر على ضرورة الاستعانة بالله والتوجه اليه ، والاعتماد عليه ، ومداومة مفاشده تعالى النصر وانتايد ، ايمانا بأنه تعالى ولى النصر ، يؤيد المقاتلين في سبيله ، ويشد أزهرهم ويمدهم بالنصر ، مصداقا لقوله تبارك وتعالى « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » .

واود ان أركز على نقطة هامة فان كلمة المبادئ والأسس التى وردت في رسالة القائد العام هى ذات المبادئ التى تستخدم في حروب اليوم ، وان المطلع على تاريخ الحرب العالمية الثانية وهى أحدث حروب العصر تاريخا ، يدرك تماما أن معارك هذه الحرب في كلمة ميادينها قد روعيت فيها كل المبادئ والأسس التى حددها عمر في رسالته .

### منطق الأبطال

تولى سعد قيادة الجيش الاسلامى وأخذ يعد نفسه للمعركة الفاصلة . وجاعته رسالة من رستم قائد الفرس يطلب منه أن يرسل رجلا من عقلاء المسلمين يتحدث اليه .

اختار سعد المغيرة بن شعبه ، فاقبل المغيرة حتى جلس مع رستم على

سريره ، لم ترهبه مظاهر القوة والسلطان التى أحاط رستم بها نفسه ، ووثب عليه رجال رستم وأنزلوه ، فقال لهم بمنطق المؤمن القوى « قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم ، اننا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، فكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أربلب بعض .. » فقال عامة الناس « صدق والله العرب » ، وقال رؤسائهم « والله لقد رمى بكلام لا زال عبيدنا ينزعون اليه » وعرض المغيرة على رستم أن يقبل الاسلام ، أو يؤدى الجزية ، أو يقاتل .

وطلب يزدجرد وفدا من المسلمين ، فسر اليه وفد فيه النعمان بن مقرن ، وفرات بن حيان ، والأشعث بن قيس ، وعمر بن معدى كرب ، فلما التقى بهم عجب لنظرهم اذ رأهم رجالا عجافا ، أردبتهم على عواتقهم ، وسيطاهم فى أيديهم ، ونعالهم فى أرجلهم ، وخيولهم ضعيفة .

سألهم يزدجرد « ما الذى أقدمكم هذه البلاد ؟ ، أتراكم اجترأتم علينا لما تشاغلنا بأنفسنا ؟ .

وتولى النعمان الرد عليه .. قال له « ان اجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأتمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلادكم .. وان أتيتم بالجزية قبلنا ومنعناكم ، والا قاتلناكم » .

وأغضبت هذه الاجابة يزدجرد ، وخاصة كلمة « والا قاتلناكم » ، فقال « لا أعلم أمة فى الأرض كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم ، وقد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكنوناكم ، لا تفزوكم فارس ولا تطمعون فى أن تقدموا لهم ، فان كان عددكم كثر ، فلا يغرنكم كثرته ، وأن كل الجهد دعالكم ، فرضنا قوتنا الى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسونكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم » .

ورد عليه المغيرة «أيها الملك، هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وانما يكرم الأشراف ويعظم حقهم الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا به قالوه ، وكل ما تكلمت به أجابوك عنه ، فجأوبنى لأكون الذى أبلغك وهم يشهدون على ذلك لى ، فأما ما ذكرت من سوء الحال فهى على ما وصفت وأشد .. » وذكر له سوء عيش العرب وارسال الله رسوله اليهم ، ثم انتهى الى قوله « اختر ان شئت الجزية ، وان شئت السيف ، أو تسلم فتنجى نفسك » .

ولم يطق يزددرد صبورا على ما سمع ، واخذ منه الغضب فقال « لولا أن  
الرسول لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي »

ثم تصرف يزددرد تصرفا شائنا ، إذ أمر من جاء بوقر من تراب ، فقال  
« احمطوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ، أرجعوا  
إلى صاحبكم فأعلموه أنني مرسل إليهم رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق  
القادسية ، ثم أوردته بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد ما نالكم من سابور » .  
وعجب يزددرد إذ رأى الوفد هادئا لم تهزه كلماته ، ولم يزعجه منطقته ،  
ولم تنخلع قلوب أفراده لوعيده ..

وتقدم عاصم بن عمرو وحمل التراب على عاتقه وقال « أنا أشرفهم ..  
أنا سيد هؤلاء ... » ، وخرج الوفد إلى سعد بحصن فديك ، وقصص عاصم  
عاصم ما حدث ، فقال « أبشروا فقد والله أعطانا الله مقلد ملهم » .

وسمع رستم بتصرف يزددرد ، وتطير لما سمع وتولاه الغضب ، ذلك أنه  
كان منجما ، ودلته النجوم على أن الذين خرجوا من المدائن بترايبها إنما خرجوا  
معيهم بأرض فارس ، ولهذا بعث رجلا في أثرهم وقال « ان أدرك التراب  
فردته تداركنا أمرنا ، وان ذهبوا به إلى أميرهم غلبونا على أرضنا » .

ورجع الرجل دون أن يلحق بالوفد .

فازداد رستم غما وغضبا ، واستهجن ما فعله يزددرد .

وخرج رستم يوما للاستطلاع ، فالتقى بأحد قادة المسلمين هو زهرة بن  
الحوية ، فعرض رستم أن يصلح المسلمين وقال « أنتم جبرائنا ، وقد كانت  
طائفة منكم في سلطانتنا ، فكنا نحسن جوارهم ونكف الأذى عنهم ، ونوليهم  
المرافق الكثيرة ، ونحفظهم من أهل باديتهم ، فنرعيهم مراعيينا ، ونمريهم من  
بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا ، وقد كان لهم في ذلك  
معاش » .

قال له زهرة « صدقت وقد كان ما تذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ،  
ولا طلبتنا طلبتهم ، إنما لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة ، كنا  
كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضرع اليكم بطلب ما في أيديكم ، ثم  
بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولا ، فدعانا إلى ربه فأجبناه » .

واخذ رستم يسأله عن الإيلاف ، وينصت إليه باهتمام وهو يجيب ، ثم

سأل « أرايت لو أنى رضيت بهذا الأمر وأجبتكم اليه ومعى قومى كيف يكون أمركم ، أترجعون ؟ » ، فأجاب زهرة « أى والله لا نقرب بلادكم أبداً الا فى تجارة أو حاجة » .

وحين أصبح القتال وشيك الوقوع ، أصيب سعد بمرض مشأجىء ، اذ ظهرت على جسمه دمل كثر أعجزته عن الحركة ، فلا يستطيع أن يركب أو يجلس ، والزمته بالبقاء مكبا على وجهه ، فى صدره وسادة يعتمد عليها . . . اتخذ سعد لنفسه مكانا يشرف منه على أرض المعركة ، وأسند قيادة العمليات الى خالد بن عرفة اللثى ، يبلغ أوامره الى الجيش ، ويراقب تنفيذها ، ويباشر القتال بنفسه ، ويطلعه على سير المعركة وتطوراتها ، فكان سعد يرمى اليه بالرفقاع فيها الاوامر . . قال سعد لأصحابه « أنى قد استخلفت عليكم خالد بن عرفة ، وليس يمنعنى أن أكون مكانه الا وجمى الذى يعودنى ، أنى مكب على وجهى ، وشخصى معكم باد ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه انما يأمركم بأمرى » .

ومن مكانه وهو مستلق على وجهه خاطب جنده « ان الله هو الحق لا شريك له فى الملك ، وليس لقوله خلف ، قال الله جل ثناؤه ( ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ) ، ان هذا ميراثكم وموعد ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها ، وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجبنونهم وتسبونهم الى هذا اليوم بما نال أصحاب الأيام منكم ، وقد جاءكم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وخيار كل قبيلة وعز من وراءكم ، فان ترهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله لكم الدنيىب والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحدا الى أجابه ، وان تفشلوا وتهنأوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم » .

وتأثر عاصم بن عمرو بقول سعد فقام فى الناس خطيبا « هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها ، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنوات ، ما لا ينالون منكم ، وأنتم الأعلون والله معكم ، وان صبرتم وصدقتموهم الضرب والطمع ، فلكم أموالهم وتسأؤهم وبلادهم ، وان خرتهم وفشلتم ، والله لكم من ذلك جبار وحافظ ، لم يبق هذا الجمع منكم باقية ، مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك ، الله . . . الله . . . اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها . . ألا ترون أن الأرض وراءكم ببسبى قفار ليس فيها خم ولا وزر يعقل اليه ولا يمنع به ، اجعلوا همكم الآخرة » .

## - ٨٠ -

واستدعى سعد جماعة من أولى الراى كالمغيرة وعاصم وطليحة ، وجماعة من الشعراء مثل الأشماخ والحطيئة وعبد بن الطيب وقال لهم « انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ، ويحق عليهم ، عند مواطن البأس ، فأنتم من العرب بالمكان الذى أنتم به ، أنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم ، وأنتم سادتهم ، فسيروا فى الناس ، فذكروهم وحرضوهم على القتال » . .

وانطلق هؤلاء بين الصفوف يحدثون الجند ويخاطبونهم ، يثيرون مشاعرهم وعواطفهم ..

قال الهذيل الأسدى « يا معشر معد ، اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليها كأسود الأجمل ، وتربدوا لهم تريد النمر ، وادرعوا العجاج ، وثقوا بالله وعضوا الأبصار ، فاذا كالت السيوف فارسلوا عليها الجنادل فانها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه » . .

وقال عاصم بن عمرو « يا معشر العرب انكم اعيان العرب ، وقد صمدتم الأعيان العجم ، وانما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم احوط منكم على آخرتكم ، لا تحدثوا اليوم أمرا تكونون به شيئا على العرب غدا » . .

ان هذه الأقوال كلها سواء التى قيلت ليزدجرد ورستم ، أو التى وجهت الى الجنود المقاتلين تحمل معنى واحدا هو أن المسلمين قد تجهزوا معنويا للمعركة . . الكل يدرك أنه يحمل رسالة السماء وينفذ تعاليم الدين ، وليس أغلى من الروح تفدى بها هذه المهمة . . لهذا دارت المعركة والكل متفهم لواجبه ، مدرك لدوره ، مستعد لتحقيق النصر أو نيل الشهادة .

### الأيام الخالدة

التقى المسلمون والفرس وجها لوجه فى القادسية .

وكان الطرفان فى وضع الاستعداد .

أرسل سعد الى رجاله « اذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع نعالكم ، فاذا كبرت الثانية فتهيئوا ، فاذا كبرت الثالثة فشدوا النواجذ على الأضراس واحملوا » .

ثم أمر بقراءة سورة الأنفال ، فقرئت فى كل الكتائب وجميع المواقع ، فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم . .

وعند الفراغ من القراءة كبر سعد وكبر وراءه الذين يطونه ، فاستعد  
الناس ثم ثنى سعد فأكل الناس استعدادهم ، ثم ثلث فهاجت النفوس للقتال  
واشتدت الرغبة للنزال . . ثم كانت التكبرة الرابعة التى حددت ساعة  
الصفير ، فبدأ الزحف ، وخرج المسلمون من مواقعهم يبارزون الفرس .

وكان أول الخارجين غالب بن عبد الله الأسدي . . . . . تخرج وهو ينشد :

قد علمت واردة المسليح ذات اللبان والبنان الواضح  
أني سمام البطل المشايح وفارج الأمر المهم الفادح

والتقي بهرمز فأسره ، وقاده الى سعد ، ثم عاد الى المعركة يباشر  
القتال .

وتخرج عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين اذ تغشاه الذهب  
أني امرؤ لا من يعيبه السبب مثلى على مثاك يغريه العتب

وأسر عاصم رجلا معة بغل واستطاع الرجل الفرار واستاق عاصم البغل  
والرجل فاذا فى الرحل طعام رستم ، وتبين أن الرجل الفار هو خبزه ، ووزع  
سعد الطعام على الناس .

ودار القتال عنيفا غاية ما يكون العنف ، وسعد يرقبه من مكانه ،  
ويخاطب الناس وصوته المفعم بقوة العزم والأمل يجعل من كل جندي جيشا  
بأسره . . وتهوى جنود الفرس تحت ضربات المسامين . . ضرب فارسي  
عمرو بن معدى كرب بنشابة فأصابته درعة ، فحمل عايه عمرو وقبض عليه  
وكسر عنقه وذبحه بسيفه ثم ألقاه أمام الناس وهو يقول « هكذا  
فاصنعوا بهم » .

ووجه الفرس ثلاثة عشر فيلا الى جناح بنى بجيلة ، وكان يمثل خطورة  
كبيرة عليهم ، ففرت الخيل وفزع الرجال ، ولاحظ سعد ذلك من مكانه ،  
فأصدر أوامره الى بنى أسد أن ينضموا اليهم ويعاونوهم « ذبوا عن بجيلة ومن  
حولها من الناس » ، وخاطبهم طليحة بن خويلد « يا عشيرناه ! لو عام سعد  
أن أحدا حق باغثة هؤلاء منكم ، استغاثهم ، ابتدئوهم بالشدة ، واقدبوا  
عليهم اقدام الليوث الحربة ، فانما سميت أسدا لتنعوا فعله ، شددوا  
ولا تصدوا ، وكروا ولا تفروا ، شدوا عليهم باسم الله » .

( م ٦ — شخصيات عسكرية اسلامية )

وتقدم بنو أسد ومقاتلوا وحبسوا الفيلة ، الا أنها عادت من جديد تحمل على المسلمين ، ورآها سعد فبعث الى عاصم بن عمرو « يا معشر بنى تميم ، الستم أصحاب الابل والخيل ؟ أما عندكم اهذه الفيلة من حيلة ؟ » ، فأمر عاصم رجاله أن يذبوا ركبنا الفيلة عنهم بالنبل ، وأن يستدبروا الفيلة ، ويقطعوا وضمنها ، ونفذ رجاله أوامره ، فارتفع عواء الفيلة ، وألقت بركبانها فقتلوا .

### وانتهى قتال اليوم الأول . . . . . يوم أرمات .

ومن أهم ما يتميز به قتال هذا اليوم :

● خاض الجيشان المعركة وهما في حالة نفسية مرتفعة وروح قتالية عالية . . كل ينشد النصر ويرى فيه وجوده وكيانه بل وجود أمته بأسرها التي ترقب القتال وتنتظر نتيجته .

● كان القتال بالغ العنف حتى أن الفرس فقدوا أعدادا ضخمة من مقاتليها في الوقت الذي خسر فيه بنو أسد وحدهم أكثر من خمسمائة .

● ان وجود القائد في المعركة أمر بالغ الأهمية ذلك أنه يرقب تحرك قواته ومدى تنفيذها للخطّة ويعالج الموقف فور ادراكه لصورة القتال ولهذا أصر سعد — رغم مرضه الذي أعاقه عن الاسهام في أحداث المعركة — على قيادتها من مركز قيادته في قديس .

● لم ينس المسلمون خلال القتال العنيف نصر الله الذي وعد به المؤمنين المجاهدين في سبيله ، فقد كانت كلمة الله دائما على السنتهم حتى أن الأوامر بالهجوم كانت ترتبط دائما باسمه تعالى ، كما جاء في قول طليحة لقومه « شدوا باسم الله » ايماننا بأن الله يمدهم بالقوة والعون .

### ثم كان قتال اليوم الثاني . . يوم اغواث .

في هذا اليوم لم تشترك الفيلة في القتال .

وكان لغيابها اثر كبير فقد زال خطرهما وقيل انها تغيبت لاصلاح توابيتها التي تكسرت .

وفي هذا اليوم أيضا وصلت امدادات جديدة الى المسلمين بعث بها عمر ابن الخطاب بعد انتصار المسلمين في دمشق وفحل ببلاد الشام . . بيته آلاف يتودها هاشم بن عتيبة . . والاب يتودها القعقاع بن عمرو .



عندما بدأ القتال كان القعقاع قد وصل أرض المعركة ، فخاض غمارها  
وشارك فيها فور وصوله ، وتقدم الصفوف وصرخ في وجه الفرس « من  
يبازر ؟ » .

فخرج من صفوفهم ذو الحajib ، وعرفه بنفسه قائلا : « أنا بهمن  
جاذويه » ، فلما عرفه القعقاع قال بصوت مرتفع « يا لثارات أبى عبيد  
وسايط وأصحاب يوم الجسر » ، وهاجمه وقتله ، ثم نادى في الناس  
« يا معشر المسلمين باثروهم بالسيوف انما يحصد الناس بها » .

ومن أبطال القتال في هذا اليوم أبو محجن الثقفى ، وهو فارس مغوار  
كان مقيدا وقت المعركة ، أذ كان مولعا بالخمر في الجاهلية ، ولم يقطع عنها في  
الاسلام ، فنفاه عمر الى القادسية فوصلها وقت المعركة ، فقيده سعد وسجنه ،  
وبينما هو في سجنه سمع صليل السيوف وضجيج المعركة وصهيل الجياد ،  
فهاجت نفسه للقتال ، وأخذ ينشد شعرا جاء فيه :

كفى حزنا أن ترتوى الخيل بالقنا	وأترك مشدودا على وثاقها
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت	مصاريع دونى قد تصم المناديا
.....	.....
حسنا عن الحرب العوان وقد بدت	وأعمال غیری يوم ذاك العواليا
فله عهد لا أخيس بعهدده	إذا فرجت ألا أزور الحوانيا

وسمعه سلمى زوج سعد فرقت له وقالت « انى استخرت الله ورضيت  
بعهدك » ، ثم أطلقته ، وأعطته البلقاء فرس سعد ، فانطلق الى الميدان  
يقصف الأعداء بسيفه ويقتضى عليهم .

وشاهده سعد من موقعه فقال « والله لولا محبس أبى محجن لقات هذا  
أبو محجن وهذه البلقاء » .

ولعبت الحيلة دوراً هائلاً في قتال هذا اليوم .

فقد جاء بعض المسلمين ببعض الابل وبرقعوها ودفعوا بها الى صفوف  
الفرس كأنها فيلة ، فخافتها خيلهم وولت هاربة ، فعم الخلل والاضطراب جبهة  
الفرس فاستغل المسلمون هذه الحالة فأعملوا فيهم السيوف قتلا وبترا ...  
واندفع المسلمون يبحثون عن رستم ، فلما أرادوا اصابتهم تعرض للضربة  
رجل من رجاله فمات دونه ، وقدر عدد القتلى من الفرس في هذا اليوم  
بـعشرة آلاف .

### وتميز قتال يوم اغواث بعدة أمور :

● أهمية الامداد في المعركة فان الجيش المقاتل يتعرض لخسائر كثيرة اثناء القتال مما يستوجب امداده من جديد حتى يكون على مستوى المعركة كما وكيفا .. ومن هنا كان امداد الجيش الاسلامي بقوات من بلاد الشام خطوة هامة جدية بالذكر ، وأن المتتبع لحروب اليوم يدرك أن القيادات تسعى دائما الى تزويد قواتها المقاتلة بالرجال والعتاد خلال المعركة لتعويض خسائرها ، ولا شك في أن اهمال الامداد قد تقترب عليه خسائر المعركة .

● ابدى المسلمون نشاطاً كبيراً تميز ببطولاتهم وشجاعتهم في القتال وهذا ما يسمى بالكفاءة القتالية ، ولعل بطولة القعقاع بن عمرو أمر جدير بالتنويه فقد تقدم الصفوف ونادى في قومه « اصنعوا كما اصنع » ثم صرخ في وجه الفرس « من يبارز ؟ » فخرج اليه ثائدهم ذو الحاجب بهن جاذويه فصرعه ثم صرع بعده ثلاثين فارساً .. وبطولة ابي محجن جدية بالذكر أيضاً ...

● كان للمرأة المسلمة دور كبير في هذا اليوم فقد قامت بدفن القتلى من المسلمين كما اهتمت اهتماماً بالغاً بمداواة الجرحى وتمريضهم ، ولا ينسى فضل سلمى زوج سعد في امدادها المسلمين بأبي محجن وهو بطل مغوار كان لوجوده اثر كبير في أحداث المعركة خلال هذا اليوم .

### ثم كان يوم عماس .. اليوم الثالث والآخر ..

في هذا اليوم ظل القتال طول النهار ، وامتد حتى آخر ليلة ...

وقبل طلوع شمس كان هاشم بن عتبة قد وصل بمدد كبير الى القادسية . وكان الفرس قد أصلحوا توابيت الفيلة وأعدوها لقتال هذا اليوم ، وعينوا لها حرساً من فرسانهم يصدون عنها المسلمين ، وكان هذا خطأ فاحشاً من جانبهم ، وذلك أنهم نسوا أن الفيلة لا تثور اذا كانت محاطة بأصحابها ، لهذا كان دورها في بداية القتال سلبياً ، فهي لم تفرق صفوف المسلمين ، كما اراد منها الفرس ، ولكنها كانت تضرب الطرفين فتصيب هنا وهناك .

وظل القتال سجالاتاً .. العرب يتقدمون تارة والفرس تارة ..

ثم اشتد ضغط الفرس بعد أن وصلتهم امدادات جديدة ..

ثم دخلت الفيلة المعركة بعد أن تنبه الفرس لخطئهم فأصبحت تمثل سلاحاً خطيراً ، وهاجمت المسامين وأفزعتهم وفرقت جموعهم وفكت بهم وتغير ميزان المعركة لصالح الفرس إذ اشتد ضغطهم واشتد في ذات الوقت صبر المسلمين وجلدتهم .

ولاحظ سعد من مكانه أن بين الفيلة فيلين ضخمين الأبيض والأجرب هما أشد الفيلة ضراوة ، وكانا بمثابة القيادة لبقية الفيلة ، ففكر في حيلة ينقذ بها الموقف ، وجاءه الحل حين استدعى بعض أسرى الفرس وسألهم عن مقاتل الفيلة ، فدلوه على مشافرها وعيونها ، فأرسل إلى القعقاع وعاصم وقال « أكفياني الأبيض » ، وأرسل إلى جمال والريل من بنى أسد ، وقال « أكفياني الفيل الأجرب » . وتقدم الأربعة كل إلى غرضه ، فأصابوا الفيلة في أعينها بالرمح وضربوا مشافرها بالسيوف ، فألقت بنفسها في النهر ، وتبعها كل الفيلة بعد أن ألقت بركبانها ، وولت مدبرة بعد أن تخطت المياه .

... وهكذا نجح سعد بقيادته الواعية الفاهمة فأبعد عن الميدان أخطر أسلحة الفرس ، وأصبح القتال — بعد اختفاء هذا السلاح الخطير — وجهاً لوجه يعتمد أساساً على القوة والجرأة والشجاعة ...

واستمر القتال عنيفاً حتى إذا ما جاء الليل هدأت وهاته .

### وفي ليل يوم عماس .. ليلة التحرير .. حدثت مفاجأة :

فقد طلب سعد من طليحة وعمرو بن معدى كرب أن يسيرا إلى مخاضة في أسفل مواقع المسلمين خاف أن يستغلها العدو بقواته ليلاً ، وقال لهما « ان وجدتهما تقوم قد سبقوكما إليها فأنزلا بحيالهم ، وان لم تجداهم علموا بها فأتينا حتى يأتيكما أمرى » . فلما وصلا إليها لم يجدا أحداً من الفرس ، فسولت لهما نفساهما أن يخوضاها معا ، وأن يأتيا الفرس من الخلف ، وكانت خطة جريئة غير متوقعة .

ونفذت الفكرة ..

وكان صداها بعيداً وأثرها قويا ، إذ حققت مفاجأة لم تكن متوقعة .. فبعد أن خاضها كبر طليحة ثلاث تكبيرات هلعت لها قلوب الفرس وقلوب المسلمين في وقت واحد ... ظن الأولون أن المسلمين قد غدروا بهم وهاجبهم ليلاً ، وظن الآخرون أن جيش الفرس قد فتك بجماعة طليحة وأنه يكبر طلباً للمساعدة والعون ، وهاجم عمرو مع بعض رجاله مواقع الفرس ، ورأى القعقاع أن يتصرف بسرعة دون الرجوع إلى سعد حتى لا تفلت الفرصة ، فأمر جماعته بالهجوم أيضاً ..

وكان سعد في مكانه يرقب الأحداث ولم يستطع أن يوقف الاشتباك ، فأخذ يردد « اللهم اغفر له ( يقصد القعقاع ) وانصره فقد أذنت له وان لم يستأن » .

ثم أصدر سعد أمره الى باقى القوات بشن الهجوم العام على الجبهة كلها فهاجمت أسد والنخع وبجيلة وكعدة .

واشتد القتال فى جميع القطاعات ، وارتفعت فى سكون الليل صيحات المحاربين وقعقة السيوف ، وظل سعد يرقب القتال طول الليل يقظان لا يغمض جفنه حتى انبلج الصبح وظهر نور الله ، وصوت القعقاع يدوى « ان النصر مع الصبر » . . . وكان لكلماته اثر السحر فى نفوس المقاتلين المسلمين فأقبلوا على القتال دون أن ينالوا قسطا من الراحة رغبة فى استكمال القتال حتى يتحقق النصر .

وتراجع الفيرزان والهرمزان من الحنيتين ، وانكشف القلب واشتد هجوم المسلمين ، ورأى هلال بن علقمة رستم وهو يعبر النهر فاراً من المعركة فلاحق به ، وأعادته الى البر ، ثم ضربه بالسيف فى جبينه فقتله ، ووقف يصيح فى زهو « قتلت رستم ورب الكعبة » .

ولم يعد أمام الفرس — وقد قتل رستم — الا الانسحاب اذ وهنت قوتهم وضعفت روح القتال عندهم ، وانهدت معنوياتهم ، وأمر الجالينوس رجاله بعبور النهر على الردم ، وكان قد سبقه الهرمزان والفيرزان ، فانهار بهم الردم فى النهر وغرق منهم ثلاثون ألفا مقترنين بالسلاسل .

انهزمت جنوشي الفرس وولت الأدبار ، وأمر سعد بالمطاردة وتبعتهم قرة على رأسها القعقاع وشرخيل وزهرة بن الحوبة الذى لقى الجالينوس فقتله .

ووقع علم الفرس الأكبر درفشكيا بيان فى يد ضرار بن الخطاب .

وارتفعت معنويات المسلمين وزاد حماسهم حتى أن النساء اندفعن الى ميدان المعركة ليأخذن بحظهن من النصر الكبير ، وجاء فى بعض الروايات أن أم كثير وهى امرأة همام بن الحارث النخعى قالت « شهدنا القادسية مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوى ثم أتينا القتلى ، فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، ومن كان من المشركين أجهزنا عليه » .

وانتصر المسلمون . .

وفتح انتصارهم الطريق الى ايوان كسرى فى عاصمة ملكه فى المدائن .

وكتب سعد الى الخليفة عمر يبلغه البشرى . . قال فى كتابه « ان الله

نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال شديد ، ولقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراعون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، وتبعهم المسلمون على الأنهار وفي الفجاج ، وأصيب من المسلمين فلان وفلان ، ورجال من المسلمين لا تعلمهم ، الله بهم عالم ، وكانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم إلا الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم نكتب لهم .

انتهت المعركة .

وانتصر المسلمون .

واندحر الفرس .

**ولابد لنا من وقفة نحال فيها أحداث هذه المعركة من وجهة نظر الحرب الحديثة .**

**أولا : تقوم الحرب الحديثة على مبدأ الحشد ، أي جمع الجموع وتجهيز الجيوش وأعداد القيادات بما يتناسب مع حجم المعركة وأهميتها .**

وفي القادسية تجهز كل من الطرفين حشداً للرجال والسلاح ، فقد كان كل طرف يرى فيها المعركة الفاصلة .. الفرس يرون أن النصر فيها انحسر للموج العربي الاسلامي الممتد داخل أرض فارس .. لهذا كلنت نظرتهم الى المعركة نظرة جادة فاجتمع أولو الأمر لبحث الموقف ودراسته والانتهاء الى موقف يرضاه الجميع إذ أدركوا أن الماضي مظلم ، وأن المستقبل مهدد ، وأن الوجود في خطر ، وأن النهاية تقترب ، وأن المسلمين جادون يوالون انتصاراتهم .

واجتمعت كلمة الفرس قبل المعركة على ضرورة خوضها ومواجهة المسلمين فيها بعنف وقوة ، ولهذا انتظمت صفوفهم وطرحوا خلافاتهم وبدأ يزدجرد الذي تولى العرش أعداد الجيوش للثأر من العرب والاستعادة أرضه ، وتمكن من أعداد جيش كثيف بلغ مائة وعشرين ألف مقاتل يقوده رستم وهو واحد من أكبر وأعظم رجال الحرب المشهورين عندهم وكان جريئاً طموحاً يثير طموحه اعجاب الناس ، ويعاونه في القيادة الجالينوس والهرمان ومهران ابن بهرام .

وحقق الفرس مفاجأة كبيرة عند الحشد إذ ضمو الى الجيش سلاحاً جديداً هو سلاح الفيلة .. سلاح لم يألّفه العرب من قبل ولم يتعاملوا معه ، وكان له دور ايجلبى الى حد ما في سير الأحداث ، فالحق بالمسلمين خسائر

فادحة ولم يكن لديهم سلاح مضاد فاعتمدوا على شجاعتهم وجراتهم في مواجهته، هذا فوق أن الخيل — وهى سلاح المسلمين الأساسى — كانت تخشى الفيلة وترهبها وتفر من أمامها عند المواجهة .

أما فى الجانب الآخر — أى الجانب الإسلامى — فلن الحشد كان الموضوع الرئيسى الذى شغل الخليفة عمر بن الخطاب بصفته القائد الأعلى للجيش الإسلامى ، ولقد أعطى الخليفة هذا الأمر غاية اهتمامه وعنايته فبعث برسائله إلى عماله يحثهم على إرسال الامدادات اليه ليحركها إلى بلاد فارس « لا تدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى .. والعجل العجل » ويبدو اهتمام الخليفة بالحشد فى قوله لرجاله « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » .

وعندما وقع الاختيار على سعد بن أبى وقاص قائداً للجيش كان تحت امرته عند تحركه إلى بلاد فارس عشرون ألف مقاتل معهم نسائهم وأولادهم .

وأمر عمر هاشم بن عتبة بالسير ببعض قوات المسلمين فى الشام إلى فارس لينضم إلى قوات سعد ، فتحرك على رأس ثمانية آلاف مقاتل .. وظلت القوات الإسلامية بالشام على اتصال بقوات سعد فى فارس فسيرت اليه قوات أخرى تحت إمرة القعقاع بن عمرو الذى قال فيه أبو بكر « لا يهزم جيش فيهم مثل هذا » .

وانضمت بعض القبائل العربية المجاورة لحدود فارس إلى جيش سعد وكان عدد رجالها خمسة آلاف ، هذا فوق قوات المثنى بن حارثة التى بلغت ثلاثة آلاف .

وأصبح الجيش الإسلامى ستة وثلاثين ألف مقاتل يعاون فى قيادتهم عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد والأشعث بن قيس الكندى وخالد ابن عرفطة وجريز بن عبد الله البجلي وعاصم بن عمرو وهاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو .

ثانياً : تعنى القيادات فى الحرب الحديثة عناية بالغة بروح القتال ومعنويات الجند حتى أصبح سلاح المعنويات من أهم أسلحة المعركة وأصبحت الكفاءة القتالية عند المقاتلين هى التى تحرك أحداث المعركة وتصنعها .

وفى القادسية كان سلاح المعنويات هو السلاح الرئيسى الذى سيطر على أحداث المعركة وسيرها ...

## - ٨٩ -

وبدراسة أحداث المعركة يتبين من النظرة الأولى تفوق المسلمين معنويا فقد كان أمل المسلم النصر أو الشهادة ، كان المسلمون لا يخشون الموت وإنما يسمعون إليه ايمانا منهم بقول الله تبارك وتعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... » الى آخر الآية ... نسى المسلمون خلال المعركة حياتهم الخاصة ومصالحهم وتذكروا دينهم وواجبهم .. نسوا آمالهم في الحياة وتذكروا فقط مستقبل الاسلام وعزته .. وبهذه المعنى خاضوا المعركة أشداء على أعدائهم أقوياء بدينهم .

ولقد أحس سعد قائد المسلمين في المعركة بأهمية سلاح المعنويات فثار حماس الجند والهب مشاعرهم وكلف جماعة من أولى الرأى للقيام بهذه الرسالة الهامة كالمغيرة وعاصم بن عمرو وطلحة وعمرو بن معدى كرب فانطلقوا بين الصفوف يحدثون الجند ويخاطبونهم ويذكرونهم بانتصارات المسلمين ويوضحون أمامهم الرؤية .. واستعان سعد بالشعراء في أداء هذه المهمة البالغة الأهمية فاختار من الشعراء الشماخ والحطيئة وعبد بن الطيب وقال لهم « انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس فأنتم من العرب بالمكان الذي أنتم به ، أنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم ، وأنتم سادتهم ، فسيروا في الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال » ، وانطلق هؤلاء بين الصفوف يثيرون المشاعر والعواطف والقلوب .

وفي الجانب الآخر — أى في جانب الفرس — اهتم رستم أيضاً بالروح المعنوية وسمى بكل جهده لرفع معنويات جنده ، فسار بين الصفوف يثير الحماس ويقوى العزائم ويخطب في الناس ويقول « غدا ندقهم دقا » وطلب من قياداته أن تمر وسط الجند يحرضونهم على القتال دفعا عن بلادهم وتاريخهم وصدا للتيار العربي ، ونجحت حملة الدعاية في صفوف الفرس حتى أن الحماس بلغ بهم حدا بعيدا ، فلما وقعت الواقعة ودارت المعركة حاربوا فيها بكل ثقلهم وقدموا فيها كل ما يملكونه ويستطيعونه .

**ثالثا :** تهتم القيادات الحديثة بعنصر المفاجأة في الحرب .. فالمفاجأة سلاح خطير له آثار بعيدة المدى بالنسبة للطرفين .. وقد تتحقق المفاجأة باستخدام سلاح جديد أو باتخاذ أسلوب جديد في الحرب أو باستغلال الوقت بحيث يبدأ القتال في وقت غير منظر ، ومن هنا يتضح أن قيمة المفاجأة تتجسم في اضطرار العدو الى القتال في ظروف لا تمكنه من استخدام كافة قواته وامكانياته ..

ولقد حفلت موقعة القادسية بكثير من المفاجآت التكتيكية ... كان أولها

دون ريب ظهور سلاح الفيلة في المعركة ، وقد كان ظهور هذا السلاح مفاجأة لم يكن المسلمون قد أعدوا لها من قبل ، لأنهم أساساً كانوا يجهلون هذا السلاح .. وادى ظهوره الى حدوث خلل في صفوفهم استمر الوقت الأكبر من المعركة حتى تنبه سعد الى خطورة هذا السلاح واستطاع ان يجد حلاً يوقف به هذه الخطورة .. هنا فقط فقدت المفاجأة أهميتها ولكن بعد أن أثبتت وجودها الخطير في المعركة .

ومن هذه المفاجآت دفع المسلمين لبعض من الابل الى صفوف الفرس وقد برقمعوها مخافتها الخيل وولت هاربة وكثت الخيل سلاح الفرس الرئيسي في المعركة وهربوا من المعركة كان بداية الهزيمة .

والمفاجأة الثالثة التي وقعت خلال المعركة هي وصول القعقاع بن عمرو بجيش جديد خاص به غمار المعركة في يومها الثاني ( يوم أخوات ) ، فقد تقدم المقداد بجيشه بأسلوب جديد ألقي في روع الفرس أن الامدادات التي تصل لا نهاية لها .. ذلك أن المقداد قسم جيشه الى عشر فرق ، وأمرها بالتقدم متباعدة بحيث تكون كل منها على مدى البصر بالنسبة للأخرى ، فبدت وكأنها جحافل جارية تتقدم الى أرض المعركة ، مما هز مشاعر الفرس ظناً منهم أنها امدادات متلاحقة ستقلب ميزان القوى ، في الوقت الذي رفعت فيه معنويات المسلمين وهم يرونها متدفقة عليهم وكأنها امدادات لا تنتهي .

ثم مفاجأة رابعة وقعت ليلة الهدير ( ويسمونها أيضاً ليلة الهداة وليلة السواد ) وأعنى بها ما حدث عند المخاضة التي كثت في أسفل مواقع المسلمين .. فان الفرس كانوا يعلمون دون شك بوجودها ومكانها ولكنهم لم يفكروا في استغلالها ولو أنهم فكروا في الهجوم عن طريقها لنجحوا في احداث مفاجأة لم يتوقعها المسلمون ، ولقد تنبه سعد الى خطورتها فبعث برجال عليهم طليحة وعمرو بن معدي كرب لجرد استكشافها والبقاء عندها لمنع الفرس من استغلالها الا انهما وجدا الفرصة سانحة للهجوم من ناحيتها - وقد أمنها الفرس - فخاضاها وهاجما منها فكانت ضربة وانقصة ناجحة اتسمت بالجرأة ... وتحققت للمسلمين مفاجأة الفرس بالهجوم العام في موقع وموعد لم يتنبهوا لها ...

فان نظرة الفرس الى موقع المخاضة كانت نظرة سطحية فلم يحاولوا استغلالها ولم يحاولوا حتى مجرد الدفاع عنها أو مجرد مراقبتها خوفاً من استغلال المسلمين لها ... وكان موعد الهجوم مفاجأة لائمه تم ليلاً ، وكان



— ٩١ —

القتال عادة يهدأ في الليل فأمن الفرس بينما قام المسلمون بشن هجوم علم وظل القتال طوال الليل حتى انتهى بانتصارهم انتصاراً عظيماً مؤزراً .

### نالت لهم البحور

كانت المدائن نهاية المطاف .

فيها سقط حكم يزيدجرد وظل طريدا بعدها هنا وهناك حتى قتله أحد اتباعه في طاحونة .

كانت المعركة نموذجاً حياً للفكر الاسلامي العسكري .. وضع فيها فن سعد ، وبدأت عبقريته كقائد سبق بفكره وفنه كل ما جاء به التطور التكنولوجي العسكري خلال العصور الحديثة .

وضع سعد خطة العمل في نهاوند على أساس تكتيك جديد لم يكن أحد على دراية به في زمنه .

كان الجيش الفارسي قد تجمع في نهاوند .. وكان الوصول اليها يتطلب عبور النهر ( نهر دجلة ) .. وعبور الأنهار من أخطر العمليات الحربية ، وما زالت عمليات عبور الأنهار في العصر الحديث مشكلة تواجه القيادات المختلفة ، لأنها تحتاج الى أعداد وترتيب وخطة ، كما تحتاج الى مهارة فائقة وشجاعة نادرة ودقة تامة في التنفيذ .

واحساساً من سعد بخطورة الخطوة التالية جمع رجاله وعرض عليهم الأمر وقال : « ان عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليه منه ، وهم يخلصون اليكم اذا شاءوا فيناوشونكم في سفنهم ، وليس وراكم شيء تخافون أن تؤتوا منه ، فقد كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأفتوا ذادتهم ، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، الا اني قد عزمت على قطع البحر اليهم » ، فرد عليه أصحابه « عزم الله لنا ولك على الرشيد فافعل » .

ووضع سعد خطة العبور ...

شكل كتيبة من ستمائة من أهل النجدة بقيادة عاصم بن عمرو التميمي ، سميت كتيبة الأهوال ، وكلفها بعبور النهر ، وأعداد منطقة آمنة تصل اليها جيوش المسلمين ..

وشكل كتيبة أخرى تولى قيادتها القعقاع بن عمرو ، سميت الكتيبة الخرساء ، كان عليها أن تتبع الكتيبة الأولى وتعاونها .

**هذه الخطة يمكن أن نترجمها بالأسلوب العسكري الحديث فنقول :**  
**ان كتيبة الأهوال تشبه فرق الصاعقة ، مهمتها في حروب اليوم أن تتقدم وتعتبر**  
 المانع المائى سراً ، ثم تقيم رأس جسر على الجانب الآخر ، وتؤمن منطقة واسعة تسمح باستقبال القوات الرئيسية ، وتقوم الكتيبة الخرساء بحمايتها ضد تدخل العدو خلال اتمام عملية العبور .. وبعد ذلك تتقدم باقى القوات فتعبر النهر الى منطقة رأس الجسر ، حيث يعاد تنظيمها استعدادا لعمليات أخرى ..

وتم تنفيذ الخطة الموضوعة .

وتقدمت كتيبة الأهوال الى الشاطئ ، وسأل عاصم رجاله « من ينتدب معى ( أى يسرع بالتطوع ) لتكون قبل الناس دخولا في هذا البحر فنحنى الفراض ( يعنى الثفور ) في الجانب الآخر ؟ » .. وتقدم اليه ستون فارسا ، واقتحموا جميعا النهر ، وتشجع الباقون فاندفعوا بخيولهم الى النهر ..

كان الفرس على الجانب الآخر يشاهدون ما أقدم عليه المسلمون في دهشة وتعجب وذ هول ، وأخذوا يتصايحون « مجانيين !! مجانيين !! » ، وقال بعضهم لبعض — وقد رأوا اصرار العرب على العبور بالخيول — « انكم والله ما تقتاتلون انسا بل تقتاتلون جنأ » .

وأسرع فرسان الفرس الى الشاطئ في محاولة لمنع اتمام العبور ومنع خروج العرب من الماء ، فقتل عاصم لأصحابه « الرماح .. الرماح .. اشرعوها وتوخوا العيون » ٢. وانهزت رماح المسلمين من كل جانب فأصاب الخيل في عيونها فارتدت ، ولم يستطع فرسانها السيطرة عليها .

وخرجت كتيبة الأهوال الى الشاطئ ، ففر الفرس وأصبح الشاطئ آمنا .

ثم وصلت بعدها الكتيبة الخرساء .

ثم عبرت باقى القوات وامتلا النهر بالخيول حتى قيل ان ماءه اختفى فلم يكن يرى .

## - ٩٣ -

وعَبر سعد وبرفقتَه سَلَمَانُ الفَارِسِي وأَخَذَ يَرُدُّ « حَسْبُنَا اللهُ ونَعْمَ الوَكِيلُ ، واللهُ لَيَنْصُرَنَّ اللهُ وَلِيَهُ ، وَلَيُظْهِرَنَّ دِينَهُ ، وَلَيُهْزِمَنَّ عَدُوَّهُ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَيْشِ بَغْيٌ أَوْ ذُنُوبٌ تَغْلِبُ الْحَسَنَاتِ » .

وقال سَلَمَانُ « ذَلَّلْتُ لَهُمُ وَاللهُ الْبُحُورُ كَمَا ذَلَّلَ لَهُمُ الْبَرُّ ، أَمَّا وَالَّذِي نَفْسُ سَلَمَانَ بِيَدِهِ لَيُخْرِجَنَّ مِنْهُ أَمْوَاجًا كَمَا دَخَلُوا أَمْوَاجًا » ، يَعْنِي أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَنْ يَفْرُقَ فِي النَّهْرِ ، وَقَدْ صَدَّقَ سَلَمَانُ ، فَلَمْ يَفْرُقْ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، وَقِيلَ أَنَّ جَنْدِيًّا عَرَبِيًّا سَقَطَ أَثْنَاءَ الْعُبُورِ عَنْ ظَهْرِ فَرَسِهِ ، وَرَأَاهُ الْقَعْقَاعُ فَنَشَى عَنَانُ فَرَسِهِ إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ فَجَرَّهُ حَتَّى عَبَرَ ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ « أَعْجَزَتْ الْأَخْوَاتُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَكَ يَا قَعْقَاعُ » .

وكانت على الشاطئ الآخر للنهر قوات لم تعبر بعد ، فأمّر عاصم أصحاب الزوارق والسفن من الفرس فدفعوها إلى هناك ، وعادت بهم .

ودخل المسلمون المدائن .. كانت خالية من الناس .



وصف ابن كثير في البداية والنهاية هذه العملية فقال « كان يوما عظيما ، وأمرأ هائلًا ، وخطبًا جايلا ، وخارقًا باهرا ، ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلقها الله لأصحابه لم ير مثلها في تلك البلاد ، ولا في بقعة من البقاع » .

ان ابن كثير يصف عملية العبور بأنها معجزة .. وهى كذلك دون شك فاعل عبور النهر كان أخطر عملية تمت في هذا العصر ، ولعاه أيضاً كان أعظم عملية تتم بهذه الصورة دون أضرار أو خسائر رغم أن القائمين بها يمارسون معاملة الماء لأول مرة في حياتهم .. وان العسكريين في كافة العصور حتى في هذا العصر الذى نعيشه يتحدثون عن المانع المائى كأخطر أنواع الموانع التى تواجهها الجيوش ، ويعتبر اجتياز أى مانع مائى من وجهة نظر الحرب الحديثة عملية تتطلب اعداداً خاصاً وكفاءة عالية وقدرات على مستوى راق من التدريب .

## — ٩٤ —

ولا شك في أن نجاح المسلمين في هذه العملية يعود أساساً إلى الإيمان العميق الذي تملك أحاسيسهم ومشاعرهم ووجدانهم ، فجعلهم يأتون بالمعجزات وبالخوارق من الأعمال ، حتى أن عدوهم أثارته هذه القدرة على العبور بالخيال فوصفهم بأنهم من الجن ، وهذا الوصف يعنى أن عدوهم ما كان يستطيع أن يأتى عملاً كهذا خوفاً من نتائجه وحرصاً على رجاله ...

وبذلك يكون المسلمون أول من قاموا بعملية عبور بهذه الصورة من الكفاءة والقدرة والنجاح .

\*\*\*

ودخل سعد قصر كسرى وهو يقرأ قول الله تبارك وتعالى « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قومنا آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

الشخصية الثالثة

خالد بن الوليد

« عجزت النساء أن ينشئن مثل خالد »

أبو بكر

## البطل

خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي .  
بطل من أبطال النهضة الاسلامية الاولى .  
شخصية عسكرية فذة تفرض القدرة وتلهم العبرة .  
عبقري مازال حياً في ضمير الامة الاسلامية .. ..  
صورة من صور الخلود لا يظفر بمثلها كثير من أبطال الانسانية .  
جندى من جنود الله ، تهبز في نواحيه المتعددة بمياسم العظمة ومعالم العبقريّة .

رجل من رجال الحرب يحتل بين رجالها مكان الصدارة ، له باع طويل في مجالات الحرب ومعارك النضال البشري سبق به من جاء قبله من رجال الحرب ، وبز به من جاء بعده منهم .

كان عملاقاً في الميدان بفنه وعلمه وعقله ، خاض غمار المعارك فاهماً لأصولها ، مدركاً لمبادئها ، عارفاً بطروفيها ولما بكل أحوالها .. خلقت بطولته في الحرب ، ونهدت عبقريته في ظلالها ، ووضحت عظمتة على ذروتها ..

كلن له في المعارك تاريخ مجيد ، وفي الميدان جهد مزيد .

بطل من أبطال الجاهلية اعترّبه قومه ، كان سيّداً قوياً يحميهم من أعدائهم ، ويخوذ عنهم ، ينزل بالأعداء الهزيمة ، لا تتفأ أمامه قوة ولا تبدو أمامه شجاعة ، كان القوي يخشاه ، وكان الشجاع يهابه ، وكان اسمه على كل لسان .. على لسان الصديق وعلى لسان العدو ، هذا يبرز صفاته العسكرية ويجسمها ، وذاك يؤكدّها ويصدق عليها .

بطل من أبطال الاسلام حين أظله الايمان ودخل الاسلام قلبه ، كان جندياً وحاميه .. بذل من نفسه وحبائه ما يعطى مثلاً ويفدو قدوة لاثباب في كل جيل وفي كل عصر .

حارب الاسلام فكان خصمه العنيد ، وصد عنه فكان سنده القوي ودرعه الفتى وسيّاحه المتين ، وعاش اسلامه مجاهداً ، وظل على جهاده لآتهن له قوة ، ولا يضعف له ايمان ، ولا تزوغ منه عقيدة .. .. حارب في

الجزيرة .. .. وفى بلاد فارس .. .. وفى بلاد السلم .. .. فى جبهات  
ثلاث تختلف فى طبيعتها وظروفها وبيئتها ، فكان فى الجبهات الثلاث البطل  
المعوار العارف المدرك الفاهم .

وواجه فى حروبه العرب .. ثم الفرس .. ثم الروم .. ثلاثة انواع  
مختلفة الالوان والمشارب ، لكل طبيعته وصفاته ومميزاته ، فكان فى مواجهتهم  
جميعاً القائد الصامد الذى لا يهزم ولا يقهر .. كلن اسمه يسبقه فيقع الرعب  
فى صفوف اعدائه ، وينالهم الوهن والذعر ويتهاكهم اليأس .. كان ينتصر  
باسمه قبل أن ينتصر بسيفه ...

قال فى ذلك أكيدر بن عبد الملك الكندى « أنا أعلم الناس بخالد لا أحد  
أيمن طمراً منه ، ولا أحد فى حرب ، ولا يرى قوم أبداً قاوا أو كروا  
الا انهزموا عنه » .

وكان اسم خالد يسبقه الى أعدائه قبل مواععتهم فينتشر الرعب فى  
قلوبهم ويشيع الفرع بينهم وتنحل قواهم وتنهار عزائمهم .

روى الطبرى عن عدى بن حاتم أنه قال : « أغرنا على اهل المصيخ  
واذا رجل اسمه حرقوص بن النعمان من النمر ، واذا حوله بنوه وأمراته  
وبينهم جفنة من خمر ، وهم عليها عكوف يقولون له : ومن يشرب هذه الساعة  
وفى أعجاز الليل ، فقال : اشربوا شرب وداع ، فما أرى أن تشربوا  
خمرنا بعدها .. هذا خالد بن الوليد يعين النمر وقد بلغه جمعنا وليس  
بتاركنا » .

ثم أنشد :

الا فاشربوا من قبل قلصمة الظهر بعيد انتفاخ القوم بالعسكر الدثر (١)  
وثبل مناينا المصيبة بالقدر لحين لعمري لا يزيد ولا يحرى (٢)

وروى يلتوت ، أن ربيعة لما تجمعت الى الهذيل بن عمران غضبا لعقبة  
ابن أبى عقة لتأخذ بثاره من خالد وجيشه ، نهاهم حرقوص بن النعمان عن  
مكاشفة خالد ، فعصوه ، فرجع الى أهله وهو يقول :

(١) العكر : الإبل الكثيرة ، الدثر : المال الكثير .

(٢) يحرى : ينقص .

( م ٧ - شخصيات عسكرية اسلامية )

## - ٩٨ -

الا فاستقياني قبل جيش ابي بكر لعيل من ايلانا قريب ولا ندرى  
الا فاستقياني بالزجاج وكررا علينا كميت اللون صافية تجرى  
أظن خيول المسلمين وخالدا ستطرقكم عند الصباح على البشر  
فهل لكم بالسير قبل قتالهم وقبل خروج المعصرات من الخدر

لقد نشأ خالد في بيئة صحراوية وسقط جمع من القبائل العربية ، في  
مجتمع تفتش فيه الجهل ، فلم يتعلم الحرب في مدرسة ، ولم يقرأ تاريخها في  
كتاب ، ولم يكن يدري شيئا عن حروب السابقين ، ولكنه حين حمل السيف  
وخرج للقتال ، كان بطلا كشفت معاركه عن بطولة أصيلة في نفسه ، وقدرة  
عسكرية تتحكم فيه ، وفن حربى فاق به العسكريين في كل الأزمنة والعصور .

كان ضليعا في المعركة يخطط لها كأعظم القادة جميعا ، ويرتب كأعظم  
ما عرفته الحروب الحديثة من ترتيب وتنظيم ، ويضع تكتيكات المعركة طبقا  
لما يدرس الآن في المعاهد والأكاديميات العسكرية ، ويسيطر على قواته أعظم  
ما تكون السيطرة والتوجيه .

وكان له النصر في كل المعارك ، لم يهزم في معركة ، ولم ينل منه عدو .  
ولم تنكس له راية ولم يسقط له لواء ، حتى قيل أنه وقت وفاته بكى لا خشية  
الموت ولا خوف الردى ولكن لأنه يموت بغير السيف في حومة الوغى « لقد  
حضرت كذا وكذا زحفا ، وما في جسدى موضع شبر الا وفيه ضربة بسيف أو  
رمية بسهم أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشى حثف أنفى كما يموت  
البعير... فلا نلت أعين الجبناء » .

قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم عبد الله ، هذا سيف من  
بسيف الله » .

وقال عنه أبو بكر « عجزت النساء أن ينشئن مثل خالد » .

وتسأل عمر « هل قامت النساء عن مثل خالد ؟ » .





## ميدان المعركة

ميدان المعركة هو رقعة الأرض التي تقع فوقها أحداث المعركة . . .

ودراسة أرض المعركة عمل جوهري ، والالمام بأحوالها واجب يقع على عاتق القيادات ، فليس من المنطق أو العقل أن يتقدم جيش إلى أرض يواجه فيها عدوا وهو جاهل بطبيعة هذه الأرض ، ولهذا تحرص القيادات على دراسة طبيعة أرض المعركة كعمل أساسي لوضع خطة اللقاء ، وترتيب القوات ، وخوض غمار المعركة .

ومما لا يختلف فيه اثنان ، أن القتال في الأرض المنبسطة يختلف في نوعيته وأسلحته وتكتيكه عن القتال في الأرض الرامية أو في الأرض الجبلية أو في الأرض الطينية ، والقتال في مناطق المستنقعات يختلف عنه في مناطق الأدغال ، ويختلف أيضا عنه في قتال المدن .

اذن فأرض المعركة تتحكم إلى حد كبير — بجانب عوامل أخرى — في تحديد نوع السلاح وعدد المقاتلين وخطة اللقاء .

وكان خالد بن الوليد يدرك ذلك ويعرفه . . كان يدرس طبيعة الأرض قبل أن يدخل المعركة ، ويضع هذه الدراسة موضع البحث ليقف على كيفية استغلال الأرض لصالح قواته . . وكان يهتم اهتماما خاصا بالأمكن ذات القيمة الاستراتيجية التي تفرض السيطرة على أرض العمليات .

وهنا تبرز عبقرية خالد ويظهر فنه الحربي ، فهو في هذا الجانب لا يقل مرتبة عن غيره من القادة الذين تلقوا علوم الحرب عن طريق الكتب أو في الأكاديميات والمدارس العسكرية . . . وإذا كانت قيادة المحور وقيادة الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية قد اهتمتا بدراسة الصحراء الغربية بصفتها أرض المعارك القادمة بين القيادتين ، فإن خالد بن الوليد قد سبق إلى مثل هذه الدراسة خلال معركة أحد التي دارت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة بين قريش وقوات الرسول .

فبعد هزيمة بدر رأى المشركون أن يتجهزوا لمعركة أخرى ضد المسلمين ، وخرجت قريش في ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع ومعهم مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير وخمسة عشرة امرأة ، وأخطر العباس بن عبد المطلب — عم الرسول — المسلمين بخروج قريش ، فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم

## - ١٠٠ -

قومه وكانوا ستمائة وخمسين رجلا معهم خمسون فارسا ، وخرج بهما الى موضع أحد .

وكان مع قريش خالد بن الوليد على الخيل . . أخذ خالد ينظر الى أرض المعركة ويدرسها ، فرأى الأرض منبسطة تتضح فيها الرؤية ، وتبين له أن هناك مرتفعاً واضعاً يسيطر على المنطقة ، ورأى بعقله الراجح ورأيه النفذ أن الجانب الذي يملك هذا الجبل المرتفع يملك بالتالي القدرة على السيطرة والتحرك .

الا إن خالدًا كلن يواجه جيشاً يقوده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أكثر منه معرفة بشئون الحرب ، وأكثر منه ادراكاً لطبيعة الأرض ، وأكثر منه فهماً لأهمية هذا الجبل .

فعندما انتهى رسول الله بجنده الى أحد ، أقبل يصف أصحابه ويسوى الصفوف ، وأمر الزبير بن العوام « استقبل خالد بن الوليد وكن بإرائه » ثم سبق الرسول قريشاً ووضع يده على الجبل ، فجعل عليه خمسين من الرماة عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم : « قوموا على مصافكم هذه ، فاحموا ظهورنا ، لا يأتون من خلفنا ، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل ، أنا لا نزال غالبين ما ثبتتم في مكانكم . . أن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل لكم ، وأن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم وهم قتلنا فلا تبرحوا حتى أرسل لكم » .

ودارت المعركة واحتدم القتال ، ودنا القوم بعضهم من بعض في الرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل ، وكبر المسلمون وشدوا على كتائب المشركين يضربونهم ، حتى وهنت قواهم ، وتبعثرت صفوفهم ، وانكشفت منزهة لا يلوون على شيء ، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا .

ويصف ابن اسحق المعركة « . . . ثم انزل الله نصره وصدق وعده فحسبهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكنت الهزيمة لا شك فيها » . . وروى عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : « والله لقد رأيته أنظر الى قوم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرت هرايات مادون أخذهن قليل أو كثير » .

ورأى الرماة — رغم صراحة تعليمات رسول الله — الهزيمة تحل بقريش والنساء يهمن في الصحراء والرجال يولون الادبار ، والغنائم التي خلفها ثلاثة آلاف رجل تزحم الجبل ، واخوانهم يجمعون الغنائم ، فقتل بعضهم لبعض لم يقيموا لها هنا من غير شيء وقد هزم الله عدوكم ، وهؤلاء اخوانكم

## - ١٠١ -

ينتهبون عسكرهم فاغنموا مع الغنائمين » ، واعترض البعض قائلا : « ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا محانكم وان رايتونا نقتل فلا تنصرونا » ، فقادوا : « لم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نبقى بعد ان اذل الله المشركين » ، وأنطلقوا يشاركون في جمع الغنائم وتركوا مكانهم ، الا أميرهم عبد الله فبقى مع نفر قليل ...

كان خالد بن الوليد على خيل المشركين ، وهو رجل يملك أعصابه عند تنافس الحطوب وزحف الأحداث ، يرفض الهزيمة ويبقى دائما النصر ، لم يطر عقله شعاعا بالهزيمة التي لحقت بمومه ، ولم يصبه ما أصاب أقرانه من الاضطراب والخوف ولكنه ظل كعادته قويا جلدا يقظا ، يرقب الأحداث وينظر ناحية الجبل ويتابع ما يحدث فوقه ... ورعى بنظره في مؤخرة الجبل فرأى المسلمين يغادرون مكانهم ولم يبق منهم الا نفر قليل ، فحمل بخيله عليهم حتى أبادهم ، وركب أكتاف المسلمين ، وأوقع الاضطراب والخلل في صفوفهم ، وتبدل الموقف وتغيرت هزيمة المشركين الى نصر واصيب المسلمون اصابه بانه و انتفضت اوداج قریش فرحا واعتزازا بنصر لم يكن في الحسب ، وندوا بشعارهم « يا للعزى .. يا لهيل » ، وأوجعوا من المسلمين قتلا ذريعا ، وأبو سفيان وقد هزه الانتصار الذي جاء على غير انتظار يصيح في الناس « يوم بيوم بدر » .

قال ابن سعد في الطبقات « ونظر خالد الى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخیل وتبعه عكرمة بن أبى جهل فحملوا على من بقى من انصاره وقتلوه و قتلوا أميرهم عبد الله بن جبر رحمه الله تعالى وانتفضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم » .

اذن فخالد قد أدرك أهمية الموقع المرتفع الذي يشرف على أرض المعركة ، وأدرك أن الاستيلاء عليه يعطى فرصة أكبر لاحتراز النصر ، لهذا ظل يرقب المعركة ويتجاهل أحداثها الكبار وعينه على الجبل ينتظر لحظة يشب فيها مع خيله الى قمته ..

وأثر الجبل في نتيجة المعركة يشبه الى حد كبير أثر تبة على المنطار التي تطل على مدينة غزة في المحاولات التي بذلها الانجليز لاحتلالها خلال الحرب العالمية الأولى ، وهذه التبة تقع على بعد ميل تقريبا من غزة من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، وهى في الواقع مفتاح جميع دفاعات المدينة ، وكان الأتراك قد أعدوا موقعا حصينا عند هذه التبة ادراكا منهم لأهميتها الاستراتيجية ، وصارت هذه التبة هدفا للهجوم البريطانى وللدفاع التركى ،

## — ١٠٤ —

ونسعى ألتبى جهده لكى يحتل هذه التبة التى كان يرى فيها مفتاح الموقف والسبيل الى دخول غزة ، ولم يتحقق له دخول غزة الا بعد احتلال التبة .



وتقديرا من قريش لتأدها الشاب المغوار خلال غزوة الأحزاب أسندت اليه ، قيادة أغلاظ كتائبها ، وأعظمها عددا وأكثرها نفرا وأجمعها للتبائل والأحزاب ، وأصبح هو قائدها وحامى حماها .

فى هذه الغزوة كان لخالد موقف مشابه لموقفه يوم أحد ..

فبعد أن أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير جزاء غدرهم ، قاوم نفر من رعوستهم يدعون قريشا الى محاربة محمد .. قالوا لهم « انا سنكون معكم على محمد حتى نستأصله » .. فأستجابت قريش وخرجت ومن تابعها من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة فى عشرة آلاف يقودهم أبو سفيان ابن حرب ، وخرجت معهم بتأثير من اليهود غطفان فى مثل عدد قريش يقودهم عيينة بن حصن الفزارى .

فلما علم رسول الله تجهز للقائهم ، وأشار عليه سلمان الفارسى بحفر الخندق حول المدينة « يا رسول الله انا كنا بأرض فارس اذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا » ، فقبل رسول الله رأيه واستحسنه وأمر فحفر على المدينة الخندق .

وفوجئت الأحزاب بالخندق يحيط بالمدينة ، ووقف المشركون يرتبسون الموقف لا يدرون ماذا يفعلون أمام هذا النوع الجديد من تكتيك الحرب الذى لم يكن لهم علم به .

وقام خالد بن الوليد بجولة فى الموقع فدرسسه وفحصه وألم بتفاصيله ووقع على موقع يضيق فيه الخندق ويمكن منه اجتيازه ، فجمع قومه ودلهم عليه ، فأسندوا اليه مهمة اجتيازه ، فهو أشجع رجالها وأكثرهم جراءة وأقداما ....

وبدا خالد محاولاته فى هذا الموقع ..

واضطرب رسول الله أن يخصص كتية من رجاله تواجه خالدًا وتصدّه عن اجتياز الخندق .. فقد أسندت قريش مهمة اقتحام الخندق الى أبى سفيان بن حرب ، وهبيرة بن أبى وهب وضرار بن الخطاب الفهرى ، كل يغدو فى أصحابه

## ١٠٣ -

يوماً ؛ وأسندت قريش الى خالد بن الوليد مهمة مواجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبة كثيفة غليظة ، وظل خالد ينلوش المسلمين طيلة يومه حتى أنهم لم يؤدوا فريضة الصلاة ظهرا وعصرا ومغربا وعشاء .

الا أن ظروفنا خارجة عن ارادة خالد وقفت في وجهه ومنعته من تحقيق امله في عبور الخندق .. فقد تدخلت عوامل الطبيعة ، وهبت ريح هوجاء ، كثأت قدور قريش وطرحت أبنيتهم وقلعت خيالهم وأطفأت نيرانهم ومألت عيونهم بالغبار والرمال ، واشتدت الريح ، وأظلمت الدنيا فلم تجد قريش بدا من الرحيل ، وخطب ابو سفيان القوم فقال « يا معشر قريش انكم ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف .... ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تظمن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فاني مرتحل » .

ويصف حذيفة بن اليمان ليلة الأحزاب ( غزوة الخندق ) فيقول « ما أتت علينا قط ليلة أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها ، تطن في رياحها أصوات مثل الصواعق وما يستطيع أحدنا أن يرى أصبعه من قتلها الشديد » .

وقال تعالى في وصف ما حدث خلال الموقعة - وقوله الحق - « يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا » .

## الايمان

أسلم خالد بن الوليد .. وزلزل اسلامه المشركين والمنافقين ، وانفجرت براكين غضب أبى سفيان فصاح في وجهه « والله لو أعلم أن الذي تقوله حق لبذأت بك قبل محمد » .

كان لخالد أخ هو الوليد ، وكان قد سبقه الى الاسلام ، فكتب اليه يقول « انى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك !! .. لقد سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رأيك في خالد ؟ ، قلت : يأتي الله به ، فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخى ما فاتك فقد ماتتلك مواطن صالحة » .

قرأ خالد كتاب أخيه وخلا الى نفسه وادار خواطره ، وتمنى على الله أن يبسط من طريق الهداية ، والتمعت في فؤاده بشائر اليقين ..

## - ١٠٤ -

قال خالد « لما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الاسلام وسرتني مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت في النوم كائني من بلاد ضيقة جدبة فخرجت الى بلد اخضر واسع فقلت ان هذه الرؤيا حق » .

روى ابن سعد في الطبقات عن الحارث بن هشام قال : سمعت خالد بن الوليد يقول : لما اراد الله بى من الخير ما اراد ، قذف في قلبي حب الاسلام ، وحضرني رشدي وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم فليس موطن أشهده الا وانصرف وانى أرى في نفسى انى موضع في غير شيء وان محمدا سيظهر ... » .

واتجه خالد الى صفوان بن أمية وحدثه في أمر الاسلام ورجاه أن يكون رفيقه الى رسول الله « أما ترى يا أبا وهب ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟ انما نحن أكلة رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه ؟ فان شرف محمد شرف لنا » ، فرفض صفوان قوله بشدة « لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبداً » وعذره خالد قائلاً « هذا رجل موتور يطلب وترا ، قتل أبوه وأخوه بيدى » .

ثم اتجه خالد الى عكرمة بن أبى جهل فرفض أيضا ..

ثم فاتح عثمان بن طلحة فوجده يستعد للخروج ووجد فيه رفيقاً الى رسول الله ، قال له « انما نحن بمنزلة ثعلب في جحر » ولو صب عليه ذنوب من ماء خرج !! » ، فرد عليه « لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو » ، فخرجاً معه حتى اذا بلغا موقعا يسمى الهدبة ، لقيا عمرو بن العاص وهو في طريقه الى رسول الله وكان الاسلام قد دخل قلبه وملأه نوراً وإيماناً ، وسار الثلاثة معا يتطلعون الى غد مشرق ويتركون وراءهم ماضياً كئيباً ثقيلاً قائماً ..

قال خالد : « قدمنا المدينة أول يوم من صفر سنة ثمان ، فانخنا بظاهر الحرة ركائبنا ... ثم لبست من صالح ثيابي وعمدت الى رسول الله فلقيني أخى فقال : أسرع فلن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بقدومك فسر به وهو ينتظر ، فأسرعت المشى فلما طلعت على رسول الله سلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، فقال رسول الله : قد كنت أرى لك عقلاً رجوت الا يسلمك الا الى خير » ، وبليعت رسول الله وقلت : استغفر لى في كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله ، فقال : ان الاسلام يجب ما كان قبله ، قلت : يا رسول الله على ذلك ، فقال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من حق عن سبيلك » .

## - ١٠٥ -

أسلم خالد وأصبح بإسلامه دعلمة هلمة من دعاملت الاسلام ، ومكسباً عظيماً للإسلام والمسلمين عبر عنه رسول الله في قوله لأصحابه : « ألقوا اليكم مكة أفلاذ كبدها » ( يعنى عليه السلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ) . . . وكان اسلامه نتيجة لما عمر به قلبه من الايمان ، وكان هذا الايمان هو مفجر عبقريته ومبعث بطولته . .

قال ابن عبد البر في الاستيعاب ، وابن الأثير في الأسد « ولم يزل خالد من حين أسلم يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنة الخيل ، فيكون في مقدمتها في محاربة العرب » .

وحمل خالد على اكتافه عبئاً ضخماً خلال بناء الدولة الإسلامية ، فعلى اكتافه تمت فتوح كثيرة في بلاد فارس وبلاد الشام ، بالإضافة الى أنه كان صاحب فضل كبير في مقلومة الفتنة التي قامت اثر وفاة رسول الله .

### \* \* \*

من أهم ما يجب أن يتصف به القائد — أى قائد — هو الإيمان . . .  
فالقائد العسكري لا يمكن أبداً أن يكسب معركة دون أن يكون اشتراكه فيها قائماً أساساً على الإيمان . . . الإيمان بالفكرة والهدف والغاية . .

ولعل ايمان خالد كان السر الكبير وراء انتصاراته ونجاحه ، لقد أحس بخطورة دوره ، وكان ايمانه بهذا الدور عميقاً قوياً راسخاً ، ومن هنا كان يخوض المعارك بقوة وشجاعة وصلابة وعزيمة دون أن ترهبه أحداث المعركة .

رثحه رسول الله — وقد أدرك عمق ايمانه وصدقه — ليقود سرية بعث بها بعد فتح مكة الى العزى لهدمها . . فخرج في ثلاثين رجلاً فهدمها ثم عاد الى المدينة ، فسأله الرسول « هل رأيت شيئاً » ؟ قال « لا » قال « فلك لم تهدمها فارجع اليها فاهدمها » ، فرجع وهو متفيط فلما جرد سيفه خرجت اليه امرأة عريانة سوداء ناشزة الرأس ، وجعل سادنها يصيح بها ، فضربها خالد فجزلها ، ورجع الى المدينة وأخبر رسول الله فقال له : « نعم تلك العزى وقد يئست أن تعبد ببلادكم أبداً » . . . والعزى من أكبر أصنام قريش تعظمه كنانة ومضر ، وكان سدنقتها بنو شيبان من بنى سليم ، ولما علم سادنها بمسير خالد اليها علق سيفه عليها ، والتجأ الى الجبل الذى هى فيه وقال :

أيا عز شدى شدة لاشوى لها      على خالد ، القى القناع وشمرى

وياعز ان لم تقتلى اليوم خالداً      فبئوى بائم عاجل أو تنصرى

## - ١٠٦ -

وبعد أن هدمها خالد ثلث :

يا عزر كفرانك لاسبحانك أنى رأيت الله قد أهانك

واختاره رسول الله مرة أخرى ليهدم ود بدومة الجندل ، وهناك حالت بنو عبد ود بينه وبين هدمه فجرد سلاحه وحاربهم ودحرهم ثم هدمه .

واختاره رسول الله مرة ثالثة ليهدم اللات وهو بيت كان أهل ثقيف يتعبدونه ، ويهدون له ، ويضاهون به البيت الحرام ، وكانوا قد سألوا رسول الله أن يبقيه لهم ولا يهدمه حتى يدخل الاسلام قومهم فرفض .. قدم خالد الى هناك وأمر المغيرة بن شعبه بهدمه فهدمه .

ورثحه ايمانه لكى يكون — فوق أنه رجل حرب — رجل علم يعلم الناس الاسلام ويحفظهم القرآن ويأخذ بيدهم على طريق الهداية ... بعث به رسول الله الى بنى الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم الى الاسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا وقال له : « ان استجابوا لك فاقبل منهم ، وأقم فيهم ، وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الاسلام » .. فأسلموا على يديه ، وبقي بينهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وتعاليم الاسلام .. وكتب الى رسول الله « أنا مقيم بين أظهرهم أمرهم بما أمرهم به الله ، وأنهام عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الاسلام وسنة النبى صلى الله عليه وسلم » .

وايما خالد هو الذى دفعه الى المشاركة الايجابية فى حروب انردة ، فكان له دور كبير وخطير وهام سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد .

وايمان خالد كان الدافع الأكبر لاسلام القائد الرومى جرقة ، فقد دعا جرقة خالد أثناء اليرموك وسأله « ما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم الى هذا الأمر ( يعنى الدخول فى الاسلام ) » فأجابه خالد « منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا ووضعنا ، وأولنا وآخرنا » ، فعاد يسأل « هل لمن دخل فيكم اليوم ياخالد مثل مالكم من الأجر والخير ؟ » فأجابه « نعم وأفضل » ، فعاد يسأله « وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ » فأجاب « أنا دخلنا فى هذا الأمر وبإيعان نبينا صلى الله عليه وهو حى بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات ، حق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويباع ، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل منكم فى هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا » .. وأيقن الرجل صدق حديث خالد فأسام وطلب منه أن يعلمه الاسلام فمال به خالد الى فسطاطه حيث وضأه وصلى معه ركعتين ، وخرج جرقة مع خالد يواجه الروم وأبلى أحسن البلاء حتى أصيب .



## - ١٠٧ -

ولعل إيمان خالد هو الذى جعله يتقبل وهو فى أوج انتصاراته أمر عمر ابن الخطاب بعزله من قيادة الجيش الإسلامى الذى يحارب الروم وكان خالد ساعته فى موقف قوى يغرى بالمعارضة وبالوقوف فى وجه أمير المؤمنين ، فيرفض أمره ويفرض رأيه ، ولكن إيمانه كان أساس فكره وعقله وقلبه ، لهذا لم يفكر فى شيء يمس به هذا الإيمان أو يضره به ، أو ينقص منه ، واستجاب خالد الأمر العزل دون غضب وبنفوس راضية ، وقبل بعد أن كان قائداً للمسلمين أن يعمل جندياً تحت أمرة أبى عبيدة ... مثل حى لإيمان صادق لرجل يحس أنه يجب أن يؤدى واجبه فى أى موقع ، لا فرق بين موقع القائد وموقع الجندي .. أبلغ خالد بأمر العزل ومعركة اليرموك على أشدها فأخفاه حتى انتهت المعركة ، ثم أعلن الأمر على الناس ، وترك مكان القيادة وعمل كجندي ، وحارب تحت أمرة أبى عبيدة فى دمشق وفحل وحمص وقنسرين ، وكان فى كل المعارك خير جندي يأتى بأوامر قائده ويبذل غاية جهده ويسمى سعى المؤمن ابتغاء نصر الله .

### سيف الله المسلول

سمى خالد بن الوليد « سيف الله المسلول » .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : « نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلاً فجعل الناس يهرون ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ فأقول : فلان ، حتى مر خالد بن الوليد ، فقتل : من هذا ؟ قلت : خالد بن الوليد ، قال : نعم عبد الله هذا سيف من سيوف الله » .

وروى عبد الله بن أبى أوفى فى الاستيعاب « أشتكى عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا خالد لم تؤذى رجلاً من أهل بدر ، لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله ؟ : قال : يا رسول الله أنهم يشعرون به فأرد عليهم ، فقال النبي : لا تؤدوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار » .

وروى عن ابن عباس أنه قال : « وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر كلام فقتل عمار : لقد هممت ألا ألكمك أبداً ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا خالد مالك ولعمار ، رجل من أهل الجنة وقد شهد بدرًا ، وقال لعمار : ان خالداً يعمار سيف من سيوف الله سله على الكافرين » .

وفى الإصابة « لما عقد أبو بكر لخالد على قتال أهل الردة قال : إنما

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نعم عبد الله وأخو العشرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سله الله على الكافرين » .

وروى الامام أحمد أن عمر استعمل أبا عبيدة على الشام وعزل خالد فقال خالد « بعث عليكم أمين هذه الأمة » ، فقال أبو عبيدة « سمعت رسول الله يقول : خالد سيف من سيوف الله ، نعم فتى العشرة » .

وفي خلال معركة اليرموك خرج رجل من صفوف الروم يسمى جرجة كان يتولى قيادة أحد جيوشهم ونادى « ليخرج اليّ خالد » ، فخرج اليه وأقلم أبا عبيدة مكانه ، ( أشرنا في ص ١٠٦ الى قصة اسلامه ) فسأله جرجة « ياخالد ، أصدقني ولا تكذبني ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل ، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسله على قوم الا هزمتمهم ؟ » ، قال خالد « لا » فعاد يسأله « فيم سميت سيف الله ؟ » ، فأجابه : « ان الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً ثم ان بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقابله ، ثم ان الله أخذ بقلوبنا فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » ، وقال جرجة معلقاً « صدقتني » ..

### حقاً كان خالد بن الوليد سيفاً من سيوف الاسلام .

سله الله على الكافرين والمشركين في حروب الردة فمضى على المرتدين وأخذ نيران الفتنة ، وأعد الناس سيرتهم الأولى وجعل الاسلام دين الجزيرة كلها تدين به قبلها جميعاً ..

وسله الله على أهل فارس فأطاح فيهم ضرباً وقتلوا حين رفضوا الاسلام ثم الجزية ، وقبلوا أن يواجهوا الاسلام ويقاتلوا رجاله فكانت معارك خالد المتعددة المتتالية فوق أرض فارس وكانت انتصاراته الرائعة في المذار ، والولجة ، واليس وأمغيشيا ، والحيرة والفلايج ، والأنبار ، وعين التمر ، ودومة الجندل وخنفس والحصير وغيرها .

وسله الله على أهل الشام فكان قوة الاسلام هناك ، واجه الروم في قوة وعنف ، وحمل اليهم الهزيمة المرة والضربة القاصمة في اليرموك ، فلم تقم لهم بعدها قلعة ، ولم تعد لهم قوة يواجهون جيوش المسامين المتقدمة الى دمشق وفحل وحمص .

## — ١٠٩ —

كان خالد بن الوليد سيفاً من سيوف الله ، ظل حياته محارباً في سبيل ما آمن به حتى احتل مكان الصدارة بين القادة العسكريين ، وأصبح اسمه في تاريخ الحرب عنواناً للشجاعة النادرة والمهارة الفائقة والكفاءة العظيمة والفهم السليم والایمان العميق والقدرة على قيادة الجند وخوض المعارك في حكمة وقوة ..

### خالد وروميل

عاصر الناس في العصر الحديث حرب الصحراء الغربية التي دارت بين قوات الحلفاء وقوات المحور في الفترة من سبتمبر ١٩٤٠ حتى أبريل ١٩٤٣ ، وعاشوا أحداثها وأثارتهم تطوراتها ، وأصبح اسم القائد الألماني الجنرال أروين روميل على لسان كل من عثت أحداث هذه الفترة ، وذكره الناس قائداً محنكاً بارعاً عظيماً في التخطيط والمراوغة والتقدم والانسحاب والمواجهة .

وأطلق المؤرخون عليه اسم ثعلب الصحراء لأنه — وقد دارت المعارك كلها في منطقة صحراوية — استطاع أن يعيث بالجيش الثامن البريطاني .. كان يتقدم الى مواقع الجيش الثامن فيكيل له الضربات ، ثم يفر من أمامه دون أن ينال منه الجيش الثامن ، كان قديراً في المراوغة والمحاورة والكر والفر ، وارتفع اسمه عندما استطاع أن ينسحب بجيشه من العلمين ثم من الجبهة الأفريقية دون أن تقع به خسارة ما ، وتردد اسمه في مجالات متعددة في الصحافة .. في المؤلفات .. في كل المجالات .. كنجم من نجوم الحرب وكبطل من أبطالها وكفارس كانت له صولات ناجحة نالت التقدير والاعجاب .

### ومن عجب أن هناك شبهة كبيرة بين خالد وروميل كقائد من قادة حرب الصحراء .

فروميل لمع كنجم وسط الظلام عندما بدأت الحرب العالمية الثانية ، وكلما دارت عجلة الحرب دوى اسمه ، حتى أنه لما بلغت الحرب ذروتها كان قد أصبح أشهر من أنجبته من القادة .

وخالد هو الآخر لمع كنجم منذ بدأت الحرب بين الرسول وقريش فلما أسلم وتعددت المعارك بين الجانبين ، ثم بين العرب والفرس ، ثم بينهم وبين الروم دوى اسمه وأصبح من أعظم القادة الذين شهدتهم ميادين القتال .

وروميل رغم تميزه عن غيره من القادة العظماء الذين ظهروا خلال الحرب العالمية الثانية وكاتوا من أبطالها ( ويفلي — دي جول — مونتجمرى — شيانج

كأى شتيك - ايزنهاور - تيمو شنكو ) ، فإنه اختفى من المسرح العسكرى  
فجأة وان ظل خالداً فى تاريخ هذه الحرب .

وكذلك كان خالد بن الوليد فرغم تميزه عن القادة العرب الميامين الذين  
برزوا خلال الحروب الاسلاميه فى داخل الجزيرة او خارجها ، وكانوا أبطال  
المعارك وآساده ، فإنه اختفى من المسرح العسكرى ، وظل يعيش بعيداً عن  
ارض المعارك ، وان بقى اسمه علماً من اعلام الحرب وبطلا مغواراً من أبطالها .

وروميل كان ذا قدرة على المبادأة والمناورة ، وذا قدرة عجيبة على  
استخدام الارض ، وكان سر نجاحه فى كافة معاركه أنه كان يعلم عن عدوه  
أكثر مما يعلمه العدو عنه ، وكانت المفاجأة والخديعة عاملين لا يشاركان نظره  
عند وضعه أية خطة ، وكان يجتهد فى اخفاء نواياه الحقيقية عن العدو ، بينما  
يتحسس نقاط الضعف فى خطوطه ، ويبنى خطته على أساس هذا الضعف .

وكذلك كان خالد بن الوليد .. الصورة واحدة ... الفكر متشابه ...  
التخطيط لا يختلف ... كان خالد قادراً على استخدام الارض استخداماً بفيده  
فى المعركة بقدر ما يضر عدوه .. وكان يهتم بجمع المعلومات بالقدر الذى يعين  
فى وضع الخطة .. وكان قادراً على خداع العدو ومفاجأته ... وكان مجيداً  
فى اخفاء تحركاته ونواياه عن عدوه ... وكان بارعاً فى تلمس نقاط الضعف فى  
مواقع عدوه ، وكانت هذه النقط هى دائماً مفتاح النصر له ..

ورغم هذا التشابه الكبير بين الاثنين رغم اختلاف الفترة الزمنية بين  
ظهور كل منهما ، فإن روميل وصل الى هذه المرتبة من الكفاءة والقدرة بعد  
دراسة لفن الحرب فى الكلية العسكرية ، وبعد أن قرأ المعارك ، وتتلذذ على  
أيدى قادة آخرين ، ومارس فن الحرب منذ بدأ حياته ضابطاً صغيراً بالجيش ..  
وهذا ما لم يتوفر لخالد بن الوليد .. ومن هنا يتميز خالد ويبرز نبوغه الذى  
يؤهله لأن يكون فى مقدمة القادة العسكريين جميعاً ..

ورغم هذا التشابه الكبير بين الاثنين فإن الناس يعرفون عن روميل أكثر  
مما يعرفون عن خالد .. ولهذا فما نحن أَوْلأ نقدم فى هذه الدراسة مثلاً حياً  
لاحدى معارك خالد فى الصحراء وهى معركة مؤتة ... وهذه المعركة تؤكد  
فى صدق عظمة خالد العسكرية ، وتعطينا بأحداثها صورة واضحة لما كان  
يتميز به كرجل حرب لا يبارى ، وتعزز وجهة النظر التى تقول أن خالد قد  
ارتفع بمكانته كقائد عسكرى الى رتبة تفوق رتبة روميل الذى أصبح بعد أن

## - ١١١ -

تحمل القتال في الصحراء عامين متتاليين أسطورة ونموذجاً .. ونحن بذلك لا نكون مباهين إذا أكدنا ثقل خالد من وجهة نظر الفكر العسكري التقدمي .

\* \* \*

حارب روميل الجيش الثامن البريطاني في بلاد صحرواية ( الصحراء الغربية في شمال أفريقيا ) ، بعيداً عن بلده ... وحارب خالد الروم في منطقة صحرواية ( في محلة مؤتة على الحدود الشمالية للجزيرة العربية وعلى مشارف بلاد الشام ) بعيداً عن بلده .

ونجح روميل في محاوره عدوه وتضليله ، وكذلك نجح خالد .

وانسحب روميل بقواته دون أن تناله خسارة ما ، وكذلك فعل خالد .

والشيء الذي يثير الاهتمام أن ما فعله خالد سبق ما فعله روميل بأكثر من ألف عام .. وهنا تبرز عبقرية خالد ويظهر نبوغه .

### ولنوضح الأمر ...

بعث رسول الله الحارث بن عمير الأزدي الى ملك بصرى من جهة هرقل يدعوه الى الاسلام ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الفسائي ، وسأله « لعلك من رسل محمد ؟ » ، فاجابه « نعم » ، فأمر به فأوثق ثم ضرب عنقه .

غضب رسول الله واشتد الأمر عليه ، فندب الناس للجهاد وأرهاب العدو ، فاجتمعت ثلاثة آلاف بالجرف — وهو مكان على بعد ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام — وقال رسول الله « أمير الناس زيد بن حارثة ، فان قتل فجعفر بن أبي طالب ، فان قتل فعبد الله بن رواحة ، فان قتل فليترض المسلمون رجلاً منهم يجعلونه أميراً عليهم » .

خرج رسول الله مثنياً لهم حتى ثنية الوداع ، وقال لهم مودعاً « أوصيكم بتقوى الله وبين معكم من المسلمين خيراً ... اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام » ... وودعهم الناس وقالوا لهم « صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم الينا صالحين .. » .

وكان خالد جندياً في هذا الجيش ، حمل سلاحه وخرج مجاهداً في سبيل الله كغيره من المهاجرين والأنصار .

وتحرك الجيش حتى معان ، وخرج الروم في جموع كثيفة .

- ١١٢ -

والتقى الجمعان في مؤتة .

كان الجيش الاسلامي ثلاثة آلاف .

وكان جيش الروم مائتي ألف ، ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين .

وتردد المسلمون قليلا وتساءلوا « نكتب لرسول الله فنخبره ، فلما أن يمدنا بالرجال ، واما أن يأمرنا بأمر فنمضي له » ، ولكن عبد الله بن رواحة أنهى الموقف قائلا « يا قوم والله ان الذي تكرهون للذي خرجتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ، ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فانها هي احدى الحسينيين . . اما ظهور واما شهادة » . . . وقال الناس « صدق والله ابن رواحة » ، ومضوا الى عدوهم ، ايمانهم في قلوبهم ، وعزمهم في سواعدهم . . .

ودار القتال ، وقتل زيد بعد أن أدى واجبه أحسن ما يكون الأداء ، ثم قتل من بعده جعفر الذي قطعت يده اليمنى فأخذ اللواء بيده اليسرى فقطعت فاحتضنه بعضديه وقاتل به ، ثم قتل عبد الله .

في هذا الموقف العصيب كان المسلمون يواجهون قوات معادية تفوقهم عدداً وعدة ، بعد أن فقدوا قادتهم الثلاثة الواحد وراء الآخر ، بعد أن أعطى كل منهم مثلاً في البطولة والشجاعة والاستشهاد .

وأصبح المسلمون في حاجة الى قائد يسوس أمرهم وينظم صفوفهم ويخطط للمعركة ، وكان من العسير أن يستمر القتال وهم بدون قيادة ، فأسرع ثابت بن أقرم العجلاني وهو بدرى ، وأخذ الراية وتقدم بها مسرعاً الى خالد قائلًا « خذ اللواء أبا سليمان » ، فرمض خالد وقال : « لا . . لا آخذ اللواء . . أنت أحق به . . لك سن وقد شهدت بدراً » .

فأعاد ثابت عليه القول « خذه فأنت أدري بالقتال منى » ، ووالله ما أخذته الا لك « . . . ثم سأل المسلمين « أترضون أمرة خالد » ، فاجابوا جميعاً « نعم » .

وتولى خالد القيادة . . .

ولم يتردد رغم انه يتولاها في لحظات حرجة وظروف سيئة ، فقد انكشف المسلمون ، ووقع القادة الثلاثة شهداء ، وكثر عديد الضحايا . . .

تولى خالد قيادة جيش جناحه مهيب .. جيش في ثلثة .. معنوياته منحلة .. كل الدلائل تشير الى تعرضه لنكسة مروعة .. وعدوه قاتل كاسر كثير العدد والعدة ظافر منتصر .. ولم يكن هناك امل في النصر .. ولكن كان الأمل الوحيد في النجاة هو الخروج بالجيش سالماً .. أى الانسحاب به الى الخلف بأقل خسارة ممكنة .. وهذا ما نسميه في حروب اليوم بالانسحاب الوقائي ، حتى لا يصيب الجيش هلاك أو دمار على أرض المعركة ..

ولكن :

كيف يكون الانسحاب والعدو أمامه منتهز قد أعجبته كثرته ، ومتحفز لنصر أكبر وأعظم ؟ ؟

كيف استطاع خالد أن ينجو بالجيش من فناء أكيد ؟ ؟

الاجابة على السؤالين دليل واضح يؤكد عبقرية خالد العسكرية التي تدفع به الى ذات المستوى الذي وصل اليه روميل في نظر الناس وفي نظر المؤرخين ، بل تدفع به الى مستوى أرقى وأرفع في نظر الرجل العادل .. ذلك لأن ظروف روميل كانت تفوق بكثير ظروف خالد .. فالأول كان يقود جيشاً قضى ثلاث سنوات تقريباً يواجه قوات الحلفاء وهزمها في معارك متتالية ، وكانت معنويات الجيش مرتفعة وروحه عالية .. أما خالد فقد تولى قيادة جيش تلقى هزيمة مروعة ، وانكسرت حدة القتال عند رجاله وهم يرون قادتهم يقعون صرعى الواحد وراء الآخر ، واللواء ينتقل من يد الى يد ، فيلقى العنف والشدة والموت من كل جانب .. كان جيشاً قد انهالت معنوياته ونقد قدرته على القتال ، وأصبح في موضع لا يبشر بخير أبداً .. هذا في الوقت الذي كان فيه عدوه سعيداً بانتصاراته قوياً بامداداته مطمئناً الى معنوياته .

ان الموقف الذي واجهه خالد كان في حاجة الى الفكر الصائب لا الى السيف الصارم ، لأن الجيش الاسلامي كان لا طاقة له في قلة عدده وكثرة جروحه بجيش أعدائه الكثيف .

كان الموقف في حاجة الى فكر ثاقب ، وموهبة خاصة ، وتقدير سليم للموقف ، وتدبير محكم وبراعة تغنى عن السيف .

لهذا قرر خالد أن ينسحب بالجيش الى المدينة حفاظاً على البقية الباقية منه ، وحفاظاً على سمعة الاسلام والمسلمين ، وخوفاً من أن تنهار روح القتال فيشد ذلك من أزر قريش واليهود والكافرين الذين يتربصون بالمسلمين ويرجون لهم الهزيمة والاندحار .

(م ٨ - شخصيات عسكرية اسلامية )

قاتل خالد الروم قتالا شديداً في اليوم الأول الذي تولى فيه القيادة حتى قيل ان تسعة أسيايف اندقت في يده « لقد اندقت في يدي يوم مؤتة تسبعة أسيايف فما ثبت في يدي الا صحيفة يمانية » .

ثم انتهر خالد فرصة الليل فغير نظام الجيش وجعل مقدمته ساقطة وسلفته مقدمة ، وكذلك فعل باليمينه والميسرة . . قال الديار البكري « وروى أن خالداً لما أصبح اخذ اللواء ، فبعد ما صفوا للقتال غير صفوف جيشه ، فجعل المقدمة مكان الساقطة ، والساقطة مكان المقدمة ، واليمينه مكان الميسرة ، والميسرة مكان اليمينه ، فوقع الكفار في غلط فحسبوا أن لحق المسلمين مدد ، فوقع في قلوبهم من ذلك الرعب فانهزموا » .

♦ ♦ ♦

ان الدارس لتاريخ مؤتة والعلمين يتبين له ان الانسحاب في كلتا المعركتين كان يرجع الى اسباب واحدة . . .

فكل من القائدين خالد وروميل احس بان قواته قد اصابها الارهاق نتيجة المعركة الطاحنة التي خاضت غمارها . . وكلاهما احس بأنه عاجز عن ان يعوض الخسائر في الرجال والعتاد . . وكلاهما ادرك سوء الموقف الإداري نتيجة لطول خطوط المواصلات وضعوبة الامداد بالرجال والعتاد . .

كل ذلك في الوقت الذي كان فيه موقف العدو الإداري على درجة من الكفاءة لقصر خطوط مواصلاته ولامكانية وصول الامدادات اليه في فترات قصيرة متعاقبة .

وانسحاب خالد من مؤتة كان أول انسحاب من نوعية في التاريخ ، فالجيوش قبل ذلك كانت تنسحب دون خطة او تدبير . . . بطريقة غير منظمة . . ينسحب كل فرد اعتماداً على نفسه وفكره ، وينتشر أفراد الجيش هنا وهناك بحثاً عن ملجأ . . لاضابط ولا رابط ولا نظام ولا منظم لشئون الانسحاب . .

تم انسحاب المسلمين دون خسارة في الأرواح . . فقد كان خالد خلال عمليات تغيير مواقع القوات يجرى عملية « تخفيف » ، وهي عملية عرفت في الحزب الحديثة . . فقد كان جزء من القوات ينسحب الى الخلف خلال تغيير الموقع فيصل الى الموقع الجديد جزء بسيط بينما يكون الجزء الآخر قد اتجه الى الخلف . . وظلت عملية التخفيف حتى تم انسحاب القوات كلها . . وقيل ان عدد القتلى من المسلمين خلال مرحلة الانسحاب كان اثني عشر فقط وهو



عدد تافه بالنسبة لخطورة العملية ، ولكنه دليل قاطع على سلامة التنفيذ ودقته وروعته .

وإذا أراد المؤرخ المنصف أن يقيم انسحاب المسلمين من مؤتة لجملة أعظم عملية انسحاب تمت في تاريخ الحروب كلها ...

### الحرب الباردة

القت المتأدبر على عاتق أبى بكر حملة الدولة الإسلامية من الأخطار التي تعرضت لها بعد موت رسول الله . . فقد ظن كثيرون أن موت الرسول كان فرصة للانقضاض على الإسلام ، ورفع النفاق رأسه ، وأعلن بعض الناس تمردهم وعصيانهم ، على حد قول الطبرى عن عروة بن الزبير « . . . ونجم النفاق واشترأت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالفنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم وقتلهم وكثرة عدوهم » .

ولم يكن العصيان في مكان محدد ، ولكنه كان في كل مكان حتى في مكة والمدينة .

ارتد كثيرون . .

هم أهل مكة بالردة فخطبهم سهيل بن عمرو وهددهم « أن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن ربنا ضربنا عنقه . . والله ليتمن الله عايكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وهبت ثقيف أن ترتد فقتل لهم عثمان بن العاص « يا أبناء ثقيف كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد » .

نعم ارتد كثيرون . . . وافتרכת العرب في ردتها ، قتلت فئة « لو كان نبيا مامات » وقتل البعض « انقضت النبوة بموته ، فلا نطيع أحدا بعده » .

ورفضت قبائل كثيرة أن تدفع الزكاة . . وقالت في ذلك « نؤمن بالله ، ونشهد أن محمدا رسول الله ، ونصلى ، ولكن لا نعطيهم أموالنا » .

وظهر من ادعى النبوة كطليحة في بني أسد وسجاح في بني تميم ، ومسيلمة في اليمامة ، وذى التاج لقيط بن مالك في عمان ، والأسود العنسى في اليمن .

وكانت عاصفة عاتية شديدة عابسة تعرض لها الاسلام ...

ولكن ابا بكر خليفة رسول الله وصديقه ورفيقه تصدى لها ووقف في وجهها ... وكان له النصر ... فمرت العاصفة ، وبقي الاسلام شامخا راسخا قويا عزيزا .

### وكانت الجولة الاولى مع مانعى الزكاة ..

وانقسم هؤلاء الى فرقتين ... هاجمهم ابو بكر في الأبرق ، ثم في ذي القصة ، وتغلب عليهم .. وكان رأيهم في ذلك « والله الأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال وقد قتل الا بحقها » .. و « والله لو منعوني عقالا كاتوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » . واسرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة اليه بعد انتصاره .

### وكانت الجولة الثانية مع المرتدين ..

وحشد أبو بكر قواته للقضاء عليهم ، أو لاعادتهم الى الاسلام تابعين مستغفرين .. كتب اليهم يقول « قد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه ، بعد ان أقر بالاسلام ، وعمل به اغترارا بالله عز وجل وجهالة الأمر ، واجابة للشيطان .. وانما قد انفذت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان ، وأمرته الا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى ، ان يقاتله على ذلك ولا يبتى على أحد منهم قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ، ويسبى النساء والذراري ، ولا يقبل من أحد الا الاسلام » .

قسم أبو بكر قواته الى احد عشر لواء ، وجعل على كل لواء اميرا ، وكان كل لواء يتناسب في عدده وامارته مع قوة القبائل التي سيلاتها ، وعلى مدى الحاح هذه القبائل في الردة .

وكان أول هذه الألوية بقيادة خالد بن الوليد .. كان أمنع الألوية وأقواها ، به خيرة المقاتلين من المهاجرين والأنصار ، وكانت مهمته قتال طليحة بن خويلد في بني أسد ، ثم قتال مالك بن نويرة زعيم بني تميم ، ثم قتال مسيلمة في بني حنيفة .

ثلاثة أهداف عظم تتناسب مع بطولة خالد ومكانته ، فقد عرفه أبو بكر

بطلا مقداما وفارسا مغوارا ، ومداورا في الحرب الهم أسرارها وعرف ادق  
أمورها ، وأدرك أصولها وفنونها .

\*\*\*

### كان أول لقاء ضد طليحة .

وبدت عبقرية خالد العسكرية في قتاله له . . رأى أن انسلاخ بعض  
القبائل التي انضمت الى طليحة عنه يضعف قواته ويفت في عضده ،  
فبعث بعدي بن حاتم الطائي الى قومه يدعوهم ليرجعوا الى الاسلام فقاتلوا له  
« لا نتبع أبا الفصيل أبدا » ، فقاتل لهم « لقد أتاكم قوم ليبين حريمكم ، ولتكننه  
بالفصل الأكبر فثمانكم به » . . . وحدثهم عن قوة خالد وعن مسيرته اليهم  
بما أفزعهم وروعهم ، ورأوا أن عديا على حق فقاتلوا له « استقبل الجيش  
فنهضه عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاة منا ، فانا أن خالفنا طليحة وهم في  
يديهم قتلهم وأرتهنهم » ، وطالب عدى من خالد « يا خالد أمسك عنى ثلاثا يجتمع  
لك خمسمائة مقاتل لتضرب بهم عدوك » . . وانفصل رجال بنى طيء عن  
طليحة .

ثم توجه عدى بعد ذلك الى جديلة وقال لخالد « ان طيئا كطائر ، وان  
جديلة أحد جناحي طيء ، فأجلنى اياما لعل الله أن ينقذ جديلة كما أنقذ  
الغوث » . . ونجح عدى في انسلاخ جديلة عن طليحة وانضم لهم الى خالد في  
ألف راكب . . وسعد المسلمون بنجاحه في مهمة حتى أن أحد الشعراء  
عبر عن ذلك فقال :

جزى الله عنا طيئا في بلادها ومعترك الأبطال خير جزاء  
هم أهل رايات الساحة والندى اذا ما الصبا ألوت بكل خفاء  
هم ضربوا بعثا على الدين بعدما أجلبوا منادى فتنة وعماء

وقتل خالد طليحة في البزاة قتالا شديدا ، وفر أصحاب طليحة فقتلهم  
المسلمون - وخالد في المقدمة - يقتلونهم ويأسرونهم ووقع في الأسر عيينة بن  
حصن الفزاري قائد قوات طليحة .

وانكشف عن طليحة شيطانه ورأى ما حل بأصحابه ، فاعد فرسه وحمل  
وراءه امرأته ثم فر من المعركة بعد أن خاطب قومه « يا معشر فزارة ، من  
استطاع أن يفعل هكذا ، وينجو بامرأته فليفعل » ، وأقبل بنو سليم  
وعامر وهوازن قائلين « ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله ،  
ونسلم لحكمه في أموالنا وانفسنا » .

## - ١١٨ -

قال عبد الله بن عمر وكان في جند خالد « نظرت الى راية طليحة يومئذ حمراء يحملها رجل لا يزول بها فترا ، فنظرت الى خالد أتاه فحل عليه فقتله ، فكانت هزيمتهم ، فنظرت الى الراية تطوها الخيل والابل والرجال ، ولقد رأيت خالدا يوم طليحة يباشر القتال بنفسه حتى ليم في ذلك » .

\* \* \*

### ثم كانت الجولة الثانية ضد مالك بن نويرة

وسار خالد للقاءه في البطاح ، فما أن سمع مالك بدنو جيوش المسلمين واقتربها حتى فرق قومه ومنع اجتماعهم قائلا « يا بنى يربوع ، انا كنا قد عصينا أمراءنا اذ دعونا الى هذا الأمر ، وبطنا الناس عنهم فلم نفلح ولم تنجح واني قد نظرت الى الناس فايكم ومناواة قوم قد صنع لهم » ثم نصحهم « تفرقوا الى دياركم وادخلوا في هذا الأمر » .

ووصل خالد فلم يجد احدا فبث جنده وأمرهم أن يأتوه بكل من لم يجب دامية الاسلام ، فان امتنع قتلوه .

.. وجاء الجند بمالك بن نويرة في نفر من بنى يربوع الى خالد ، فأمر ضرار ابن الأزور بقتله ... روى ابن خلكان : قال مالك « اني آتي الصلاة دون الزكاة » ، فقال له خالد « أما علمت أن الصلاة والزكاة معا لا تقبل واحدة دون أخرى » ، فقال مالك « فقد كان صاحبك يقول ذلك » ، فقال له خالد « أو ما تراه لك صاحباً » ثم أردف « والله لاقتلنك » .

\* \* \*

### وكان قتال مسيلمة الكذاب آخر المطاف مع المرتدين

ومسيلمة كان قد ادعى النبوة في عهد رسول الله ، وكان لبقا فاستطاع أن يقنع بعض الناس فأمنوا به ، ونجح في استمالة نهار الرجال ، الذي بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ، وكان قد أسلم وتفقته وحفظ القرآن .

وقوى شأن مسيلمة واستطاع أن يهزم جيشا يقوده عكرمة بن أبي جهل سيره أبو بكر اليه ، كما استطاع أن يهزم جيشا آخر كان يقوده شرحبيل ابن حسنة .

وبعث أبو بكر الى خالد « ان اظفرك الله بأهل اليمامة فايك والابقاء عليهم .. أجهز على تجريحهم ، واطلب مدبرهم ، واحمل أسيرهم على السيف ، وهول فيهم القتل ، وأحرقهم بالنار ، واياك أن تخالف أمرنا » .

وتحرك خالد على رأس جيش من صناديد المسلمين مهلجرين وأنصاراً ،  
فيهم أبو حذيفة بن اليمان وزيد بن الخطاب وثابت بن قيس والبزاة بن مالك ،  
وانضمت اليه قوات أخرى إسلامية أمده بها أبو بكر بقتلادة سليط بن قيس  
الأنصاري من بني النجار ، فأسند اليه خالد مهمة حماية مؤخرة قواته ، واتفق  
خالد مع بعض القبائل لتحمي له ظهره .

وخرج مسيامة في أربعين ألفاً ، واتخذ له معسكراً في عقرباء ، وجعل  
على جانبيه محكم اليمامة ونهار الرجال ، وكان ابنه يثير نفسية المقاتلين فيقول  
لهم « يا بني حنيفة اليوم يوم الغيرة ، ان هزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن  
غير حظيات ، فقتلوا على أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » .

ورأى خالد أن يكسر شوكة مسيامة ، وأن يجعله يهزم نفسه قبل أن  
يلقاه ، وأن يحطم معنوياته ، وأن يبعد عنه حلفاءه الذين انضموا اليه ،  
واستخدم أسلوباً جديداً في الحرب وهو ما يطلق عليه اسم الحرب الباردة .

فدعا أحد سادات أهل اليمامة وهو عمير بن صالح اليشكري — وكان قد  
أسلم وكتب ذلك عن أهله ، وكان راسخ الايمان قوى العقيدة — وقال له « تقدم  
الى قومك فأكسرهم » . وجاءهم عمير « يا معشر أهل اليمامة ، أظلمكم خالد  
في المهاجرين والأنصار ، تركت القوم يتتابعون الى فتح اليمامة ، وقد قضوا  
وطراً من أسد وغطفان ، وأنتم من أكفهم ، وقولهم لا قوة الا بالله ، انما رأيتم  
قوما ان غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر ، وان غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد ،  
ولستم والقوم سواء ، الاسلام مقبل ، والشرك مدبر ، صاحبهم نبي وصاحبكم  
كذاب ، ومعهم السرور ومعكم الفرور ، فالآن والسيوف في غمده ، والنبل من  
جفيره ، قبل أن يسيل السيف ويرمى بالسهم ، سرت اليكم مع القوم عشراً » .

وبذلت محاولة أخرى في مجال حرب الأعصاب قلم بها ثمامة بن أثال  
الحنفي من أشراف بني حنيفة ، فخطب الرجل قومه وقال « يا أهل اليمامة ،  
اسمعوا مني وأطيعوا أمرى ترشدوا ، انه لا يجتمع نبيان بأمر واحد ، ان محمداً  
صلى الله عليه وسلم لا نبي بعده ، ولا نبي مرسل معه . . . لقد بعث اليكم رجل  
لا يسمى باسمه ولا باسم أبيه يقال له سيف الله ، معه سيوف الله كثيرة ،  
فانظروا في أمركم » .

وبذلت محاولة ثالثة أيضاً في مجال حرب الأعصاب بقصد تحطيم أعصاب  
القوم وارهابهم واضعاف روح القتال عندهم ، فقد أرسل خالد زياد بن بياضة  
الأنصاري الى محكم بن طفيل « يا زياد لو أقيت الى محكم شيئاً تكسره به فانه

— ١٢٠ —

سيد أهل اليمامة » ، فأنشد زياد شعرا خاطب به محكم بن طفيل جاء فيه :

يا محكم بن طفيل انكم نفر كالأشياء أسلمها الراعى الأسد  
ما في مسيلمة الكذاب من عوض من دار قوم واخوان وأولاد  
فاكف حنيفة يوما قبل نائحة تنعى فوارس شاج شجوها باد  
لا تأمنوا خالدا بالبريد معتجرا تحت العجاجة مثل الأغصف العدى  
ويل اليمامة ويلا لا فراق له ان جالت الخيل فيها بالقنا الصادى  
والله لا تنثنى عنكم أعنتها حتى تكونوا كأهل الحجر أو عاد

بدأ القتال قويا عنيفا لم يسبق له مثيل ، وانهزم المسلمون في أول الأمر حتى أن بنى حنيفة دخلوا فسطاط خالد ، ولكن المسلمين صمدوا في كناهم وخاطبهم خالد « امتازوا لنعلم بلاء كل حى ولنعلم من أين تؤتى »

قال عكرمة بن أبى جهل « حملت بنو حنيفة ، أول مرة كانت لها الحملة وخالد على سريرته ، حتى خلص اليه فجرد سيفه وجعل يسوق بنى حنيفة سوفا حتى ردهم وقتل منهم قتلى كثيرة ، ثم كرت بنو حنيفة حتى انتهوا الى فسطاط خالد فجعلوا يضربون الفسطاط بالسيوف » .

وهاجم المسلمون وكلهم حماس ورغبة في نصر أو استشهاده .. قال ثابت ابن قيس « بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين .. اللهم انى أبرأ اليك مما يعبد هؤلاء ( وأشار الى أهل اليمامة ) ، وأبرأ اليك مما يصنع هؤلاء ( وأشار الى المسلمين ) » ثم اندفع يقاتل حتى قتل ... وقل البراء بن مالك « .. أين يا معشر المسلمين .. أين .. أنا البراء .. هلموا الى » ، وقتل زيد بن الخطاب « والله لا أتكم اليوم حتى نهزمهم أو القى الله فأكله بحجتي .. غصوا أبصاركم وعضوا على أضراركم أيها النلس واضربوا عدوكم وامضوا قدما » .. وقال أبو حذيفة « يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال » ..

ورأى خالد أن قتل مسيلمة هو العامل الأول في القضاء على معنويات رجاله ، فأخذ يرقبه حتى دنا منه فهاجمه ، وفر مسيلمة فصاح خالد « وامحمداه » ، فركب المسلمون المشركين وطاردوهم ، وصاح محكم بن طفيل في الفارين « يا بنى حنيفة .. الحديقة .. الحديقة » ، فاجهوا جميعا الى حديقة لمسيلمة فسيحة الأرجاء منيعة الجدران ، وتحصنوا داخلها ، فأمر خالد بحصارهم ، ولكن البراء صرخ في قومه « احملونى على الجدار حتى تطرحونى

- ١٢١ -

عليه » ، فلما وضعوه على الحائط اقتحم عليهم وحاربهم على الباب ، واقتحم خالد مع رجاله والتحم مع العدو وقتل منهم كثيرين كان في مقدمتهم مسيلمة ، قتله وحشي الحبشي ، وقتل في ذلك « قتلت خير الناس » يقصد حمزة بن عبد المطلب في أحد ) وأنا على جاهليتي ، وشر الناس ( يقصد مسيلمة ) وأنا على الاسلام » .

وكان مقتل مسيلمة بداية لنهاية هذه المعركة القاسية ، فلم يكد يسرى نبأ قتله في قومه حتى انفرط عقدهم وانحلت عزائهم وضاع الأمل ووهنوا أمل المسلمين فتفرق من بقى منهم الى الحصون ، وطلب مجاعة بن مرارة من خالد الصلح ، فأجابه خالد اليه .

وانتهى القتال . . قتل من المسلمين ألف ومائتا شهيد ، ومن بنى حنيفة أربعة عشر ألفا ، أى ان نسبة الشهداء المسلمين الى قتلى المشركين تعادل ستة في المائة ، وهذا دليل على أن النصر الذى حققه خالد كان من أروع الانتصارات وأعظمها .

ونظرة على أحداث المعركة بين جند الاسلام من مهاجرين وانصار صادقى العزم والايمن وبين بنى حنيفة ، توضح لنا كيف أدار خالد المعركة برجولة وبطولة . . لم يجبن أو يخف ، رغم أن لقاءه مع بنى حنيفة كان ثالث لقاء مع أعداء الاسلام ، لقاء وراء لقاء ، فقد انتهى من طليحة ليقا تل مالكا ، ثم انتهى منه ليقا تل مسيلمة ، جهد متصل مشكور بذله خالد رغبة في القضاء على مدعى النبوة ، وفي الحفاظ على الاسلام ، وفي الإبقاء على كيانه ووجوده . . من أجل هذا أشعل النفوس حملا ومضاء وعزما « امتأزوا لنرى اليوم بلاء كل حى » ، وامتأزوا جميعا ، وكان خالد خلال المعركة يهلل ويكبر ويسمعه الجند فقتحول سيوفهم الى مقادير لا راد لها ولا معوق ، وحلت روحه في جيشه كله .

ونجح خالد وانتصر ، وطوى تحت التراب وفي بطن الأرض مسيلمة الدعى الكذاب .

\*\*\*

ولنا هنا وقفة صغيرة . . .

انتصر خالد على قوات طليحة ومالك ومسيلمة بعد أن استخدم سلاحا جديدا لم يكن معروفا من قبل ، هو سلاح حرب الأعصاب أو الحرب الباردة ،

**وهو يعنى تحطيم معنويات العدو ثم محاولة اضعافه بفض محالفاته مع الآخرين .**

هذا أسلوب مستحدث فى الحرب ، فقد أصبحت الحرب الباردة اليوم من أخطر الأسلحة التى تستخدمها الدول فى تحطيم معنويات أعدائها ، كما أن الدول فى العصر الحديث تحاول دائما أن تشكل الأحلاف ، وأن تجمع دولا أخرى معها حتى يبقى العدو وحده فى الميدان ، فإذا ما حاول العدو أن يشكل حلفا سعت الدول الى تعطيل قيله بكل الوسائل الممكنة .

اذن فأسلوب خالد فى محاربة الردة أسلوب جديد مستحدث تستخدمه الجيوش الحديثة ، ولعل الحرب الباردة التى يعانى منها العالم فى هذه الآونة ، ولعل كذلك فكرة الأحلاف العسكرية التى تسيطر على سياسة الدول تعطى الدليل القاطع والبرهان السلطع على تميز عقلية خالد التى سبقت فى التفكير والتقدير والتنفيذ كل الاتجاهات العسكرية الحديثة .

\* \* \*

ان فكر خالد الحربى قد التقى مع افكار ثلاثة من العسكريين فى العصر الحديث .

فالفكر العسكرى الصينى سمن تزو يقول « ان اعظم المهارة هى تحطيم مقاومة العدو دون قتال » ، وهذا هو ما حدث مع مالك .

ويقول لينين « ان اصلح استراتيجية للحرب الحديثة هى أن تؤجل العمليات الحربية حتى يهوىء تحلل القوى المعنوية للعدو الى الضربة القاضية بسهولة ويسر » ، وهذا هو ما حدث مع طليحة .

ويقول روثستنج « ان استراتيجيةنا هى ان ندفع العدو الى تحطيم نفسه او نهزمه عن طريق نفسه » ، وهذا هو ما حدث مع مسيلة .

لا يشك انسان بعد هذا الاستعراض فى أن خالد بن الوليد كان يتميز بعقلية عسكرية مفكرة متطورة سبقت عصره وفأقت غيره .

\* \* \*



## نهر الدم

كانت لـخالد جولات كثيرة في بلاد الفرس بدأت بكاظمة وانتهت بالفراض .  
كان خالد خلال كل المعارك هو قائد جيش المسلمين ، بينما تغيرت  
القيادات وتبدلت عقب كل معركة عند الجانب الآخر .

ورغم أن كل قائد كان له أسلوبه الخاص في مواجهة عدوه ، فإن خالد  
ابن الوليد قابل عددا من قادة الفرس في مواقع مختلفة وبأساليب مختلفة  
واستطاع أن يقهرهم جميعا ، وأن ينتصر في كل معاركه ، وأن يكون منهجه  
هو المنهج المميز في كل المواقع

كان العرب قبل غزو خالد للعراق ينظرون الى الفرس نظرة اجلال  
وتهيب ، بينما كان الآخرون ينظرون الى العرب باحتقار لا مثيل له .

وكانت مسيرة خالد الى العراق بدء ظهور الدولة الاسلامية واحلالها  
المكانة اللائقة بها بين الأمم الكبيرة في هذا العصر ، وكانت أيضا ايدانا بانتهاء  
سلطان الاكاسرة .

وكان أسلوب خالد في الحرب عظيما رائعا يتفق مع عظمتة العسكرية  
وينبع من ابداعه الحربى ..

كان خالد حكيما في غزوه لأرض فارس ، فكان اذا فتح بلدا لا يجوزها  
الى أخرى قبل أن يستتب الأمر بها ويسودها الأمن والنظام والسلام .

وكانت حرب العراق فرصة تعليمية وتدريبية لقوات المسلمين ، فقد  
واجهت أعداءها في خمس عشرة موقعة ... التقت فيها بجيوش تفوقها عددا  
وعدة ، وخبرة وقدرات وامكانيات ، وعلم بفن الحرب ، ودراسة الأساليب  
القتال ، فتعلمت منها كل جديد ، وأخذت منها كل مستحدث .

ولم يهزم خالد في معركة واحدة من المعارك المتعددة التى خاض غمارها  
قوة أرض العراق ، حتى أن أبابكر وقد بلغته انتصاراته المظفرة قال لقومه  
« يا معشر قريش ... عدا أسدكم على الأسد: فغلبه على خراذيله... أعجزت  
النساء أن ينشئن مثل خالد ؟ » .

لم يكد خالد يفرغ من نصر يتوج به هلمت المسلمين الا ليستقبله نصر:

## — ١٢٤ —

جديد أعظم وأروع ... وكان الفرس في ذات الوقت لا يفيقون من هزيمة الا ليلتقوا هزيمة أخرى أشد وأوجع .

وكان خالد على رأس جيش من المؤمنين الصابرين الراغبين في الموت الباحثين عن الجنة المشتاقين الى لقاء ربهم .. وصفهم خالد في قوله لاهل العراق « قد والله اتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » ... وقال يصفهم لمرأبة العراق « لقد جئتمكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .

وكان خالد يحارب قوما لا رابطة بينهم ولا ايمان في قلوبهم ولا عقيدة عندهم .. اختلفوا على السلطة والعرش والصولجان .. نشروا الظلم والفساد فكرهتهم الجماهير .. وصفهم خالد في كتاب له بعث به الى ملوكهم « الحمد لله الذي حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ... » واعاد خالد وصفهم في كتاب آخر قال فيه « الحمد لله الذي فض خدمتكم ، وفرق جمعكم ، وأوهن بأسكم ، وسلب أموالكم ، وأزال عزكم ... »

**وكان خالد يثير حماسة جنده بوسائل متعددة ايمانا منه بان المعركة لا تكسب الا بالرجال ...** فهم عماد المعركة وهم وقودها وهم وحدهم الذين يقررون نهايتها ، فلما نصر عزيز واما هزيمة نكراء .. من أجل هذا ومن خلال هذا المعنى وفي ضوءه اهتم خالد بحياة الجند ومعنوياتهم .. وعلى سبيل المثال كان هرمز قد سبقه ونزل على ماء في كلظمة واضطر خالد الى النزول على غير ماء ، وحدثه في ذلك بعض أصحابه فقال « حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء ، فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » ، ولما كان الماء من ألزم الأمور بالنسبة للمقاتلين ، ولما كان الحرمان منه يضر ضررا بالغا بالحاربين ، فان قول خالد قد اثار حماس الجند فاستمدوا من ايمانهم قوة ، ومن يقينهم عدة ، ومن أرواحهم أسلحة ، ومن روح قائدهم عزيمة ، وجالدوا على الماء حتى انتزعوه فكانوا بذلك أصبر الفريقين وأكرم الجندين .

**وتميزت مواقع خالد بالخطط الحربية التي كان يخوض على اساسها غمار المعركة ...**

ففي موقعة الولجة مثلا اعد الفرس جيشا كثيفا بقيادة الأندرزغر ، سار حتى أتى كسكر ( بين البصرة والكوفة ) ثم جاوزها الى الولجة ، وخرج وراءه بهمن جازويه في جيش كبير ، واتخذ طريقا آخر فسلك وسط السواد ، وكان خالد في هذا الوقت في المذار ، فسار بجيشه الى الولجة ، واحس بالتنفوق

العددي والملاي في جانب عدوه ، فقدر موقفه ، ووضع خطة اللقضاء على أسس أن يقسم جيشه الى ثلاث فرق .. تتقدم الفرقة الاولى بقيادته لملاقاة العدو ، وتبقى الفرقتان بقيادة يسر بن أبي رهم وبسعيد بن مرة كميناً لا يشترك في القتال الا بعد أن يكون القتال قد نشب فعلاً ، وتحملت منه قوات الفرس من الجهد ما يضعفها ، فلا تستطيع مواجهة الفرقتين اللتين تدخلان المعركة بكامل قواتهما ، وأسند خالد الى سويد بن مقرن مهمة حماية مؤخرة قواته . ولما بدأ القتال واشتد وعظم الخطب ونفذ الصبر خرج الكمين من جهتين مختلفتين ، وأصبح الفرس مطوقين من كافة الجهات مما أدى الى انهيار مقاومتهم ، ودارت عليهم الدائرة فولوا الأدبار منهزمين ، وهرب قائدهم ومات عطشاً .

وفي موقعة الأنبار سار خالد في تعبئة اليها ، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس فلما بلغها طاف بها ، فرأى أهلها قد تحصنوا وخندقوا على أنفسهم .. فأمر بحصارها ثم مر على الخندق ودرسه ، وعرف عيوبه ، ووقف على أماكن الضعف فيه ، وأدرك أن القوم ضعاف لا حول لهم ولا قوة ، فأمر رجاله « انما أرى اقواماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها » ورشق الجنود أهل الأنبار بالسهم ، ففقدوا ألف عين لهم ، فتصايح الناس : « ذهبت عيون أهل الأنبار » .

وعاد خالد ليطوف بالخندق ، فوجد فيه مكاناً ضيقاً ، فأمر بالابل الضعاف فنحرت ، وألقى بها في أعماق الخندق ، ثم اقتحم بجنده الخندق من فوقها ، وحطم أبواب الأسوار ، ثم دخل المدينة .

وفي واقعة الفراض تجمعت قوات الفرس مع حلفائهم من الروم وتغلب وبعض القبائل العربية ، وكان بين الجيشين نهر الفرات ، فبعث الفرس الى خالد « اما أن تعبروا النهر أو نعبر اليكم » ، فأجابهم « اعبروا النهر » ، فقالوا « تنح عن طريقنا حتى نعبر » ، فقال « لا أفعل ، ولكن اعبروا أسفل منا » . وواضح انه كان يريد أن يلزم عدوه بعبور النهر من مكان تكون له فيه السيطرة ويجد فيه مكاناً صالحاً للقاء العدو يكون هو فيه في وضع أكثر استعداداً للقتال .. وهذا تفكير عسكري لا يصدر الا عن عقلية عسكرية متفتحة .

وأدرك الروم حلفاء الفرس سر تفوق خالد عسكرياً فقالوا للفرس « احتسبوا ملككم ، هذا رجل يقاتل عن دين ، وله عقل وعلم » ووالله لينصروا ولتخذلن » .

وعبر الأحلاف النهر فهاجمهم خالد ، ودارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون ، وقتل خالد لأصحابه « الحوا عليهم ، ولا ترموها عنهم » ، وانجلت

المعركة عن هزيمة ساحقة لفارس ومن لف لفها من الأعراب ، وبندير يأتي به الله تبارك وتعالى خلفاءهم من الروم ... لقد قتل من الفرس وحلفائهم من الروم والعرب في هذا القتال مائة ألف .

ووصف القمعاق بن عمرو موقعة الفراض فقال :

لثينا بالفراض جموع روم      وفرس غمها طول السلام  
أبدنا جمعهم لما التقينا      وبيتنا بجمع بني رزام  
فما فتئت جنود السلم حتى      رأينا القوم كالغنم السوام

\*\*\*

نلاحظ خلال عمليات العراق أن خالدا كان حسن التصرف سريع التقدير للموقف ومواجهة الأمور التي كانت تقابله خلال القتال ، وحسن التصرف وسرعة التقدير من السمات المميزة للقائد الناجح ، إذ أنه كثيرا ما يحدث خلال العمليات أن تبدو مواقف حرجة تتطلب تصرفا سريعا وسليما ، والقائد الناجح هو الذي يستطيع أن يواجه هذه المفاجآت بما يعود على جيشه بالفائدة ويرجح كفة المعركة الى جانبه .

في موقعة الحيرة مثلاً قدر صاحب الحيرة أن خالدا سيركب اليه النهر فأمر ابنه أن يسد قناطر الفرات ليعوق بذلك سير السفن ، ثم خرج وعسكر خارج الحيرة ، وحمل خالد رجاله في السفن وسار شمالا باتجاه الحيرة فإذا بالسفن تنجح ، وعلم من الفلاحين أن الفرس قد فجروا الأنهار ، فسلك الماء غير طريقه ولم يعد يجرى في الفرات ، وبالتالي تعطلت السفن وتعطل تحرك القوات ، فكر في الموقف المفاجيء الذي وجد نفسه أمامه ، وانتهى بسرعة الى اجراء حاسم ، إذ تحرك بكتيبة من الخيل نحو ابن المرزبان الذي سد النهر ، ولم يكن يتصور أن يأتيه خالد في موضعه ، وكان آمنا من الاغارة ، فلما وصل خالد ، وقع قتال قتل خلاله وعاد الماء يجرى في النهر من جديد ، وعادت السفن الى السير ، وقصد خالد الحيرة فوجد أهلها في قصورهم ، فأمر بحصارهم ، وعين لكل قصر قوة على رأسها أحد رجاله ( ضرار بن الأزور على حصن القصر الأبيض ، وضرار بن الخطاب على قصر العدسيين ، وضرار بن مقرن المزني على قصر بني مازن ، والمثنى على قصر ابن قبيلة ) ، ثم عرض خالد على زعماء الحيرة الاسلام أو الجزية أو المنبذة فاختاروا القتال ، فلما اشتد قتل المسلمين لهم طلبوا الصلح ، فعقد خالد صلحا معهم .

**واستخدم خالد في دومة الجندل نوعا جديدا من التكتيك لم يكن للفرس علم به ، فقد جعل أعدوه بين فكي الكباشنة .**

واجه خالد الروم بقواته من ناحية وقوات عياض بن غنم من ناحية أخرى ، ولما بدأ الهجوم فر أهل دومة الى داخل حصن ضلّق بهم ، فأغلّقوا أبوابه ، وحاصره المسلمون ، واقتاعوا الأبواب واقتحموه على من فيه . ولعل الثّاري يعرف أن أسلوب فكي الكباشنة هو أسلوب حديث استخدمه الألمان خلال الحرب العالمية الثانية .

**وكانت المفاجأة من وسائل الحرب الإسلامية ضدّ الفرس ، واحساسا من خالد بآثر المفاجأة على نفسية الحاربيين ، فقد رأى أن تكون المفاجأة بسلاحه الجديد في معركة الّيس .**

في هذه المعركة اجتمع نصارى بكر بن وائل مع قوات الفرس يقودها بهمن جاذويه ، ووصلت قوات خالد الى أرض المعركة ، وقوات الفرس تتناول طعامها ، وليست في وضع القتال ، فانتهاز خالد الفرصة وهاجمها ، فترك الجند طعامهم وبحثوا عن سلاحهم ، وصمدوا أملا في وصول مدد يشد من أزرهم ، ودعا خالد ربه : « اللهم انك على ان منحتنا أكتافهم ، الا أستبقى منهم أحدا قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم » . وشد خالد وشد معه المسلمون ، فانهزم الفرس وفروا من الميدان ، فأمر خالد مناديه فنادى في الناس « الأسر . . الأسر . . لا تقتلوا الا من امتنع » ، ثم وكل بهم من يضرب أعناقهم في النهر . واستمر الضرب يوما وليلة دون أن يجري النهر دما ، فقال له أصحابه « لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم . . ان الدماء لا تزيد على أن تترقرق ، فأرسل عليها الماء تبر يمينك » ، فأمر بإعادة الماء الى النهر فجرى دما وسمى النهر «نهر الدم » .

لقد كانت معركة الّيس من أشدّ المعارك التي خاضها خالد في العراق ، وقد قال في ذلك « لقد قتلت يوم مؤتة ، فانتقطع في يدي تسعة أسيف ، وما لقيت من أهل فارس قوما كاهل الّيس » .

## التحرك العظيم

تلقى خالد بن الوليد وهو في العراق كتابا من أبي بكر جاء فيه « سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فلتهم قد شجوا وأشجوا » .

وكان القوم قد تجمعوا في الشام في جيش كثيف العدد كثير العدد ، فمقد بلغ عدده أربعين ومائتي ألف يقوده ثلاثة من أكبر قادة الروم هم تيودريك ، والفيقار بن نسطوس ، والدارقسي ، وجرجة .

وكان تجمعهم في منطقة الدبوك ، في مواجهة جيوش المسلمين الأربعة التي كان الخليفة قد أرسلها وتبلغ قوتها جميعا ثلاثين ألفا يقودها أبو عبيدة ابن الجراح ، وعمرو بن العاص ، وشريحيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان ، ولم تستطع قوات المسلمين هناك أن تفعل شيئا إزاء هذه الجموع الغفيرة ، فلما أعياهم الانتظار وأملهم الاضطراب وهلتهم الحشود الرومية ، كتبوا إلى أبي بكر يستمدونه ، ويلتمسون عنده الرأي ، فأرسل كتابه إلى خالد .

وكان موقف المسلمين حرجا ، وعامل الوقت في صلاح الروم ، ولذا كان على خالد أن يصل إلى بلاد الشام في أقصر وقت ، وأن يقطع المسافة بين العراق والشام في أقل مدة حتى لا يتدهور الموقف هناك .

والتحرك من العراق إلى الشام عملية ليست يسيرة ، بل هي عملية شاقة عسيرة لا يقدر عليها إلا من هانت في نظره المتاعب والمشاق .

وكان التحرك يخضع لعوامل ثلاثة . .

**أولها :** ضرورة الوصول إلى موقع التجمع في حالة نفسية طيبة وفي ظروف ملائمة دون أن يقع أجهاد على الجيش ، حتى إذا ما وصل كان في إمكانه أن يأخذ دوره في المعركة .

**ثانيها :** ضرورة تقدير قيمة الوقت وهذا يعنى ضرورة استخدام أقصر الطرق وأكثرها أمنا .

**ثالثها :** ضرورة تجنب أى قتال يجهد القوات أو يؤخر وصولها أو يعوق سيرها أو ينزل بها الخسائر .

**والعامل الأخير يسمى في حروب اليوم بـ « المحافظة على الغرض »**

بمعنى أن يواظب القائد على الوصول إلى غرضه الرئيسي جاهزا للقتل جامعا لكل قوته وجهده ، متجاهلا أية أغراض أخرى تظهر له على الطريق ، تبعده عن هدفه أو تضر به أو تؤخر وصوله .

في ظل هذه العوامل بدأ التحرك على طريق الجيرة — دومة الجندل . . . . .  
سأل خالد الأدلاء « كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء الروم فيأتني أن أبيتقبتها  
حبستني عن أعين المسلمين » قالوا له « لا نعرفه » لا طريقا لا يحمل الجيوش ،  
أنما يأخذ الفذ الراكب فيأكل أن تغرر بالمسلمين . » .

الطريق اذن شاق وعمر مجهد ، والأدلاء يحفرونه ، ويخشون على  
المسلمين منه ، ولكن خالدًا ضرب بأقوالهم عرض الحائط ، وقرر أن يركب  
الطريق ، مهما كانت ظروف التحرك .

وجاءه رافع بن عميرة وقال « أنك لن تطيق ذلك بالخيل والاتصال ،  
والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها الا مغرور ، أنها لخمس  
ليال جباد ، لا يصاب فيها ماء مع مضلتها » ، فقال له خالد « ويحك !! انه  
والله لا بد من ذلك ، انه قد اتتني عزيمة ، فمر بأمرك . » .

وأحس خالد أن الناس تحت قيادته يخشون الطريق بعد كل ما سمعوه ،  
وأنهم يتهيبونه احسباسب منهم أنهم مقبلون على مغامرة جريئة لا يعرفون  
نهايتها ، فقام اليوم يقوى إيمانهم ، ويحثهم بهمهم ، ويثير بطولتهم وقال « لا يخلفن  
هديكم ، ولا يضعفن يمينكم » وأعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية ، والأجر  
على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكثر بشيء يقع فيه مع  
معونة الله له . » .

ترى هل هناك إيمان أقوى وأرسخ من هذا الإيمان ؟

الطريق شيق صعب مجهول لا ماء فيه . . . . . يجهد الناس ويجهد الخيل . . . . .  
والناس في خوف على أنفسهم وعلى خيلهم . . . . . ولكنه منطلق البطل يعيد  
الهدوء ويزيل الخوف ويقوى النفوس . . . . . فلا ينبغي لمسلم يسعى في سبيل الله  
أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله . . . . . ولا بد للمسلم الحق من أن يتحمل  
المشاق وأن يجتاز العقبات وأن يصبر عند الشدة . . . . .

ولم يجد المسلمون أمام منطق قائدهم سوى الاستجابة له فساروا معه  
وهم يقولون « أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فثباتك » .

( م ٩ — شخصيات عسكرية اسلامية )

ونصح رافع الناس « استكثروا من الماء ، من استطاع منكم أن يصير  
أذن ناقته على ماء فليفعل ، فائها المهلك إلا ما دفع الله » ، ثم قال لخالد  
« ابغنى عشرين جزورا عظاما سمنا مسان » ، فأتاه بهن ، فعمد اليهن  
فظلأهن ، حتى إذا أجهدهن العطش أوردهن ، فشربن حتى إذا تملأن ، عمد  
اليهن فقطع مشرفهن ، ثم كمهن لثلا يجترن .»

وبدا السير الرهيب .»

وام تكن لتغيب عن ذهن خالد القائد الملهم خلال التحرك أهمية الشئون  
الإدارية ، فكان كلما نزل منزلا اقتطع أربعا من الجزر ، وأخذ ما في أكراشها  
ومزجه بما كان من الألبان فبسسياه الخيل ، ثم يشرب الناس مما حملوا  
معهم من الماء .

وام تكن تغيب عن ذهن خالد القائد الملهم خلال التحرك ضرورة معالجة  
نفسية المحاربين المتقدمين على الطريق الشاق ، فبعد مسيرة أربعة أيام  
خشى خالد أن يفزع أصحابه حر الشمس وأراد أن يطمئنهم فسأل رافع « ويحك  
يا رافع ما عندك ؟ » قال « خير ، أدركت الرى ان شاء الله » ولما اقترب الركب  
من مكان يعرفه رافع صاح فى الناس « أنظروا ، هل ترون شجرة من عوسج  
كقعدة الرجل ؟ » قالوا « لا نراها » ، فقال « أنا الله وأنا اليه راجعون ، هلكنم  
والله اذن ، وهاكنا لا أبا لكم ، انظروا » . وتطلع المسلمون فى كل اتجاه يبحثون  
عن الشجرة حتى وجدوها ، فكبروا وهللوا ، وقال رافع « احفروا فى أصلها » ،  
محفروا ، فثبع الماء غزيرا فشربوا وسقوا الخيل .»

هذا التحرك العظيم كان مغامرة جريئة لا يتقوى عليها إلا البطولات ،  
ولا تأتيتها إلا العبقریات ، وما كان لها أن تتم لولا أن خالد بن الوليد هو  
الذى كان على رأس الناس . . لقد تلقى أمر الخليفة بالتحرك الى مواقع  
المسلمين فى الشام ، وكان لابد أن يأتى الشام عن طريق يصله بالمسلمين  
ولا يخول بينه وبينهم .

ولما عثر على الطريق وجد فيه أعظم المخاطر وأشد العقوبات ، ولما  
أراد أن يستعين بالإدلاء حذروه وخوفوه على نفسه وعلى جيشه ، فالطريق  
لو ركبته راكبة فذل لكن غرورا منه بنفسه ، فكيف تجتازه جافل معها  
أحمالها وأثقالها . . والطريق لا ماء به ، والجيش لا يتحمل مسيرة خمسة أيام  
دون ماء . . هذا فوق أن سلوك الطريق فيه خطورة وعناء ويحتاج الى صبر  
وجلد ، ولكن خلاذا كان له هدف وغاية ، والغاية دائما تبرر الوسيلة ،



## - ١٣١ -

والوسيلة مديئة بالصعاب والمتاعب والعقبات ، ولكن متى خضعت ارادته لمثل هذه الأمور .. ليسلك اذن الطريق ، وليكن بعد ذلك ما يكون .... واستجاب له الجند ايما بقوله « ان المسلم لا ينبغي له ان يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله له » .

وثمة صعوبة اخرى واجهت خالدا خلال التحرك .. فقد كان على الطريق اعداء له ، وكان لابد من ان يلتاقهم ويحاربهم ، واجبه اول ما واجه اهل تدمر فحاصرهم وخشي ان يطول الحصار وان ينسبه واجبه الاول ، فقرر ان يرفع الحصار على ان يعود اليهم مرة اخرى ... ، « ثم لا ارجل عنكم حتى اقتل مقاتلكم واسبي ذراريكم » ، فبعثوا اليه وصالحوه .

وعن سراقته بن عبد الأعلى ان خالدا مر على حوران فأغار عليهم ، واستاق أموالهم وقتل الرجال ، ثم واجه مددين كلنا على الطريق من بعلبك وبصرى اليها ، فحمل على مدد بعلبك فانهزموا ودخلوا المدينة ، ثم حل على مدد بصرى فهزمهم ودخلوا المدينة ، ثم عاد هو الى المدينة فصالحه أهلها .. يقول في ذلك عمرو بن محسن « والله لخرجنا اليهم بعد ما جاءنا مدد أهل بعلبك وأهل بصرى بيوم ، وانا لأكثر من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم ، فما هو الا ان دنونا منهم فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأسد ، فانهزمنا أقيح الهزيمة ، وقتلونا شر مقتلة .. فما عدنا نخرج اليهم حتى صالحناهم » .

واخيرا ...

وصل التحرك الى نهايته .. الى اليرموك حيث احتشدت قوات الروم .

### \* \* \*

وقبل ان نختم حديثنا عن هذا التحرك العظيم ، نود ان نشير الى ان هذا التحرك يشبه تماما تحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا الى تبوك .

فمسيره رسول الله كانت لمحاربة الروم فوق أرضهم ، وكذلك كانت مسيرة خالد . ففي رجب من السنة التسعة ، أمر رسول الله بالتهيؤ لحرب الروم ، وكانوا قد أعدوا العدة لحرب رسول الله ، ذلك أنهم بعد غزوة مؤتة ، رأوا ان الدين الجديد يغزو النفوس بأحكامه ، ويفزو البلاد برجاله ، فقررروا ان يستعدوا لغزو المسلمين ، وما كل للنبي ان يتركهم ، حتى يغزوه في داره ..

ومسيره رسول الله الى تبوك تمت في وقت جرح شديد ، حتى انه عليه

## - ١٢٢ -

السلام — وما كان يبين للناس اتجاهه اذا خرج لحرب — ابلغ الناس بخروجه ووجهته ، وذلك يرجع الى بعد الشتاء وعظم المهمة ، وليستعد الناس لنوع من الجهاد شاق ومرير ، في وقت شديد غليظ ، اذ كان عليهم أن يقطعوا الصحراء من المدينة الى حدود الشام في وقت شديد الحرارة ، وفي منطقة يقل فيها الماء ،

ولقد أصاب الناس خلال التحرك الجهد والتعب ، كما أصابهم عطش شديد ، وروت كتب السيرة أن الجيش تعرض لريح شديدة كانت خطرا على أفرادهم ، حتى أن رسول الله أمر رجاله أن يشد كل منهم عقلا بغيره ، وألا يخرج أحدهم الا ومعه آخر .

وأطلق على هذا الجيش اسم « جيش العسرة » ، ووصف عمر بن الخطاب ما لاقاه الجيش أثناء التحرك فقال « خرجنا في حر شديد ، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش ، حتى أن الرجل ليجتز بغيره ، فيعصر فرثه ، فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده » .

وتغلب رجال محمد على كل المشاق بالصبر والجلد والايمن والعزيمة والقدرة والصبور وقوة الارادة ... وبهذه الصفات أيضا غزا خالد بن الوليد بجيشه الصحراء من العراق الى اليرموك .

وهذا النوع من التحرك يمكن أن نطلق عليه ما يسمى في العصر الحديث « بالتكتيك العنيف » ، وهو نوع من التدريب تحرض القيادات على أن تمارسه القوات ، فتتدرب على التحرك في ظروف قاسية وتحت أجواء مختلفة حتى تتعود على تهر الطرق الشاقة التي قد تواجهها خلال التحرك ، وعلى قهر الظروف الجوية التي قد تتعرض لها أثناء المعركة ، والاسلام في ذلك سبق لكل الأفكار العسكرية الحديثة .

### خالد ومونتجمري

هناك شبه كبير بين خالد بن الوليد ومونتجمري .

ويبدو الشبه كبيرا في موقعتي اليرموك والعلمين .

لقد سارت الأمور في المعركتين تقريبا على وتيرة واحدة وبأسلوب واحد وبتكتيك واحد ، رغم اختلاف العدد والسلاح . فالمعركة لا تقاس بعدد المقاتلين ونوعية السلاح وكميته ، ولكنها توزن بالأفكار التي سيطرت عليها ووجهت أحداثها ، كما أن العبرة في المعركة ليست بأشكالها وأحجامها وظواهرها ، وإنما العبرة بالأساسي والنظم والأفكار .

## - ١٣٣ -

في العلمين تسلم مونجمرى قيادة الجيش الثامن بعد أن تكبد خسائر فادحة في معارك متصلة خلال سنوات ثلاث كان يتولى قيادته أثناءها كلنجهام ثم ريتشى ثم أوكتك ، وانحطت روحه المعنوية ، وأصبح جنده على مختلف مستوياتهم يفزعون كلما ذكر اسم روميل ثعلب الصحراء ، وأصبحوا لا يعرفون من أحداث الحرب الا كلمة الانسحاب . وخاصة بعد الخسائر الفادحة التى لحقت بدبابات الجيش في الكمين الذى أعده روميل عند جسر الفرسان في يونيو ١٩٤٢ .

كانت المهمة الملقاة على عاتق مونجمرى مهمة خطيرة يتوقف عليها تاريخ الامبراطورية البريطانية وشرفها . كان لا يواجه في هذه المعركة جيش روميل وحده ، ولكنه كان يواجه ألمانيا كلها . كان يرى في هزيمته أقولا لنجم امبراطوريته ، وزوال الأمل عريضة ضاربة في التاريخ ، ولهذا فقد كان أول أمر عمليات يصدره مونجمرى هو « ان الجيش الثامن سيحارب عدوه في نفس البقعة التى هو فيها الآن ، وأنه لا انسحاب ولا تسليم بعد اليوم »

اهتم مونجمرى أول ما اهتم بمعنويات جنده فعالجها بطرق مختلفة وبوسائل متعددة حتى أنه قال في مذكراته « لقد كان الجيش الثامن عائلة سعيدة . فقد تقدم من العلمين الى منتصف ايطاليا دون أن يفقد معركة واحدة أو حتى عملية واحدة ، ودون أن ينسحب ياردة واحدة ، وكتيجة لذلك احتفظ بدرجة عالية جدا من الروح المعنوية ، وكان لرجاله كمل استتة في أنفسهم وفي قوادهم ، وعلموا أنهم محاربون من الطراز الأول ، ونظر كل منهم الى نفسه نظرة الامبراطور . »

كان لا يمل الحديث الى جنده في كل مكان وفي كل مناسبة ، وكان يجعل من كل فرد في الجيش شريكا له في خطته وهى هزيمة روميل وتحطيم جيشه . كان يؤمن ايما راسخا بدور الجند في المعركة ولهذا ذكر في مذكراته عن حرب الصحراء « . . المفروض في الجنرالات أن يكسبوا الحرب وملاهم الخام الأولى هى الرجال ، فالمعارك تكسب أولا وبصفة رئيسية في قلوب الرجال . فان النصر يعتمد على تدريبيهم وعلى شجاعتهم وعلى تصميمهم على النصر أو الموت . »

واهتم مونجمرى بالحشد فأعاد تنظيم قوات الجيش ورتبها وطلب من القيادة العليا لجيوش الحلفاء المدد فأمدته بعدد كبير من الدبابات الشيرمان فلما تم التجمع المطلوب قسم الجيش الى فيالق ، والفيلق الى فرق والفرقة الى وحدات . كان لديه ثلاثة فيلق ( الفيلق ٣٠ ، ١٣ ، ١٠ ) ، وثان فرق ، وحدد لكل فيلق قطاع عمله وأهداف فرقه ومحاور التحرك ، وكانت خطته

## - ١٣٤ -

تقضى بتعاون الفياق كلها تعاوناً كاملاً .. قال « كانت سياستى هى انشاء الجيش على ثلاث دلائل رئيسية هى القيادة والامداد والتدريب .. كنت مطمئناً من ناحية القيادة ، فقد كان قادتي المرعوسين من الطراز الجيد ، وكنت اثق بهم ثقة تامة .. وكل من موقف المهمات والعتاد يتحسن بسرعة .. وكان على أن أجهز للمعركة القادمة بطريقة تكفل للقوات امكان أداء كل ما يطلب منها .. » .

ونجح موثجهرى ونال النصر الذى كان ينشده فى العلمين ومنيت قوات المحور بهزيمة منكرة أفقدتها ميدان القتال فى أفريقيا كلها ...

أما القائد العربى خالد بن الوليد فقد كان عليه أن يخوض غمار معركة ضد الروم .. وكان هذا اللقاء هو ثالث لقاء للمسلمين مع أهل الشام .. فى المرة الأولى انتصر الروم فى مؤتة .. وفى الثانية لم يحدث صدام عند تبوك .. وهذه هى المرة الثالثة ..

وكان خالد وهو يخوض المعركة ينظر الى مستقبل أمته والى تاريخها، ويتطلع بشوق الى نصر ينسب للمسلمين هزيمتهم أمام الروم أول مرة .. كان يرى فى انتصاره فتحاً للباب على آخره أمام المسلمين .. وكان يرى فى هزيمته شراً لا يعرف أحد ما يترتب عليه من نتائج خطيرة .

ولنبداً قصة اليرموك من البداية ..

**فى هذه المعركة كان الحشد هو أهم ما يشغل بال القائد الأعلى للقوات ..**

فقد كان أبو بكر قد عزم على مواجهة الروم فى بلادهم ، فبعث اليهم بالوية بلغ عدد كل منها ثلاثة آلاف ، ثم توالى النجيدات حتى وصل عدد كل لواء الى سبعة آلاف .. كان قد استقدم عمرو بن العاص من عمان ، « قد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك ، الا أن يكون الذى أنت فيه أحب اليك » ... ، ثم ولى يزيد بن أبى سفيان إمارة لواء « انى قد وليتك الأبلوك وأجريك وأخرجك ، فان أحسنرت رددتك الى عملك وزدتك » وعقد لربيعة بن عامر بن لؤى « أنت مع يزيد بن أبى سفيان لا تعصه ولا تخالفه » ، ودفع بلواء الى شرحبيل بن حسنة « أنت أحد أمرائى ، فاذا سار يزيد بن أبى سفيان فأقم ثلاثاً ثم تيسر للمسير » وأسندت قيادة القوات الى أبى عبيدة بن الجراح أمين الأمة .

وتحركت الألوية الى بلاد الشام ، ونزل كل جيش فى مكان يشرف منه

على الروم ، ويقول هاشم بن عتبة بن أبي وقاص « لما مضت جنود أبي بكر إلى الشام ، بلغ ذلك هرقل ملك الروم ، وهو في فلسطين ، وقيل له ، لقد انتك العرب وجمعت لك جموعا عظيمة ، وهم يزعمون أن نبيهم الذي بعث اليهم أخبرهم أنهم يظهرون على أهل هذه البلاد ، وقد جاعوك وهم لا يشكون أن هذا يكون ، وجاعوك بأبنائهم ونسائهم تصديقا لمقالة نبيهم ، يقولون : لو دخلناها وافتتحناها نزلنا بأولادنا ونسائنا » .. فقال هرقل « ذلك أشد لشوكتهم إذا قاتل القوم على تصديق ، فما أشد على من كلبهم أن يزيلهم أو يصددهم » .

وجمع هرقل قومه وقال لهم « أرى من الرأي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم وأن تصالحوهم ، فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجتة الشام ، وتأخذوا نصفه ، وتقر لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ، ويشاركوكم في جبال الروم » ..

وعارضه رجاله ووقفوا في وجهه وقرروا منزلة الجيوش الاسلامية ، فنزل على رأيهم وكون ثلاثة جيوش بلغ عددها أربعين ومائتي ألف ، تولى قيادتها خبرة رجائه تيودريك ونسطوس الدراقصى وجرجة .. وكان مقر قيادته في حمص .

وتشاور المسلمون في أمر أنفسهم ، وقد أزعجتهم هذه الكثرة في جانب العدو ، فقال لهم عمرو بن العاص « ان الرأي الاجتماع ، وذلك أن مثلنا اذا اجتمع لم يغلب من قلة » .. وجاءتهم تعليمات أبي بكر الصديق مطابقة لرأي عمرو ، قال « اجتمعوا عسكريا واحدا والثوا زحف المشركين بزحفكم ، فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة عليها بذنوبهم ، فاحترسوا من الذنوب ، والله ناصركم » .

تجمعت قوات المسلمين على شاطئ اليرموك الأيسر .

وتجمعت قوات الروم على الشاطئ الأيمن لليرموك .

وانتظر الفريقان لحظة الصدام ..

وكان أبو بكر في المدينة يفكر في أمر هذه الحرب ، فجمع رجاله وتناقش معهم ، وتم الاتفاق على ضرورة توحيد القيادة الاسلامية في جبهة السلم فبتولاها رجل جسور قوى ، لا يعرف في الحرب هودة أو احجلا ، ولا يهاب الموت .

— ١٣٦ —

ولكن من يكون هذا الرجل ؟ ..

أبو عبيدة .. انه رقيق القلب .

عمرو .. انه رجل هيب .

عكرمة .. تعوزه دقة التقدير .

اذن من يكون القائد ؟ . وتباحث الناس .. وعرضت أسماء رفضها أبو بكر لأنها لا تصل الى مستوى هذه المعركة في أهميتها وخطورتها .  
وأخيرا قفز اسم خالد بن الوليد .

وعرض أبو بكر على أصحابه قائلا « خالد لها .. والله الأنسين الروم وسلوس الشيطان بخالد بن الوليد » . وقبل الناس ووافقتوا .

ووصل خالد من العراق الى اليرموك .. وأخذ يدرس الموقف ويضع ترتيبات المعركة .. رأى الوية المسلمين مستقلة ، كل لواء على حدة ، يتلقى أوامره من أميره ، وكانت خطة عمل كل لواء مستقلة عن خطة اللوآت الأخرى ، فلا تناسق بينها ولا تعاون .

ورأى خالد بصدق فكره العسكري أن هذا وضع لا يتفق ومتطلبات المعركة ، وأن الواجب أن يلم الشمل تحت قيادة واحدة ، تصدر الأوامر وتعد الخطة ، واللواآت كلها تنفذ وتعمل وتحرك في نطاق خطة واحدة وقيادة واحدة تيسر التعاون والاتحاد بينها .. **تاهما كما فعل مونجهرى فى العلمين** فقد جعل همه الأول حشد الحشود فى مواجهة العدو على أن تعمل جميع القوات طبقا للخطة العامة التى وضعها وفى حدود الواجبات والأهداف المرسومة .

دعا خالد الأمراء الى اجتماع ينلقشون فيه الموقف وقال لهم « هل لكم يا معشر الرؤساء فى أمر يعز الله به الدين ، ولا يدخل عليكم معه ولا منه نقيصة ولا مكروه ؟ » قالوا « نعم » قال « أن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا اليبغى .. أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فهذا يوم له ما بعده .. **لا تقاوتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم على تسائد وانتشار** ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وإن من وراءكم لو يعظم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبه » .

وتسأل الأمراء « فما الرأى ؟ » ، فأجلبهم « أن أبا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى أننا سننتاير ، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم ، ان الذى أنتم فيه

أشد على المسلمين ما قد غشيه وأنفع للمشركون من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله ، الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقصه منه ان دان لغيره من الأمراء ، ولا يزيده عليه ان دانوا له .. ان تأمر بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله .. هلموا ، فان هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده ، ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وان هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلتعلموا الامارة ، فليكن بعضنا اليوم والآخر غدا ، والآخر بعد غد ، حتى تتأمرؤا كلكم ، ودعوني أتامر اليوم » .

**اذن فخالد في أول مراحل المعركة كان يفكر في القيادة .. ذات التفكير الذي تسفل مونتجيري عند معركة العلمين .. اطمأن مونتجيري الى القيادة .. وبذل خالد جهده حتى تكون القيادة في المستوى الذي يبعث بالطمأنينة ..**

راى خالد أن تكون القيادة ممثلة في شخص واحد ، لأن تعددها يسئ الى الموقف العام ويضر به ويفسده .. ورأى أن تجتمع الاولوية كلها في نطاق خطة واحدة موحدة ، يعمل الجميع في ضوئها وحدودها ، فذلك يعز الجيش ويقويه ويدعمه أمام عدو يفوقه عددا وعدة ، واستعدادا وعلما بالحرب واساليبها .

**وبذاك كان هدف خالد قبل خوض غمار المعركة اعداد الحشد العسكري اللازم للقوات حتى تكون مستعدة متوثبة قادرة ..**

واستجاب قادة الاولوية وأقروا خالدا على رأيه ، فتولى قيادة الجيش .

كان خالد قد عرف — خلال فترة اقامته بالشام وقبل توليه القيادة — من أسرار قيادة الروم ما طوع لعبقريته أن ترسم الخطة للملاقاتهم والظفر بهم .

### **بدأ أولا في اعداد الجيش للمعركة**

فقسم الجيش الى فرق سميت بالكراديس ( جمع كردوس وهى كلمة يونانية معناها الكتلة أو الكتبية ) ، وكان كل كردوس من ألف رجل ، عليه رجل من المسلمين الاقوياء أمثال القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل وعياض ابن غنم وعبد الرحمن بن خالد .. قال خالد لأصحابه « .. ان عدوكم قد كثر وطغى ، وليس أكثر في رأى العين من الكراديس » .

وأُسند قيادة كراديس القلب الى أبى عبيدة ، وكراديس المينة الى عمرو

## — ١٣٨ —

ابن العاص ، وكراديس الميسرة الى يزيد بن ابي سفيان ، وجعل للجيش مقدمة تولاهما قبات بن أشيم .

وجعل أيضا مع الجيش قاضيا هو أبو الدرداء ، وقارئاً هو المقداد بن الأسود ، وصاحب أقباض هو عبد الله بن مسعود ، وواعظاً هو أبو سفيان .

هكذا أمد خالد جيشه لمواجهة الروم في حشد عسكري كبير لم يشهده المسلمون من قبل إيماناً منه بأهمية الحشد كمبدأ من أهم مبادئ الحرب ، وبذلك يكون قد سبق غيره من القادة في ادراك قيمة هذا المبدأ الذي قال فيه جولتز « تتضمن الخطط الحربية لجميع الدول الحديثة قبل اشتباك قواتها بقوات العدو القيام بعمليتين هما التعبئة والحشد » .

وكما اطمأن موننجمرى الى قاداته المرعوسين كفاءة وصلاحيات ، فقد اطمأن خالد أيضا الى القادة على مختلف المستويات واختارهم بنفسه ثقة واملأ ورجاء .

العامل الآخر الهام الذى التقى عنده القائدان هو اعداد/ نفسية المحارب لمواجهة عدوه ولتقبل أحداث المعركة .

ولقد نجح موننجمرى في تحقيق هذا العامل وفي اصلاح نفسية جنده ، وإزال من تفكيرهم أسطورة الجندى الألماني الذى لا يقهر ، والذى يحمل النصر ملء يديه ، ووضع في ذهن كل جندى أنه يدافع عن شرف أمته وتاريخها .

ونجح خالد في هذا المجال أيضا ، وكان له فيه قصب السبق ، فقد أثار روح القتال عند المسلمين ، وأنساهم ذكرى الهزيمة المرة في مؤتة ، وأعاد لهم ثقتهم في أنفسهم ، فأصبح الواحد منهم مشتتاً الى لقاء الروم للقضاء عليهم وإزالة دولتهم . . وكان أبو سفيان دائم المرور بين الكراديس يخاطب الناس « الله ، انكم ذادة العرب وأنصار الاسلام ، وانهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم ان هذا اليوم من أيامك ، أنزل نصرك على عبادك »

سمع خالد رجلا من المسلمين — رأى ما عليه الروم من الكثافة والعدة فقد كانوا في كثرة تزيد على خمسة أضعافهم — يقول « ما أكثر الروم وأقل المسلمين » ، فغضب لقوله لأنه لا يعبر عن الفكر العسكرى السليم الذى يرى أن النصر في المعركة لا يرتبط بعدد بقدر ارتباطه بعوامل أخرى ذات أهمية كبيرة تفوق أهمية العدد . . قال خالد له غاضباً « بل ، ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، انما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال ،



## - ١٢٩ -

والله لوددت أن الأشقر ( يقصد فرسه ) براء من توجيهه ( يقصد حفاءه من شدة المشي ) ، وأنهم أضعفوا ضعفهم » ، وأثار خالد بهذا القول حماس الجند ، والهب نفوسهم ، وأيقظ فيهم الشوق إلى الاستشهاد .

ولم يقصر خالد جهده على رفع معنويات جنده فقط ، وإنما أراد أيضا أن يحطم هذه الروح عند عدوه ، فانتهاز فرصة لقائه مع قائد منهم هو جرجة وحدثه عن الاسلام حديثا شرح صدره له .

يا خالد ، أخبرني الام تدمون ؟

— إلى شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والافتراق بما جاء به من عند الله .

— فمن لم يجيبكم ؟

— فالجزية ونمنعهم .

— فإن لم يعطها ؟

— نؤذنه بحرب ثم نقاتله .

ولا شك في أن انحياز جرجة وهو قائد أحد جيوش الروم إلى صفوف المسلمين كانت له آثار معنوية على الطرفين . . ففى الوقت الذى سعد به المسلمون واعتبروا اسلامه تافؤلا ، فى هذا الوقت اهتزت اعصاب الروم وانهارت معنوياتهم ، واعتبروا انحيازه الى المسلمين أمرا سيئا ، وخاصة أنه كان من قاداتهم المشهود لهم بالكفاءة والقدرة والفن العسكرى ، ولقد قاتل جرجة فى صفوف المسلمين وأبلى بلاء حسنا ونال الشهادة .

### ولفئة معنوية أخرى . .

فقد طلب ماهان قائد الروم لقاء خالد ، فلما التقيا قال ماهان « لقد علمنا أنه لم يخرجكم من بلادكم الا الجهد والجوع ، فإن شئتم أعطيت كل واحد منكم عشرة دنائير وكسوة وطعاما وترجعون الى بلادكم ، وفى العام القادم أبعث اليكم بمثلها . . » فقال له خالد « انه لم يخرجنا من بلادنا الجوع كما ذكرت ، ولكننا قوم نشرب الدماء ، وقد علمنا أنه لا دم أشهى ولا أطيب من دم الروم ، فجننا لذلك » . . عرض رخيص تأفه من جانب الروم ولكنه ذو مدلول عميق . . ان قول ماهان يدل دلالة واضحة على أن الروم كانوا يائسين من هذه الحرب ، مقتنعين بنتيجتها ، فهم ان حملوا سلاحهم وحاربوا فهذا مجرد واجب يؤدي دون اقتناع أو ايمان . . ويدل أيضا على أنهم كانوا يخشون اللقاء ويقدرن عواقبه ، فيعرضون الثمن أملا فى السلامة . . وقوم هذه روحهم

لا يكون النصر من نصيبهم أبداً .. ورد خالد فيه قوة ، وفيه استهزاء بالعدو ، ويبدو فيه اصرار على القتال وتصميم على النزال ، بروح تتميز بالرغبة الجادة في الكفاح المرير من أجل كسب المعركة ... وشتان بين معنويات هؤلاء وهؤلاء ...

### ونقطة معنوية هامة أخرى ..

فان خالد بن الوليد أثار روح القتال عند جنده ، فأخذ يذكرهم بغزوات رسول الله ، ويذكرهم بأن بينهم كثيراً من أهل بدر ، ويذكرهم أيضاً بتاريخه فوق أرض فارس ومعاركه ضد الفرس ، ويعددهم بالنصر مصداقاً لقول الله تبارك وتعالى «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، وكانت أحاديث خالد تثير حماسهم وتشعل عندهم الرغبة في القتال أهلاً في النصر أو الشهادة وسرت في قلوب المسلمين قوة لم يكن لهم بمثلها عهد منذ نزلوا الشام .

**وهكذا عالج خالد معنويات جيشه بذات الأسلوب وعلى ذات المستوى الذي عولجت به وعليه معنويات الجيش الثامن قبل معركة العلمين .**

وبعد أن تم الاعداد والتجهيز معنوياً ومادياً .. أصبح الكل مشتاقاً لحمل السلاح ومواجهة الأعداء ، وقد أيقنوا جميعاً أن يوم اللقاء هو يوم الفصل .. يوم من أيام الله تستحب فيه الشهادة ، وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتوهب فيه الحياة لمن حرص على الموت .

وبدأ القتال .

وهاجم الشعاع متقدماً الصفوف وهو يرتجز :

يا ليتنى ألقاك في الطراد

قبل اعتزام الجحفل الورد

وأنت في حلبتك السوراد

وهاجم عكرمة بن أبي جهل وهو يقول « قتلت مع رسول الله في كل موطن ، أفر اليوم من أعداء الله ! » ، ثم أنشد :

قد علمت بهكمة الجوارى

أنى على مكرمة أحلى

ثم نادى أصحابه « من يبيع على الموت ؟ » ، فباعه ضارر بن الأزور

— ١٤٢ —

والحارث بن هشام وعمرو ابنه في أربعمئة من وجوه المسلمين وفرسانهم ،  
واندفعوا جميعا في اتجاه الروم اندفاعا رجل واحد زلزلت الروم زلزلة عظيمة .  
والتحم الناس ، وتطارد الفرسان ، وشن المسلمون هجوما عنيفا ،  
واندفع خالد يهوى بسيفه يخطف الأرواح .

وحى وطيس المعركة ، والكل في موقعه ثابت لا يتراجع ، بينما فر  
الروم داخل بلادهم ، وسقطوا في هاوية الواقوسة وبلغ قتلهم مائة ألف .  
وتمت الهزيمة .

وما أن بلغ خبرها هرقل وهو في حمص حتى فقد الأمل في بقاء الشام تحت  
حكمه ، فارتحل عنها مهموما مدحورا وهو يقول « سلاما عليك يا سوريا . .  
سلاما لا لقاء بعده » .

وصور القعقاع بن عمرو انتصار المسلمين قتل :

الم ترنا على اليرموك فزنا	كما فزنا بأيام العراق
فتحنا قبلها بصرى وكانت	محرمه الجنب لدى التلاقى
قتلنا الروم حتى ما تساوى	على اليرموك مفروق الوراق
فضضنا جمعهم لما استباحوا	على الواقوسة البتر الرقاق
غداة تهافتوا فيها فصاروا	الى أمر تفضل بالذواق

\*\*\*

بعد اليرموك ترك خالد قيادة الجيش ، وعمل تحت قيادة أبي عبيدة  
كجندي من جنود الله ، لم يغمد سيفه ، ولم يضعف يقينه ، وضرب بذلك  
للعسكريين مثلا رائعا في الطاعة ، ممثلا في ذلك بقول الله تبارك وتعالى  
« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

تولى أبو عبيدة القيادة ، وتلقى التعليمات من عمر بن الخطاب نحدد له  
خطر تحرك القوات بعد الانتصار العظيم من اليرموك . . كانت التعليمات  
تقضى بـ « أبدعوا بدمشق فانهضوا لها فانها حصن الشام وبيت مملكتكم ،  
واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم من نحورهم ، فان فتحها الله قبل  
دمشق فذلك الذي نحب ، وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فليزل بدمشق  
من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأبراء حتى تغفروا على فحل ،

فان فتح الله عليكم فائزكم انت و خالد الى حمص ، وضع شرحبيل وعمرا  
بالاردن وفلسطين » .

شارك خالد مشركة ايجالية في فتح دمشق ، وكان من اكثر المقاتلين  
شجاعة وجراة وحلمة ، وكان اعمقهم فهما لمعنى الجهاد في سبيل الله . .  
جهادا خالصا لوجه الله سواء كان في منصب القيادة او جنديا في صفوف  
المقاتلين .

خصص له ابو عبيدة الباب الشرقى ( كان على مقربة من هذا الباب دير  
يسمى دير صليبا اتخذه خالد مقرا له ، ولهذا سسمى من بعد دير خالد ) ،  
مظل في موقعه يقظا منتبها يبتث العيون تأتية بالأخبار حتى علم منها أن بطريق  
المدينة ولد له ولد فرح به وأولم الناس فاكل الجند وشربوا وغفلوا عن  
مواقعهم ، فقرر مهاجمة المدينة من موقعه فجمع جنده وقال لهم « اذا سمعتم  
تكبيرنا من السور فارقوا الينا » .

واستحدث في هذا الهجوم اسلوبا جديدا اذ أعد جبالا على هيئة سلالم  
وأوهاق ربطها القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي في شرف الأسوار وتسلقوها  
وانحدروا من الجانب الآخر أمام البساب ، وقتل خالد الحراس وفتح الباب ثم  
كبر ، فاندفع رجاله الى داخل الحصن ، وتبعهم بلقى القوات .

وكان خالد في محل على مقدمة الجيش وأبلى في هذه الموقعة بلاء حسنا،  
وواجه قوات الروم بقيادة سقلار بن مخراق ، ومقاتلهم أشد قتال ، وأمره  
وطالت المعركة الليل كله واستمرت اليوم الذى يليه الى الليل ، وخالد يذكر  
المسلمين بموقفه القتالى الرائع . . بفعاله في معاركه السابقة ، وبطولاته في  
لقاءاته مع العدو ، حتى خارت قوى الروم وانهزموا وجرح قائدهم سقلار ،  
وما أن بدعوا الهروب من أرض المعركة حتى أمر خالد بمطاردتهم فطاردتهم  
المسلمون وقتلوا منهم ثمانين ألفا .

وكان أيضا على المقدمة في حصار حمص .

وعلى يديه قتل ميناس قائد الروم في قنسرين ، وقيل ان ميناس هذا كان  
اعظم رجل في المملكة بعد هرقل ، وكان قد خرج على رأس جند عظيم للملاقة  
خالد ، الا أنه فوجيء به يهاجمه على غير انتظار بكل قوته ، فلم يستطع البقاء  
بالمدينة فأرسل اليهم خالد « لو كنتم في السحاب ، لحملنا الله اليكم أو أنزلكم  
أمامه ، ولكن للمفاجأة أثرها ، فاضطربيت صفوفهم ، وحاولوا الفرار ولكن

## — ١٤٣ —

خالدا كان قد أخذ عليهم المسالك ، وأمن فيهم قتلا ، ونجح البعض في التحصن بالمدينة فأرسل اليهم خالد « لو كنتم في السحاب ، لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم اليها » ، وبعد مقلومة قليلة طلبوا الصلح فأمر خالد بتخريب المدينة .

\*\*\*

### وأخيرا ..

قضى خالد بقية أيامه بعد عزله في حمص طالت الى أربع سنوات .. ومات بها سنة واحد وعشرين ولم يجاوز الخامسة والخمسين ، ولم يوجد في بيته غير فرسه وغلّامه وسلاح وقفه للجهاد في سبيل الله ... قال عمر عندما بلغه نبأ وفاته « رحم الله أبا سليمان .. كان على غير ما ظنناه به .. كان والله سدادا لنحور العدو ميمون النقيية »

وان خير ما نختتم به هذا البحث عن خالد هو قوله وهو على فراش الموت ، بعد حياة عريضة ملء سمع الدنيا وبصرها « لقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدر لى الا أن أموت على فراشى » . وقوله « ما من عمل أرجى عندى بعد لا اله الا الله ، من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين بتها وأنا متترس ، والسماء تنهل على ، وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفر » .

وكانت آخر كلماته نصيحة مستخلصة من حياته لأصحابه قال لهم : « عليكم بالجهاد » .

استدراك : يستبعد السطر قبل الأخير من صفحة ١٤٢ .



## الشخصية الرابعة

### عمرو بن العاص

« خدعني الرجل انه ادهى الخلق جميعا »  
أرطابون

(م. ١٠) - شخصيات عسكرية اسلامية

## شخصية فريدة

شخصية اسلامية تاريخية .

شخصية رحيمة النواحي فسيحة الجوانب متسعة الافاق .

شخصية تميزت بالتأمل الثاقب والعلم الفزير والاستنباط المحكم .

شخصية جذبت المؤرخين مدنيين وعسكريين ...

كلما اتجه باحث بالدرس تكشفت له نواح جديدة من النبوغ والعبقريّة ، فهو مدرسة فريدة في التاريخ قديمه وحديثه ... تشعبت سبل البحث في تاريخه ودراسة منهاج حياته ، واختلف الباحثون طرقا ، الا انهم اتفقوا على الايمان بعظمته في السلم والحرب ، وبعبقريته في الراى والمشورة ونبوغه في ميادين السياسة ومجالات الحرب .

بطل داهية واسع العقل عميق التفكير بارع الحيلة ، فية فطنة وكياسة وسياسة ، وفيه خبرة بوسائل جذب القلوب وكسب النفوس ، وفيه اعتداد بنفسه ومعرفة لتبعات وظيفته وعمله ، لا يجامل ولا يفرط بل يحرص ويستمسك .

جرىء مقدام يجازف ويخطر ، فية حب للامارة وتشفة بالزعامة ، لا يكتفى بالتمنى في بلوغ ما يريد بل يناضل ويكفح حتى يكسب تقدير اصفياه ، وحسبك ان اربطون الروم وهو قائد جيشهم قل فيه « انة ادهى الخلق جميعا » .

كان فية صبر على المحولة ، وثبات على المنهج ، واستمرار على الطريقة ، ودوام على الراى ، ولو كلفه ذلك جهدا ومشقة ، كان يكره التردد والتراجع ، وبعد التغيير لما اعتاد مما لا يوائم مكارم الاخلاق ، وهو الذى اخبر بانه لن يمل احدا يدوم له حتى دابته لا يملها مهما شابته ما دامت تحمله ، وهو الذى قل : « ان الملل من كواذب الاخلاق » .

وكان فيه ذكاء نادر ، واى ذكاء كذكائه حينما عرض الخليفة عمر ان ياذن له في فتح مصر فاجابه بعد تردد ومراجعة ، واهتبل الفرصة وسارع بجيشه تجاه مصر ، في الوقت الذى تعاود الخليفة الخشية والخيفة ، فيرسل خلفه بكتاب يأمره بالعودة ، اذا كان لم يطأ ارض مصر ، وعند رفح يلتقى بحامل الكتاب ، ويدرك بذكائه مضمون الرسالة ، فيشرع في شغل الرسول بالحديث في امور شتى ، والركب يفذ السير نحو ارض مصر ، فلما وطئها ، تناول الكتاب ونفضه فاذا فيه : « ان ادركك كتابى قبل ان تدخل مصر ، فارجع الي موضعك ، وان كنت قد دخلت فابض لوجهك واعلم اني مهديك » . وتجاهل



«الملك ، وسال : « اين نحن الآن ؟ » فقالوا : « نحن في مصر » ، وهنا تلا كتاب الخليفة على الناس ، ثم أمرهم بالتقدم نحو هدفهم .

وفتح مصر باسم الله وتحت لواء الاسلام ، ووصفها ونيلها المبارك وواديها الأخضر ، ذلك الوصف الأخاذ في التاريخ . . . « مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر » ، يكتنفها جبل أغبر ورملا أعفر ، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجزى بالزيادة والنقصان ، كجري الشمس والقمر له أوان . . بينما هي درة بيضاء ، اذا هي عنبرة سوداء ، واذا هي زبرجدة خضراء ، فتعالى الله الفعال لما يشاء ، الذي يصلح هذه البلاد ، وينميها ، ويثر قاطناتها فيها .

على يديه انتشر في مصر نور الاسلام وضوؤه ، انقذها من مظالم الروم وجبروتهم ، وكان له فيها وفيما جاورها أيام وتاريخ .  
هذا هو عمرو بن العاص .

صاحب الفضل الكبير على العرب وعلى الاسلام . . تميز بصفات جعلته فريدا في قومه . . جمع بين السياسة والقيادة ، ولعب اسمه في مجال السياسة كما لمع في مجال الحرب . . اعتمدت عليه قريش في جاهليتها ، فكان سفيرا الى النجاشي حين هاجر المسلمون الاوائل اليها ، واعتمد عليه المسلمون بعد ان دخل الاسلام وآمن به ، فكان سفيرهم الداعي الى الدين الجديد ، ثم كان جنديهم المظفر حين أسهم في حروب الردة ومعارك فلسطين والشام ، ثم كان أسطورة التاريخ العسكري وعميد الفن الحربي حين تولى قيادة الجيش الاسلامي في مصر وشمال أفريقيا .

وهو فوق كونه سياسيا ممتازا وقائدا عظيما ، كان مصلحا اجتماعيا ومعلما هاديا ، وحاكما عادلا ، جمعت سماته القلوب من حوله ، دفعت به الى أكبر المناصب وأخطرها ، ورفعته الى مستوى الخالدين ، فكانت له في التاريخ صفحات مشرقات .

كان عمرو كتابا ممتازا ، وقارنا متفهما ، كان يجيد الشعر واشتهر بالفصاحة والبلاغة ، وعرفت عنه اقوال ماثورة ، وحكم بليغة ، مثل قوله لمعاوية « ان الكريم يصول اذا جاع ، واللئيم يصول اذا شبع ، فسد خصامة الكريم ، وافتع اللئيم » . . ومثل قوله « أبلغ الناس من كان رايه رادا لهواه ، وأسمى الناس من بذل دنياه في صلاح دينه ، واشجع الناس من رد جهله بجله » ، وكان معروفا بسرعة الرد وحدة الذهن وطول خطبة ، قال عنه ابو الحسن انه كان يتلجلج في الكلام . . وقال عنه ابن حجر « ما رأيت رجلا يعرفه كلام الله معرفته » . .

## - ١٤٨ -

كان عمرو من أصحاب القوة الحيوية فاحتفظ بحضور ذهنه ومضاء عزمه حتى تجاوز التسعين ، كان شديد الاعتزاز بنفسه ، رآه عمر بن الخطاب وهو يمشى فقال « ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميرا » .

وكان ميالا الى الزعامة والقيادة ، طموحا متتبعا لما يراه عقله دون عاطفته .. أوتى من الشجاعة والاقدام وحسن البلاء والعلم والحكمة والحزم والوفاء والعزيمة والدهاء ما لم يجتمع لمثله الا في القليل النادر من مشاهير الرجال ، كان فريدا في عصره نابغة بين قومه ، نابا من أئبياء العرب ، ليثا من ليوثهم ، دعلمة من أقوى دعائمهم ، صادق العزيمة ، قوى الحجة ، ثابت الجنان .

سافر كثيرا في شبابه .. سافر الى الشام والحبشة ومصر وخالط أقواما مختلفين ، فأكسبه ذلك معرفة بأحوال البلاد والعباد ، فارتقى تفكيره وسمت ثقافته واتسعت مداركه وازداد علمه .. شاهد في مصر احتفالا أقامه أهل الاسكندرية ، واجتمع فيه أشرافهم يتبارون بكرة من ذهب ، فكانوا يترامون بها ويتلقونها بأكملهم .. فمن دخت الكرة كمة واستقرت به لا يموت الا اذا ملكهم .. وبينما هم يترامون بالكرة ويتلقونها بأكملهم ، وثمتت في كم عمرو ، فتعجبوا لذلك وقالوا : « ما كذبنا هذه الكرة قط الا هذه المرة » .. وتساءلوا « أترى هذا الأعرابي يملكنا ؟ » .

وصدقت الكرة ولم تكذب ، فقد ملكهم عمرو ، وكان عهده عصرا ذهبيا لم تشهد البلاد عصرا مثله .

### على طريق الهداية

عمرو بن العاص من بنى سهم ، وهؤلاء ينتهون الى كعب بن لؤى ، بطن من بطون قريش ، ذات الشرف والمجد ، كما روى النسابة الكلبي ، كانوا من أصحاب السيادة والسلطان في مكة ، كان لهم باع طويل في ادارة شئون قريش ، كانوا كثرة في العدد وكثرة في المال ، وكانوا أصحاب الحكومة في الجاهلية ، وكثفت لهم الأموال التي كان العرب يجبسونها على الأرياب والمعابد ، وكثروا يفصلون في الخصومات ، واشتهر بالكرم واليسار والأدب والشعر والجاه ..

كان أشهر رجالهم قيس بن عدى الذى ضرب به المثل في العز ، فكان يقال « كأنه في العز قيس بن عدى » ، والحرث بن سعيده الذى عرف بالكرم وقري الضيف ، وعبد الله بن الزبيرى وهو من الشعراء المعدودين وقيل انه كان من أشد شعراء قريش على المسلمين قيل فتح مكة ..

أبوه هو العاص بن وائل .. واحد من سادات قريش وأعيانهم وأشراهم قال فيه عبد الله بن جدعان « انه يعتد بنفسه كان الدنيا لم تخلق الا له » كان من ذوى اليسار ، وأكثر التجار نشاطا خلال رحلتى الشتاء والصيف ، عده المؤرخون من حكام قريش ... أدرك الاسلام ولكنه لم يتقبله ولم يؤمن به ، بل وقف في وجه الدعوة ، وكان عنيفا شديدا في مقاومتها ، واشتهر بطعنه وايدائه لرسول الله وأصحابه ، وانكاره لما يدعون اليه ، ومات في الخامسة والثمانين دون أن يؤمن ، وظل حتى آخر أيامه ينصب الرسول العداء ، ويكيد له في الجهر والخفاء .

وكان عمرو فخورا بأبيه حتى أنه كان يفخر به على الخلفاء ... قال يوما لرسول عمر بن الخطاب اليه « قبح الله زمانا عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عمل ، والله انى لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها ، وما منهما الا من نمرته لا تبلغ رسغيه ، والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباغ مزررا بالذهب » ... ، وقال لعثمان بن عفان حين عزله من ولاية مصر « قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أبك فوالله للعاص كان أشرف من عفان » .

أما أمه فهي سلمى بنت حرمة من بنى عذرة ، أصابتها رماح العرب ، وبيعت في سوق عكاظ ، واشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم عبد الله بن جدعان الذى وهبها للعاص بن وائل .. وجاء في السيرة الحلبية أنه وطئها أربعة هم العاص وأبو لهب وأمية بن خلف وأبو سفيان ، وأنها ولدت عمرا فالحقته بالعاص .. وكان عمرو على قدر اعتزازه بأبيه يخجل من نسبه الى أمه ، فقد كانت نقطة الضعف التى هاجمه منها خصومه ، ولاحقه بذكرها حساده . قالت له أروى بنت الحارث بن عبد المطلب ترد عليه سبه لها وشتمه إياها « ... والله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ولا كريم منصبتها ، ولقد ادعاك خمسة نفر من قريش كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم فقالت : كلهم أتانى ، فانظروا أشبههم به فالحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به » .

وبينما الحياة تسير في الجزيرة على وتيرتها ، وبينما عمرو يعيش حياته بين أهله وعشيرته ، ارتفع صوت رسول الله في أرجاء مكة يدعو القوم الى الدين الجديد ، وأدركت قريش خطورة ما يدعو اليه محمد بن عبد الله ، فشمرت عن مساعدتها ، وجمعت جموعها ، وحملت عبء مناهضة الدعوة ومحاربة الداعى لها والمؤيدين والسايرين في ركابه ، وكان العاص من أشد المعارضين .. وسلك الابن مسلك أبيه ، فعارض الدين الجديد في شدة ، وقاومه في عنف ، حتى أنه كان سفير قريش الى النجاشي ، محذرا إياه من المسلمين المهاجرين الى أرضه ،

ومطالبها بإخراجهم وتسليمهم ، وقد بذل عمرو جهدا كبيرا في محاولة اقناع النجاشي ، ورغم مهارته في الحديث ، وحذقه في الحوار ، ودهائه ، فقد فشل في هذه السفرة .

ورغم كراهيته الشديدة للإسلام ومقاومته له فإنه لم يشارك مشاركة فعالة في الحروب المتعددة التي اشتد أوارها بين قريش والمسلمين ، لم يكن ضمن جيش قريش في بدر ، ورغم أنه خرج مع الخارجيين في أحد والخندق إلا أنه لم يكن له دور يذكر .

كان هناك دافع داخلي يدفعه الى أن يرقب الأحداث ، فلما رأى نصر المسلمين في موقعة اثر موقعة ، وفي لقاء وراء لقاء ، جمع قومه وأشار عليهم أن يلحقوا بالنجاشي يقيمون عنده يرقبون الموقف ، فإذا انتصر الرسول كانوا بعيدين عن يديه ، وإذا انتصرت قريش رجعوا إليها . ذكر الطبري : « قل عمرو : لما انصرفنا مع الأحزاب عند الخندق ، جمعت رجالا من قريش ، كانوا يرون رأيي ويسمعون مني ، فقلت لهم : تعلمون والله اني لأرى أمر محمد يعلو علوا منكرا ، وانى قد رأيت أن تلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فان ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فلما أن نكون تحت يديه أحب الينا من أن نكون تحت يدى محمد ، وان يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلا يأتيها منهم الا خير » .

وذهب عمرو الى الحبشة ، وظل هناك يرقب وينظر ، فلما بلغت أخبار انتصارات المسلمين بدأ يفكر في أمر نفسه وحياته .

وعاد الى مكة وفي نفسه شيء ، فقد آمن بالإسلام دينا وبمحمد رسولا ، واستقر أمره على اعلان اسلامه ، وخاصة بعد أن نصحه النجاشي قائلا « أطعن يا عمرو واتبعه ، فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرن على ما خلفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده » .

وبعد الحديبية ... في العام الثامن الهجرى ... كسب الاسلام عمرو ابن العاص ، فقد اختار الله له طريق التوبة والرحمة ، فهداه الى الاسلام . . . وخرج الى المدينة ، فالتقى في الطريق بخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة الحبشى فقال لهما « ان دين محمد يعلو ودين الأصنام يهوى ، وقد ظللنا طويلا في بهتاننا حتى أذن الله ، وكم أنا نادم على هذا التأخير ولا أدري كيف أقابل رسول الله بعد ما قدمت » ، وقال أيضا « قد وقع في نفسي أن ما يقول محمد عن البعث حق » ، ثم أردف « لا خير من التمدلى في الباطل » .

واستقبله رسول الله وقبل منه اسلامه ، فقال للرسول « يا رسول الله ، انى أباليك على أن يغفر الله لى ما تقدم من ذنبى » ، فطمأنه رسول الله ، وقال

## - (الفصل الثاني) -

له « ان الاسلام يجيب ما قيله » . . . وكان سعيدا غاية السعادة باستقبال الرسول له حتى انه كان يظهر تدمه لتأخره في اتخاذ هذه الخطوة ، وقتل في ذلك « . . . ثم قدمت فو الله ما هو الا ان جلست بين يديه صلى الله عليه وسلم ، وما استطعت ان ارفع طرفي حياء منه . . . ولو سئلت ان ائعته ما استطعت لأني لم أكن أقدر ان أملا عيني منه إجلالا له . »

ولكن الذي يثير الانتباه هنا هو كيف تأخر عمرو عن الاسلام ، وهو هو الذي نعرف عنه الحكمة والعلم والدراية وحسن التقدير . . . انه يفسر هذا الموقف بنفسه . . . كان أبوه شديدا على الاسلام والمسلمين ، وكان هو من المعتدلين الى حد ما في معارضة الدين الجديد ، ولكنه كان يخشى شدة أبيه وشدة قومه ، فأخفى مشاعره وظل يرقب الموقف .

وسئل في ذلك « ما أبطأ بك عن الاسلام وانت في عقلك ؟ » ، فأجاب « انا كنا في قوم توازن حلومهم الجبال ، ما سلخوا فجاء فتتبعناهم الا وجدناه سهلا ، فلما أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم ، ولم نفكر في أمرنا وقتلناهم ، فلما ذهبوا و صار الأمر إلينا ، نظرنا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتدبرناه ، فاذا الأمر بين ، فوقع في قلبى الاسلام . »

وسأل عمر بن الخطاب عمراً « لقد عجبت لك في ذهرك وعقلك ، كيف لم تكن من المهاجرين الأولين ؟ » ، فقال له عمرو « وما أعجبت يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستطيع التخلص منه الا ما أراد الذي هو بيده » ، فقال له « صدقت »

المهم هو أنه دخل الاسلام عن ايمان ، فكان اعلان اسلامه قلما على أساس من رضا العقل وراحة الضمير وايمان القلب . . رشحه مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لبيعة يفتن منها كثيرا فقال لرسول الله « ما أسلمت من أجل المسال بل أسلمت رغبة في الاسلام » .

وكان أول عمل لعمرو بعد أن أعلن اسلامه تحركه بسرية الى سواح حيث كان هناك صنم لهذيل على بعد ثلاثة أميال من مكة ، كانوا يحجون اليه ويعبدونه ويقضون عتده النذور . . . أرسله رسول الله لهدم سواح ، وروى عمرو قصة خروجه فقال « . . . فلتتهيت الى ذلك الصنم ، وعنده سلأته ، فقال لى : ما تريد ؟ قلت : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه ، قل : لا تقدر ، قلت : لم ؟ قل : تمنع ، قلت : حتى الآن أنت على الباطل ، ويحك !! وهل يسمع أو يبصر حتى يمنعنى . . ودنوت منه فكسرتة ، وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزائنه ، فلم نجد فيها شيئا ، ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ قل : أسلمت لرب العالمين »

أسلم عمرو عن يمين واقتناع وعقيدة ، بعد أن دخل الإسلام قلبه وعقله وفكره ، ولهذا كان من أكثر الناس علماً بشئون الدين ، وأقبالاً على دراسته ، للوقوف على تعاليمه ومختلف آرائه ومبادئه وأصوله وأوامره ونواهيه .

\*\*\*

أكبر رسول الله عليه وتفقهه ، فبعث به إلى مملكة عمان دون جيش ودون سلاح ، لم يكن معه سوى كتاب من رسول الله إلى الأخوين جيفر وعباد يدعوها إلى الإسلام ، وكانا وأهل المملكة يعبدون النار . ولم يشأ عمرو أن يعرض الكتاب وأن يكشف عن الهدف بمجرد وصوله إلى هناك ، فهو صاحب فكر سياسى قدير يحسن التصرف ويجيد معالجة الأمور ، لهذا رأى أن يدرس عن قرب شخصية الأخوين حتى يجد الأسلوب العلمى لاقتناعهما ، وعرف أن الملك عباد الصغير أكثر حِلماً من أخيه وأرق خلقاً ، وأن الأخ الأكبر أحرض على الملك .

ومن هذه المعلومة بدأ عمرو مهمته مع عباد ، فعرض عليه الإسلام ، وشرح له أصوله ، وأوضح له أبعاده ، وأبان له أنه دين الدنيا والآخرة ، فيه سعادة الدارين ، ثم عرض عليه « إذا أسلمت أبت وأخوك ظللتما على ملككما وسلطانكما تنفذان فيه أمر الله فتنتصران المظلوم وتعينان الضعيف وتأخذان من الفنى حق الفقير ... أسلم يؤتك الله ثواب الدنيا والآخرة » .

ونجح معه وأقنعه ، حتى عرض أن يرافقه إلى حيث أخوه ومهد له الطريق ويسر عرض الرسالة « أرى أن أذهب معك إلى أخى لنقرأ عليه كتابك ثم تسمع رده وتتصرف بلبائتك وذكائك ، وأنا من خلفك أعينك وأدفعه إلى قبول دعوتك ، وأرجو أن يأذن الله له بالإسلام ويشرح قلبه للإيمان » .

وكسب عمرو الجولة الثانية فقد أسلم الأخوان ، وأسلم معهما قومهما ، وبقي عمرو معهم ينشر بينهم نور الله ويقرئهم كتابه ، يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين .

### الأمن وسلامة القوات

بدأت عبقرية عمرو العسكرية وتميزه الحربى يتضحان في أول عمل عسكري ولاه إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فبعد إسلامه وفي جمادى الآخرة سنة ثمان هجرية ولاه الرسول قيادة سرية إلى بلاد بلى ( قبيلة تنسب إلى بلى بن عمرو بن قضاة ) ، وعذرة ( قبيلة تنسب إلى عذرة بن سعد بن قضاة ) ، وتقع وراء وادى ذات القرى ، بينها وبين المدينة عشرة أيام .

## - ١٥٣ -

قال عمرو « بعث الى رسول الله يأمرنى أن آخذ ثيابى وسلاحى فقال : يا عمرو اى اريد أن أبعثك على جيش فيفتك الله وبسلك » . وعقد رسول الله له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء . وكان قوام السرية ثلاثمائة من سراد المهاجرين والانصار ومعهم ثلاثون فارسا .

خاص عمرو بهذه السرية معركة عرفت فى التاريخ باسم ذات السلاسل ، وحقق فى هذه المعركة نصرا عظيما بدأ به حياته العسكرية وكان فاتحة حير له . فثبتت ايت خلال المعركة كفاءة فباده عالىة ، كما نجلى بوضوح نميزه العسكرية وسيموه الحربى . . لعد عالج امور المعركة بمنهاج جديد وأسلوب متطور ، وتأكدت قدرته الفائقة على التخطيط السارع للمعركة .

« ان يندم عمرو على رأس السرية الى مواقع عدوه حتى علم أن جميعا كنيما من فضاعه مد بجمع ، ولاحظ قلة عدد رجاله ، مبعث الى رسول الله برامع بن مخيث الجهنى يستمده ، حتى لا يعرض رجاله الى موقف حرج ، حيث كان واضحا قلة عددهم بنسبة لا يمكنهم من الضام بعمل يشرف به الاسلام ، وأدبه رسول الله بمائتين من المهاجرين والانصار ، منهم ابو بكر وعمر وعليهم ابو عبدة بن الجراح » وقال رسول الله لأبى عبدة حين وجهه « لا نضلنا » .

ولما اكمل الاعداد للمعركة ، هاجم عمرو العدو ، وحمل عليه حملة منكره ، واضطره الى الفرار فى داخل البلاد ، فبفرق جمعه ونسبت تسلمه ، وظل عمرو فى موضعه ثلاثة أيام حتى تأكد له النصر . . . ووصف البلاذرى الفبال فقال « لقى العدو من فضاعه وعبرهم وكانوا جميعين ففضهم ( أى صرهم ) رذل بهم مقبلة عظيمة وعظم » .

فى هذه المعركة رشيم «سفر حاتم الفبال فيها برزت أمور ذات أهمية عسكرية ألفت الضوء على ثقافة عمرو وقدرته . . أمور فم تكن معروفة فى زمن عمرو وأدبه أدركها ، بذكره الناقب وأدراكه الواعى وعقله الفاهم ووضع لها قواعد وأصولها .

ولقد أبت تاريخ الحرب أن الاجبال العسكرية التى جاءت بسد عمرو قد دامت هذه المبادئ والأصول ووضعيتها موضع التجربة فى مختلف معاركها وتأكدت من سلامتها وأهميتها وضرورة تطبيقها ، وتلقت الفبادات العسكرية الحديثه هذه المبادئ والأصول ووضعنها نصب أعينها وأعطتها عاية اهتمامها ورعايتها .

عندما وصل المدد الذى كان على رأسه ابو عبدة ، قام خلاف بين المسلمين حول منصب القيادة . . .

من الذى يتولى قيادة المعركة ؟؟

هل هو عمرو بصفته أول من بعثه الرسول الى هذا المكان ؟؟

هل هو أبو عبيدة بصفته قائد الامداد ؟؟

وكان موضوع القيادة هو أول مشكلة يتعرض لها المسلمون ، فقد عرض أبو عبيدة أن يبقى عمرو على سريته ، وأن يظل هو على مدده « أنا على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه » .

واعترض عمرو على هذا المنطق الذى لا يتفق مع طبيعة الحرب ، فلان المعركة لا يقودها أبدا قائدان ، **وإن الجند لا يتلقى أوامره من رئيسين** . وفى ذلك مضية للجهد ، وتفرقة للشمل وإخلال بأهم ما تحتاجه المعركة من وحدة الصف والتضامن .

وشرح عمرو لأصحابه أن **وجود القيادتين يزعزع ثقة المقاتلين ، ويورد الجيش موارد الهلاك** ، وأبى الا أن تتحد القيادة فى شخص واحد يكون مسئولا عن مواجهة العدو ويتحمل وحده نتيجة المعركة .

قال أبو عبيدة « يا عمرو ليست لك الامامة ، فقد بعثنى رسول الله أميرا ، وزد عليه عمرو بوجهة نظره « بل أمرنى رسول الله يا أبا عبيدة ، وإنما أنت مدد ، وقد أصبحت أنت ومن معك جزءا من جيشى » . . . . . وكانها عز على أبى عبيدة أن يكون هو وأبو بكر وعمر تحت قيادة عمرو وهو حديث عهد بالاسلام فقال له : « ولكنهم كبار الصحابة » ، وهنا تبرز حكمة عمرو اذ يقول له : « ولكننا فى جهاد يا أبا عبيدة ، تتساوى فيه السيوف والمثامات وأنت وهم تحت امرتى لأنكم مدد لى ، وسوف يؤم الناس » ، ويصر عمرو على رأيه « لن يكون هناك الا أمير واحد ، ولن يؤم الناس الا واحد ، اننا سنعمل صفا متحدا يتمثل فى هذه الصلاة » .

وكان أبو عبيدة رجلا سهلا هينا عليه أمر الدنيا ، حسن الخلق لين العريكة ، فلما استمع الى ما قاله عمرو قال له « يا عمرو ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى لا تختلفا ، وأنتك ان عصيتنى أطعك » فقال له عمرو « فلى الأمر عليك ، وأنت مدد لى » فوافق ، واقتنع أبو عبيدة ورضى بأن يكون تحت إمرة عمرو .

**وتوحيد القيادة مبدأ هام وخطير ، وخاصة فى مجالات الحرب ، ولم يسجل تاريخ الحرب أن معركة دارت بين قوتين كانت احدهما تحت رئاستين . .**

ولقد تعرض المسلمون لموقف مشابه فى اليرموك الا أن خالد بن الوليد



حسم موقف القيادة تهما كما حسبه عمرو بن العاص في ذات السلاسل ، وجعل القيادة ممتثلة في شخص واحد ، يتحمل المسؤولية ويدير المعركة ويقود الناس ويحقق بهم النصر .

وبمراجعة أحداث معركة اليرموك نجد أن عمرو بن العاص كان يطالب دائما بتوحيد كافة الوية المسلمين تحت قيادة واحدة فقد قال لهم « ان الرأي الاجتماع ، وذلك أن مثلنا اذا اجتمع لم يغلب من قلة ، فاما ان تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا » . . ولقد أيده في ذلك في حينه أبو بكر الصديق حين كتب لهم « اجتمعوا عسكرا واحدا ، وألقوا زحف المشركين بزحفكم » . . ولقد أيده كذلك خالد بن الوليد في قوله للأمراء المسلمين « هلموا فلنتماورا الامارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غدا » . .

وظهرت مشكلة أخرى

كان الجو قارسا شديدا البرودة ، وطلب المسلمون أن يوقدوا نارا تخفف عنهم حدة البرد ، وذكر ابن عسك أن عمرو بن العاص رفض السماح لهم ، فغضب عمر بن الخطاب وشق ذلك عليه لما كانوا فيه من شدة البرد ، فتشاور مع أبي بكر فقال له « دعه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعثه علينا الا لعلمه بالحرب » ، فسكت عمر ، وجاء المسلمون الى أبي بكر وطالبوه بالتحدث اليه في هذا الشأن ، فلما كلمه قال له « لا يوقد احد نارا الا قذفته فيها » .

ما هي المشكلة هنا ؟؟؟

المشكلة أن الجو بارد والناس في حلجة الى نار تخفف من حدة البرد . . والقائد يرفض السماح بإيقاد النار ، لأن إيقاد النار من وجهة نظره مشكلة تفوق مشكلة البرد . . . .

كيف ؟

كان عمرو يرى في إيقاد النار خطرا على قواته المحاربة ، وقد أوضح هذا الخطر لرسول الله حين سأل عليه السلام عن سبب عدم السماح لجنده بإيقاد النار قال « خفت أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين لأعدائهم وهم قلة فينتفضوا عليهم » . . .

اذن فلم يكن الأمر تشددا منه ، ولكنه كان حرصا منه على صالح قواته وأمنها . . وسلامة القوات من أهم المهام التي تقع على عاتق القائد ، والقائد الناجح هو الذي يحقق لجنده السلامة والأمن قبل الاشتباك ، وخلال ، وبعد . . . .

وهذه السلامة هي ما يطلق عليها في الحرب الحديثة اسم السلامة الحربية وهي معنى وقاية القوات المحاربة وحمايتها . . .

وموقف عمرو هو موقف الفكر العسكري السليم الذي ينفذ مع ما ينتهجه المدارس العسكرية الحديثة ، فان مجرد اشغال عود ثقاب قد يكشف موقعا للعدو هو جاهل بمكانه ، فيكون هدفا لهجومه أو نيرانه ، ولهذا نحرص القيادات الحديثة على ضرورة الاظلام الانعام خلال الاشتباك ، ويعتبر الظهور اى شئ من عمل خطيرا لا ينفق مع أمن القوات وسلامتها ، وهناك بعض القيادات - ان لم تكن كلها - تمنع رجالها وقت الحرب من حمل رتب نحاسية أو استخدام ادوات ناع أثناء الاظلام اللام . . . وان من أهم ما اسفر عنه رأى الضادة في مختلف المدارس العسكرية هو أن السلامة هي أسس خطية الحرب وان القائد هو وحده الذي يقرر الأسلوب الذى يحقق هذه السلامة ، وهي مسؤوليه وحده وان الجيش الذى يصبح سلامته مهددة يفقد حرية العمل ويصبح هدفا سهلا لعدوه .

اذن فعمرو كان صائبا في رايه رغم ان هذا الراى أغضب الناس وكان من مبادئ الحرب .

ومتسلكه أخرى تظهر على مسرح الأحداث في هذه السرية الصفرة الحجم . . .

تبعد أن انتهزم العدو ونزق في البلاد . أدى بعض الجند المسامحين الرغبة في مطاردته واقتفاء برده . فقال عمرو بينهم وبين ما يرغبون وقال لهم « اسبوا ولا تتبعوا الناس » . سمعوا لمنعهم وقالوا « كيف لا نأخذ أسلحتهم وكيف لا نقتلهم حتى نضمن أن لا » . فاجابهم « كفى هذه الرغبة التى نملأ مطن الوادى » . فاما أرادوا نالغشهم حسب الأمر مانا « هكذا أمرت ، ومن تبعهم ليس له الا أنسد العناب » .

الجند اذن بطلبون الاذن لمطاردته العدو الهارب املا في أمرس . . . أخذ الأسلاب به انشاعا عليه . . . ولكن القائد برمس مطلبهم لحكمة أو أكر . .

هي أولا يريد أن يلفتهم درسا بنسل بأصل الدمن ويربط بالايمل ، مان الخروج في سبيل الله يجب أن يكون صادقا لله وحده لا أملا في غنيمة أو كسب أو جاه . . . وكان هو في ذلك المنل والقدوة ، فقد دعاه رسول الله « يا عمرو انى أريد أن أبعثك على جيش فيفتمك الله ويبسلك » . فقال للرسول « انى لم أسلم رغبة في المال » ، فقال له رسول الله « نعم المال الصالح للرج الصالح » .

وهو ثانيا كان يعلم أنه بقابل في أرض عدوه ، وأن عدوه أكثر منه

عددا ، وأنه يستطيع أن يجمع الجموع ضده ، وكان يعلم قلة رجاله فخاف أن يسمح لهم بما يطلبون أن يحتج لهم عدوهم وقد عرف فليهم ، فهزمهم .

وفد شرح عمرو وحبته نظره هذه لرسول الله عندما سأل عليه السلام « ألا مركبهم يسعون المنهزين » ، فقد قال « ... كما نحارب في بلادهم يا رسول الله وقد حلت أن يكون لهم ردد فينفض على المسلمين إذا نعوهم وبعدوا عن معاصيهم » .

\*\*\*

نقطة أخرى سميت أن أركبها حتى أصل إلى آخر الحديث عن هذه السرية وكان مكانها أصلا في بداية الحديث .

روى كتب التاريخ أن عمرو بن العاص حين تلقى أوامر الرسول بالتحرك إلى مواعع بنى ضاعه ، خرج من المدينة أسسلا ... وكان يحرص خلال تقدمه على أن يكون التحرك دائما في الليل فكان يهتف نهارا ويهتف ليلا .

لماذا نهتج عمرو هذا التحرك ؟

انه يعلم انه على الطريق الى قتال . ويعلم أيضا ان العدو في انتظار وصوله ، ويعلم أيضا ان العدو قد يسعى الى منعه اخذ له قبل اللقاء . حتى يعد نفسه له في ضوء ما نتج من لديه من معلومات عنه ..

من خلال هذه المعاني كلها ، رأى عمرو أن يكون تحركه ليلا حتى يتمكن الميئون عن ملاحقته ، وحتى يضمن سلامه قواته ..

هذا فوق أن التحرك يتم في منطقة صحراوية شديدة الحرارة نهارا ، مما بجهد الجند وبعرضهم لمتابع كثرة ، قد تؤثر عليهم حين يصلون الى مراكز المواجهة ، ولهذا نال التحرك ليلا بحميتهم من الحر والجهد ، وسقى لهم نشاطهم ، فوصلون الى مكان اللقاء مؤفورة قوتهم متكاملة معنوياتهم .

أذن فعمره — حين أمر بالسير ليلا والتوقف نهارا — كان يستهدف أمرين هامين هما :

● إخفاء تحركات قواته عن عدوه .

● حماية قواته من حر الصحراء .

ولقد أصبح هذان الأمران من أهم ما يشغل بال القادات في الحروب الحديثة . ولعل الفارئ قد لاحظ أن تحركات الجيوش في العصر الحديث تتم خلال الظلام وفي الليل ، وتقيد هذه التحركات كلها أمكن نهارا ضمانا لسلامة القوات وحرصا على أمنها وتأكيذا للسرية التي تتطلبها ظروف القتال .

ومن هنا يكون عمرو بن العاص صاحب نظرية « سلامة القوات » التي آمنت بها كل المدارس العسكرية التي جاءت بعده ، وأخذ بها كافة العسكريين الذين قادوا الجيوش وخاضوا غمار المعارك .

### توجيهات القائد العام

جمع أبو بكر أصحابه ومستشاريه من رجال الرأي من المسلمين وذكر لهم أن رسول الله كان قد اعتزم أن يصرف همته إلى الشام لولا أن الله قبضه ، وقال « العرب بنو أم وأب ، وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين » .

ووافق المجتبعون — وكان منهم عمر وعثمان وطلحة والزبير وقبدة الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وزيد ابن ثابت — على فكرة المسير إلى الشام ، وبدأ الأعداد لهذا الغزو الجديد .

كان عمرو في هذه الآونة مقبلاً في قضاة ، فبعث إليه أبو بكر يعرض عليه البقاء حيث هو أو الاشتراك في العمليات « أردت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك » ، ورد عمرو فقال « أنى سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاه وأفضلها ، فإرم بها شيئاً أن جاءك من ناحية من النواحي » .

وهكذا أثر عمرو حياة الجهلاء والكفاح ونبت حياة الخمول .

سير أبو بكر أربعة جيوش إلى بلاد الشام تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح ، وحدد لكل جيش هدفه . . وتولى عمرو بن العاص قيادة الجيش الثاني وكان عدده تسعة آلاف من أهل مكة والطائف وهوازن وبنى كلاب ، وكانت وجهته فلسطين ، ( قاد الجيش الأول أبو عبيدة وكان هدفه حمص ، والثالث يزيد بن أبي سفيان وكان هدفه دمشق ، والرابع شرحبيل بن حسنة وكان هدفه وادي الأردن ) .

وكان عمرو يطمح في أن يكون هو في مكان القيادة العامة بدلاً من أبي عبيدة ، فخطب عمر بن الخطاب ليكلم له أبا بكر ، قال له « يا أبا حفص أنت تعلم شدتي على العدو وصبري على الحرب ، فلو كلمت الخليفة أن يجعلني أميراً ، وقد راقبت منزلتي عند رسول الله ، وإنى لأرجو أن يفتح الله علي يدي البلاد ويهلك الأعداء » .

## - ١٥٩ -

ولكن عمر رفض طلبه قائلا « كلا ، ما كنت لا كذبت ! وما كنت بالذى أكلمه فى ذلك » ، فانه ليس على أبى عبيدة أمير ، ولا أبى عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال فيه : أبو عبيدة أمين الأمة .. ثم قال له « ... اتق الله ، ولا تطلب الا شرف الآخرة ووجه الله تعالى » ، واقتنع عمرو ، فاستدعاه أبو بكر وسلمه راية الجيش الثانى ، وزوده ببعض النصائح والتوجيهات .

### وقال له ...

« قد وليتك هذا الجيش ، فانصرف الى أهل فلسطين .. ، وكتب أبى عبيدة ، وانجده اذ أرادك ، ولا تقطع أمرا الا بمشورته » .

### وقال أيضا ...

اتق الله فى شرك وعلائيك ، واستحى فى خلواتك فانه يراك فى ملك ، وقد رايت تقدمتى لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة ، فكن من عمال الآخرة ، وأرد بعملك وجه الله ، وأسلك طريق إيلاء حتى تنتهى الى فلسطين ، وإياك أن تكون دانيا عما ندبتك اليه ، وإياك والوهن ، وإياك أن تقول جعلنى ابن أبى تحلفه فى نحر العدو ولا قوة لى به .

### وقال أيضا ...

اعلم يا عمرو أن معك من المهاجرين والأنصار من أهل بدر ، فأكرمهم وأعرف حقهم ، ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان ، فتقول إنما ولانى أبو بكر لأنى خيرهم .. وإياك وخدائع النفس ، وتكن كأحدهم ، وشاورهم فيما تريد من أمرك .. والصلاة ثم الصلاة أذن بها اذا دخل وقتها ..

### وقال أيضا ...

واحذر من عدوك ، وأمر أصحابك بالحرص ، ولتكن أنت بعد ذلك مطلعا عليهم ، وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك ، وأقم بينهم واجلس معهم ، واتق الله اذا لاقيت العدو ، وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أملاك ، واذا وعظت فأوجز ، وأصلح نفسك تصالح لك رعيته ، واذا رايت عدوك فاصبر ولا تتأخر ، فيكون فى ذلك فخرا منك .

### وقال أيضا ...

والزم أصحابك قراءة القرآن ، وإنهم عن ذكر الجاهلية ، وما كان منها ، فإن ذلك يورث العداوة بينهم ، وأعرض عن رهوة الدنيا حتى يلتقى بين مضي

## - ١٩٠ -

من أسلافك ، وكن مع الأئمة المدوحين في القرآن ، اذ يقول الله تعالى :  
« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وأقام الصلاة وإيتاء  
الزكاة وكنوا لنا عابدين » .

### وجاء في نهاية هذه التوجيهات ...

« امض بارك الله فيك وفيهم » ...

هذه هي توجيهات أبي بكر القائد الأعلى للقوات الإسلامية الى قائد  
احد جيوشه المتحركة الى بلاد الشام ...

هذه التوجيهات تحمل بين كلماتها معاني جليلة ومفاهيم سديدة ومبادئ  
خلادة ترتبط بالحرب أعظم وأوثق ارتباط ، ونظرا لأهميتها ، ونظرا لما حوته  
من مبادئ حربية هامة ، فقد ترجمها عدد كبير من مؤرخي الاورنج ومنهم جبون  
Gibbon فقد أوردها في كتابه « تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية »  
The history of the Decline and fall of Romane

ومنهم إيرفنج Irving فقد اشتمل كتابه « تاريخ خلفاء محمد » على هذه  
الوصية A History of the lives of Successors of Mohamet.

ناشد القائد العام عمرا أن يتجدد أبا عبيدة ان أراد منه عونا ومساعدة ،  
والتعاون بين الجيوش خلال العمليات أمر جوهري يجب أن يكون موضع  
الاعتبار ، وهذا التعاون من شأنه أن يوحد العمل في الجبهة ضد العدو بصورة  
تجبره على تشتيت قواته لتواجه الضغط من جميع الجهات ، مما يضعف قوة  
المقاومة عنده ويهيئ الطريق الى النصر . . . وجميع القيادات العسكرية في  
الحرب الحديثة تضع في اعتبارها عند التخطيط للمعركة ضرورة توافر التعاون  
والتنسيق بين جميع الوحدات ، ويأتي في المقام الأول من هذا التعاون والتنسيق  
وضع خطة النيران بحيث تكون متداخلة ومعاونة في تحطيم منشآت العدو أو  
في هدم خنادقه أو في اصابة أهدافه .

- أوصى القائد العام قائد جيشه بأن ينهج نهج رسول الله في عدم الانفراد  
برأى ، والرجوع الى أصحابه يستشبرهم في الأمور ، فالشورى وتبادل  
الرأى يقودان دائما الى الرأى السليم الصحيح الذى يعود بالفائدة على  
المجموع ويحقق الأمل في النصر . .

والشورى من المبادئ الهامة التى دعا اليها الاسلام . . وإذا كانت  
الشورى لازمة في أمور الحياة الجارية فهي ألزم هذه الأمور في حالات الحرب

## ١٦١ -

والقتال ، والرأيان دائما أفضل من رأي واحد ، وعلى القائد قبل خوض المعركة أن يعرف كافة الآراء ، وأن يشاور أولى الرأي ومستشاريه في كل ما يراه قبل أن يتخذ رأيا معيناً . . . وكان هذا هو أسلوب رسول الله في كافة غزواته . . . وهذا التوجيه يثقف مع مهمة هيئة الأركان التي تشكلها قيادات اليوم لتعطي للقائد النصيحة والمشورة والرأي .

نبه القائد العام الى ضرورة التوجه الى الله بالقلب والوجدان طلبا لتأييده ونصرته . . . وهذا هو غاية الايمان . . . والايمان بنصر الله يمنح المحارب الثقة والقوة والشجاعة والعزم والصبر والجلد ، ويجعله يستعين بالموت في سبيل رسالته وهدفه . . . هذا فوق أن الايمان بنصر الله يولد في نفس المحارب حب الطاعة ، الطاعة في المعركة من أهم أسلحة النصر . . . ولعلنا نلاحظ في تشكيل جيوش اليوم وجود عدد كبير من رجال الدين على مختلف مستويات التشكيلات ، يؤدون مهمتهم ويثيرون الاحساس الديني لدى المقاتل ، ويذكرونه بواجبه ويرددون على مسامعه صور البطولات ، ويدعونه الى التقرب الى الله جهادا في سبيله دفعا لاعدائه ونصرة لدينه .

وفي الوصية عالج القائد العام نفسية قائد الجيش ، فهو يعلم أن القائد مرآة الجند يرون فيها أنفسهم ، فإذا كان القائد على مستوى مرتفع من المعنويات كان جنده على شاكلته ، ولهذا رأى القائد العام أن يرفع معنويات قائد الجيش ، وأن يثير احساسه بالمسؤولية ، فجعل تحت قيادته من هم أقدم منه مثل أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فهؤلاء لهم سابقة وفضل ومكانة . . . وأن احساس عمرو بأنه يقود مثل هؤلاء يولد في نفسه ثقة كاملة تهيئه للعمل الجاد الذي يتناسب مع حسن ظن القائد العام ومع أهله فيه ، ومع تكريمه له ، وتفضيله على غيره من أصحاب السبق في الاسلام .

ونصح القائد العام قائد جيشه بأن يكون قدوة ومثلا ، فلا يخاف ولا يتردد ، ولا ينافق ولا يجبن . . . يتمسك بالمبادئ القويمة والأخلاق الكريمة والمثل العليا ، فيكون صورة واضحة المعالم يرى فيها الجند ملامح القائد الحازم الكريم المغوار القوى الحكيم . . . لقد طاب القائد العام من عمرو أن يتصف بالتواضع ، فلا يتطاول على جنده بساطنانه ، ولا ينساق وراء عواطفه ومشاعره ، فيخدع نفسه ، وطلب منه ألا بدع نفسه فريسة للغرور والكبرياء ، فكلهما مرض خطير يقتل القائد اذا تملكه ، ويمتد أثره فبقتل الجيش كله . . . وقد يكون أثره أكثر بعدا واتساعا فيصيب الأمة أصابة قاتلة . . .

والقائد العام — احساسا منه بضرورة المحافظة على الجند وضمان ( م ١١ — شخصيات عسكرية اسلامية )

## - ١٩٢ -

سلامتهم لأنهم سند الاسلام وحراسة وسياجه - طلب من قائد الجيش أن يأخذ حذره ، وأن يقيم الحراسة اللازمة حتى لا يفاجئه العدو ويأخذه على غرة ... ولا ريب في أن الحراسة هي المانع القوي المنيع أمام مفاجآت العدو ، وما قد يترتب على هذه المفاجآت من خسائر في العتاد والأرواح ... ولقد أصبحت الحراسة من أهم متطلبات المعركة الحديثة ، تقوم بها دوريات خاصة منتقاة ، ونقط حراسة يقظة تسهر وترقب وتلاحظ ، وتمنع في الوقت المناسب تدخل العدو دون استعداد لمواجهة هذا التدخل .

وأدرك القائد العام أهمية الاستطلاع كعملية هامة وجوهرية عند اقرار خطة العمليات ، فالاستطلاع يضع بين يدي القائد صورة واضحة عن العدو فتكون لديه المعلومات عن عدده وسلاحه وخطته ومعتوياته وحلفائه . وكما تجمعت المعلومات الصحيحة السليمة لدى القائد تمكن من وضع خطة المعركة وهو مطمئن الى نجاحها ... وكما كانت هذه المعلومات ذات قيمة وفائدة كان من السهولة تنفيذ الخطة وضمان النصر ... ولهذا فإن القائد العام يوصي قائد الجيش بضرورة الاهتمام بالاستطلاع وإرسال العيون .

وجمع المعلومات عن العدو أصبح مهمة ذات شأن كبير في العصر الحديث ، تقوم بها أجهزة كثيرة منها دوريات الاستكشاف وأجهزة المخابرات والطواير السرية ورجال الجاسوسية ، وتعطى الدول لهذه الأجهزة كل عناية ورعاية ضمانا لوصول معلومات سليمة صحيحة عن العدو ، وتباشر هذه الأجهزة أعمالها وقت السلم ووقت الحرب ، إلا أن عملها وقت الحرب يأتي في المقام الأول ، حيث أن المعلومات التي توضع أمام القيادة ، تكون عاملا هاما وضروريا وخطيرا في تقدير الموقف ووضع الخطة ، وإن كلفة الدول في العصر الحديث ، تضع كلفة إمكانياتها في خدمة هذه الأجهزة تقديرا لخطورة الدور الذي تقوم به وأهميته .

ها هي ذى توجيهات القائد العام ، وهي في حقيقة الأمر دستور يجب أن يلتزم به القائد ... وهي في مبادئها العلم تتفق مع أصول الحرب الحديثة ، وهي بسببها تكون مفخرة للعقلية الاسلامية العسكرية التي وضعت يدها عليها وطبقتها في حروبها ، وأكدت صحتها وسلامتها وأهميتها .



## ارطبسون العرب

واجه عمرو مائة ألف مقاتل من الروم في غمر العربات وانتصر عليهم ، وأسر ستمائة أسير ، ولم يفقد هو في هذه المواجهة سوى سبعة فقط .

ثم واجه مائة ألف آخرين يودهم بطريق يدعى روبيس ، فقسم جيشه الى ميمنة جعل عليها الضحاك ، وميسرة عليها سعيد بن خالد ، وساقة عليها أبو الدرداء ، وبقي هو مع أهل مكة في القلب ، ثم هاجم قوات الروم ، وأصاب المسلمون دواب الروم بأسنة الرماح ، ثم حملوا حماة شديدة أصابت الروم وقضت عليهم ، وقال عمرو في رسالة بعث بها الى أبي عبيدة « وصلت فلسطين ، ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له روبيس في مائة ألف فارس ، فمن الله علينا بالنصر ، وقتل من الروم خمسة عشر ألف فارس وقتل من المسلمين مائة وثلاثون ، فان احتجت الى سرت اليك والسلام » ( راجع فتوح الشام للواقدي ) .

وشارك عمرو في اليرموك ، وكان من رايه اجتماع الجيوش العربية كلها تحت قيادة واحدة وقال للناس « ان الراي الاجتماع ، وذلك ان مثلنا اذا اجتمع لم يغلب من قلة ، فأما ان تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا » ، واتفق رايه مع راي أبي بكر « اجتمعوا عسكرا واحدا ، والشام زحف المشركين بزحفكم ، فأنتم أعوان الله والله ناصر من نصره وخائف من كفره » ... واتفق أيضا مع راي خالد « لا تقتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغي ... ان الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيههم ، وأنفع للمشركين من إمدادهم ... هلموا فلنتعاون الأملرة » ، ( سبق الإشارة الى ذلك ) .

كان لعمرو موقف بطولي خلال معركة اليرموك ، فقد كان على كادييس الميمنة ومعه شرحبيل بن حسنة ، واشتد القتال بين الطرفين وهما وطيسه ، وأصاب رماة الروم أعين سبعين من جند المسلمين ففروا من المعركة والقتال على أشده ، ورأى عمرو ان الموقف يتطلب صمودا وصبرا ، فبقي في مكانه ومعه أصحاب الرايات ( أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن أبي بكر ) وقاتل معهم ببسالة وقوة وكر بهم على العدو حتى تحقق النصر .

وشارك عمرو في الهجوم على دمشق ، وخصص له باب ينزل فيه هو باب توما أو الباب الصغير ( ذكرت بعض المراجع أن باب الفراديس كان لعمرو .. راجع كتاب تاريخ عمرو بن العاص للدكتور حسن إبراهيم ) .

وكان عمرو على أحد جنبي المسلمين عندما دار القتال في فحل .

## - ١٦٤ -

واسهم مع شرحبيل بن حسنة والحارث بن هشام سهيل بن عمر في حصار بيسان حتى تم التسليم .

ثم كانت معاركه في فلسطين .

### ولعل معركة أجنادين هي أهم معاركه وأشهرها هناك .

نفى هذه المعركة وأجه عمرو قوات الروم بقيادة أربطون الذي كانوا يعدونه أكبر قادتهم وأبعدهم غورا . . . هذا فوق أنه كان مشهورا بالدهاء ، ومن هنا تأتي أهمية المعركة لأن عمرو بن العاص هو الآخر كان أكثر العرب دهاء ، فعندما أحصى العرب دهاتهم عدوهم أربعة كان هو أحدهم ، وجعلوا لكل واحد مزية يتميز بها في دهائه ، فقالوا « ان معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبدية ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة » .

ولعب الدهاء دورا رئيسيا في هذه المعركة حتى أن الخليفة عمر قال لأصحابه « قد رمينا أربطون الروم بأربطون العرب فانظروا عم تنفرج » .

واستغل عمرو الدهاء كسلاح جديد في المعركة ، وحقق به انتصارا كبيرا .

فقد أراد — في ضوء وصية أبي بكر له — أن يجمع معلومات كافية عن عدوه ، وأن يقف على أسرار حصونه وخنادقه ، وأن يعرف مداخل مواقعه وعوراتها . . . تقديرا منه لأهمية اللقاء القادم مع قوات أربطون . . وأرسل عمرو العيون للاستطلاع ، ولكنها لم تقدم له ما كان يصبو إليه من معلومات ، فرأى أن يقوم هو بنفسه بعملية الاستكشاف ، فيذهب الى مواقع عدوه ليحصل بنفسه على ما يريد من معلومات .

وسار أربطون العرب إلى أربطون الروم ، ودخل معسكره على أنه رسول إليه من قبل عمرو ، واستأذن في مقابلة أربطون ، فأذن له ، ودخل عليه وحياه ، ودار بين الاثنين حوار طويل حاول فيه كل من الطرفين أن يحصل من الآخر على معلومات تفيده ، وكان الدهاء واضحا في هذا الحوار . . . سأل أربطون عن عمرو ملك المسلمين فأجابه عمرو . . « عمرو بن العاص قائد من قادة المسلمين يا سيدي وليس ملكا من الملوك ، وليس للمسلمين ملك ولكن لهم خليفة لا يبرم أمرا إلا اذا استشار أصحابه ، يجلس بينهم كأحدهم يفتش الأرض ويكتفى بالخشن » .

سأل أربطون عن دهاء عمرو ، فجاءه الجواب « عمرو يا سيدي سهم من

يسهام الله يعرف أين يضع قدمه ، وأين يوجهها ، وما دخل في شيء الا وخرج منه .

وتسأل أرطوبون عن المقاتلين المسلمين الذين عهدهم أمة بدوية لا تعرف الا مواقع الغيث ومواطن النكلا ، فرد عليه عمرو « ليس فينا يا سيدي الا فارس أو محارب ، قد ربتنا الصحراء على احتمال المكاره ، وعلمتنا الطعان والضرب ، وأرشدتنا الى مقاتل الأعداء » .

وأراد أرطوبون أن يعرف عدد جيش المسلمين ، ولم يعطه عمرو أية معلومات عن العدد ، وإنما عرض عليه الاسلام أو الاستسلام مع دفع الجزية أو الحرب وقال محذرا « هل الأرطوبون أعز على سيوف المسلمين من هرقل كبير الروم ، ان السيوف الى أصابت أفئدة جيش هرقل ستصيب فؤاد من يقف أمام جيش عمرو » .

وأثار هذا القول أرطوبون فعرض أن يوضح له الرسول خطط المسلمين في الحزب قائلا « قد حدثنا من قاتلوكم أنكم تلبسون وجوها غير وجوهكم وجاودا غير جلودكم وتمسكون سيوفنا غير سيوفكم » ، وأوضح له عمرو ذلك فقل « هي وجوه المسلمين غاضبة في الحرب ... أما السيوف والجلود فهي سيوف المسامين وجلودهم كساها الاسلام رهبة والبسها جلالا » .

وبمراجعة ما قاله عمرو تبين ما كان عليه هذا القائد العربي من القوة والعزم والاطمئنان النفسي والروح المعنوية العالية .

وأحس أرطوبون بقوة اللفظ وعمق المعنى وضخامة المنطق ، وأدرك أن المتحدث لابد أن يكون عمرا نفسه ، فرتب أمره على أساس أن يقتله عند خروجه من المعسكر ، وحتى يعطيه الأمان ، أمر له بهدية ثم أصدر تعليماته لحراسه بقتله عند خروجه .

وبينما عمرو في طريقه الى خارج المعسكر سمع من يقول له هاهنا « يا عمرو لقد أحسنت الدخول فأحسن الخروج » . وكانت مفاجأة .. انكشف أمره وعرفت شخصيته ، وكان لابد من تصرف عاجل وسريع ، يتسم بالذكاء والدهاء ... وفكر عمرو سريعا ، وجاء الحل ، ووضح أمامه الطريق .

وبينما أرطوبون في مجلسه ينتظر خبر مقتل عمرو ، اذا به يعود اليه ، ويطلب الاذن بالمقاتلة ... وكانت لعبة جريئة وخطوة لا يقدم عليها الا شجاع

١٩٩ -

مقدم ... سألهم أربطون عما يريد ، فجاءه الرد المقتنع الذى أضع من يديه الصيد الثمين الذى كان يرجوه ... « لى أبناء عم وأخوة عشرة على الأقل ، وقد نظرت فى هذه الجائزة ، فرأيت أنها لا تعهم جميعا ، فعدت اليك لأرجو لهم ، فقد أحببت أن يعم معروئك » ، فأمر أربطون أن تزداد الجائزة عشرة أضعافها ، فقال له عمرو « وحق تلك اللسانة يا سيدى ألا تحب أن تسمع شكرها جميعا ، أن لكل منهم لسانا وجنانا مثل جنائى ، إذا كان قد يسرك هذا اللسان وذلك الجنان ، وسوف تجد منهم أكثر مما رأيت » ، وفهم أربطون أنه يعرض الحضور بهم لتقديم شكرهم ، فقال له « حسنا أيها الرسول اللبق اذهب ، وأثنى بهم » .

وهكذا أثنى عمرو بالطعم ... ونجح .

نجا عمرو بنفسه ، وعاد الى بننده وقادهم فى أكبر معركة فوق أرض فلسطين ... فى أجنادين ... واشتد القتال فيها حتى قيل أنه كان لا يقل هولا عن القتال فى اليرموك ، وكثر القتل فى صفوف الروم ورجحت كفة النصر ، وانسحب أربطون بقواته الى بيت المقدس وهو يردد فى ألم كبير عميق « خدعنى الرجل انه أدهى الخلق جميعا » .

وبلغ الخليفة عمر بن الخطاب أخبار النصر فهلل قهلا « غلبه عمرو ... الله عمرو » .

ولم تكن أجنادين هى آخر لقاء بين عمرو وأربطون ، فقد وقع صدام آخر فى بيت المقدس ... فبعد أجنادين بعث أربطون بكتاب الى عمرو يقول فيه « أنت فى قومك مثلى فى قومي ، والله لا تفتح من فلسطين شيئا بعد أجنادين ، فارجع ولا تفتر فتلقى ما لقي قبلك من الهزيمة » ، فأجابه عمرو فى رسالة « أنا صاحب فتح هذه البلاد » .

وكتب عمرو الى الخليفة يقول له « انى أعالج حربا كؤودا صدوما ، وبلادا ادخرت لك ، فرائك » .

وحاصر عمرو بيت المقدس وقاومته ، وطال حصاره ، ويقول الطبرى « ان أهل ايلياء كانوا أشجوا عمرا وأشجاهم ، ولم يقدر عليهم ولا على الرملة ، ولذلك أمدته الخليفة بجند عظيم ليتقوى به ويقدر عليهم » .

## ١٦٧ هـ

وطال الحصار أربعة أشهر (١) ، عظمت فيها خسائر الروم ، مما دفع برطبون الى تسليم المدينة الى الاسقف صفرثيوس الذى تولى مفاوضة المسلمين وغر هو ببعض جنده الى مصر .

وهكذا تحقق النصر الاسلامى فى فلسطين على يد رطبون العرب .

وفى ختام الحديث عن واقعة أجنادين ، لابد لنا من أن نوضح امرًا هامًا يدل على عبقرية عمرو العسكرية ومدى تفوقه فى الفن الحربى ...

فعندما واجه عمرو جند الروم بقيادة رطبون فى أجنادين تبين له — بعد دراسته لموقف عدوه — أن رطبون وضع قوات له فى الرملة ، وقوات أخرى له فى ايلياء ، كما وضع حاميات فى سبسطية ونابلس ويافا ، وكان يعتد فى اعداد قواته على ثغر قيسارية .

وادرك عمرو أن عدوه يفوقه فى العدد ، ولم يكن التفوق فى العدد هو الامر الذى يشغل باله ، وانما كان ثغر قيسارية هو مركز تفكيره اذ أن هذا الثغر هو الذى يمد الروم بالامدادات التى قد تساعد على استمرارهم فى القتال ... ورأى أن تعطيل هذا الثغر له أهمية بالغة فبعث الى الخليفة عمر يشرح له وجهة نظره . فأيده عمر وأمر معاوية بن أبى سفيان بالتحرك الى قيسارية ، لفتحها ، « أما بعد ، فإني قد وليتك قيسارية ، فسر اليها ، واستنصر الله عليهم ، وأكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله ... الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا ، نعم المولى ونعم النصير » ... ونجح معاوية فى القضاء على هذا الثغر بعد قتال حار خسر فيه الروم ثمانين ألفاً ، وبسقوط هذا الثغر تحقق هدفان :

- أمن المسلمون جانب هذا الثغر واطمانوا الى عدم مشاركته فى القتال .
- قطع المسلمون طريق الامداد واضطر رطبون الى الاعتماد على القوات التى تحت قيادته فقط .

(١) ذكر الطبرى أن الذى حاصر بيت المقدس هو أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ، وأيده فى ذلك ابن كثير وابن الأثير ولكن التسلسل التاريخى للمعارك التى دارت فوق أرض الشام يؤكد أن الاثنين كانا وقت حصار بيت المقدس مشغولين بفتح حمص وحلب وأنطاكية ... وعندما فرغ الاثنان من إخضاع الشام كان عمر بن الخطاب قد أرسل بمدد لعمرو الى الجابية فدعاهما معا للتشاور فى أنجح الطرق للقضاء على مقاومة المدينة .

والجيوش الحديثة تهدفت دائماً إلى القضاء على طريق الامداد حتى يعجز العدو عن استعاضة خسائره وتلقى الامداد ... وأوضح الامثلة على ذلك استيلاء الألمان على ميناء طبرق الذي كان مصدر الامداد الرئيسى للقوات البريطانية خلال حرب الصحراء الغربية .

## مصر مصر

يستحق عمرو بن العاص لقب محرر مصر .  
فمصر في العهد الاسلامي كانت تحت حكم الروم بعد أن قهر هرقل الفرس وطردهم من البلاد ... وكانت مصر تدين بالمسيحية ، وكان الروم مستبدين ظالمين ، فكره الناس دولتهم وتمنوا زوالها .

دعا قيرس الزعيم الروماني الديني الى مذهب ديني جديد اسمه المونوثيلي ، وحاول أن يستميل اليه اقباط مصر ، الا أن الناس رفضوا هذا المذهب وعارضوه ، فلجأ الى العسف والاضطهاد والضغط ليجبر القبط على اعتناقه وقبوله ، وتعرض الناس الى أنواع مختلفة من العقاب ووسائل شتى من صنوف العذاب ، واجتاحت البلاد موجة من الاضطهاد والتعذيب والتنكيل استمرت عشر سنوات ، واضطر القبط الى ترك بيوتهم والفرار الى الصحراء والجبال ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه .

وبجانب الاضطهاد الديني كان أهل البلاد يقاسون من الظلم الاجتماعي ، فقد فرض الحكام الضرائب الى أثقلت كاهلهم وفاقمت طاقتهم مما أعجز بعضهم عن أداء ما عليه ، فكان يفقد ممتلكاته ويحل به الخراب .

في هذه الأثناء سمع المصريون أنباء وردت اليهم عن دين جديد ظهر في مكة يدعو الى المساواة والعذل والاخاء والحرية والمحبة ، فتحولت عواطفهم الى هذا الدين وتطلعوا اليه بميل ورضا ، وأدركوا أن حكماً جديداً يقوم على تعاليم هذا الدين ومبادئه هو أعدل بكثير من حكم الروم ... ولهذا تهيأت نفوسهم للإسلام واستعدت عقولهم وأفكارهم للترحيب بالمسلمين .

ولم يكن يخطر على بال عمرو بن الخطاب أن يوجه جيشه الى مصر لأسباب فرضت عليه ذلك ...

منها أن سياسته في الفتح كانت تهدف فتح الشام والعراق فقط ، وكان

- ١٦٩ -

يرى أن ملك العرب يجب أن يكون من خليج عدن والمحيط الهندي إلى أقصى الشمال فقط .

ومنها أن بلاد الشام لم تكن قد خضعت كلها بعد ، فقد ظل شمالها بناوى المسلمين ، وخاصة أن تيسارية ظلت في موقعها الحصين تقاومهم وتهدد مراكزهم في فلسطين .

ومنها أن الجزيرة العربية تعرضت لجاعة تهددت أهلها بالفناء مُشغلاً عمر بها ، ولم يكن في الاستطاعة توسيع رقعة الحرب والنلس في مجاعة لا يصلحون مددا .

ومنها أن الطاعون انتشر في عمواس بفلسطين وامتد منها إلى بلاد الشام والبصرة ، وخشى عمر انتفاض العراق والشام على المسلمين .

إلا أن تحرير مصر كان حلماً يراود عمرو بن العاص ، فظل يرقب الأحداث ، وكله أمل في أن يقتنع الخليفة يوماً برأيه ... وجاءته الفرصة ، فقد تمت سيطرة المسلمين على بلاد الشام كلها ، وانتهت المجاعة في شبيه الجزيرة وبرأت فلسطين والشام من الوباء .

**وكانت فكرة التحرك إلى مصر تخضع لبررات عدة في رأى عمرو ...**

منها أن استقرار المسلمين في فلسطين والشام قد يصور من جانب أعدائهم بالضعف ، فيفريهم ذلك على مهاجمتهم .

ومنها أن أرطبون الروم بعد أن فر إلى مصر أخذ يجمع الجموع ويمعد العدة للخروج إلى فلسطين لاستعادتها .

ومنها أن القضاء على أرطبون في مصر واجب تبليه المصلحة العسكرية . وتقره مبادئ السلامة والأمن ، لأن القضاء على قوة أرطبون والروم يؤكد أن المسلمين ما زالوا ذوي بائس شديد ، فلا تفكر الروم في القيام بهجوم مضاد عليهم أملاً في استعادة الأرض المفقودة .

ومنها أن الأفكار والأذهان والقلوب في مصر ثائرة غاضبة على الروم ، وإن هذه الموجة من الغضب تمهد الطريق وتعين على الفتح .

ومنها فوق ذلك كله وقبله أن مصر بلد ذات غنى واسع وفي دخولها كسب

## ١٧٠ -

للعرب وللإسلام ، فقد كانت تتميز بالخصب ووفرة الانتاج ، وكانت بهسا أرزاق أخرى لا تحصى وثروتها من الأحجار والمعادن كثيرة ، وكانت مركزا للعلم والفن والصناعة والزراعة والتجارة ... كانت تمثل سوقا من أكبر أسواق العالم ، وكانت بها تجارة عظيمة من القمح والكتلن والورق ... فوق ما كان يحمل اليها من الذهب والعاج والحديد والفضة .

ولم يشأ عمرو وهو يعرض فكرة التحرك أن يزيد التبعات على الخليفة ، فطلب أن يتحرك بالجند الذين هم فعلا تحت قيادته ، وعددهم أربعة آلاف فقط ، واقتنع الخليفة بما ساقه عمرو من مبررات ، ومال الى مشاركته الرأي ، وانتهى الى الموافقة ، وخاصة أنه لمس أيمن عمرو وأدرك قدرته على الفتح ، فبعث اليه بكتاب حمله شريك بن عبده يقول فيه « اندب الناس الى المسير معك الى مصر فمن خف معك فسر به » .

سار عمرو الى **العريش** ثم تقدم الى **الفرما** وهى مدينة قديمة بهسا كنائس وأديرة ، وكان لها شأن كبير اذ هى مفتاح مصر من الشرق وتشرف على الطريق القادم من الصحراء ، فوق أنها تملك تلصية البحر ويجرى اليها فرع من النيل يؤدى الى مصر السفلى .

وذكر ابن الحكم « أنه كان بالاسكندرية أسقف القبط يقال له أبو مياهم ( أو بنيامين ) فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب الى القبط يعلمهم أنه لا تكون الروم دولة وأن ملكهم قد انقطع وأمرهم بتلقى عمرو »

وتحصن أهل الفرما في المدينة فحاصروهم عمرو ، وكان أهل المدينة يهبطون على العرب بين حين وحين لقتالهم ، وكانوا ينوعمون وصول مدد انيهم ، فلما لم تصلهم أية امدادات ، قرروا الخروج لمواجهة العرب ، فلما خرجوا أدركوا أن العرب هم أسد القتال ، فارتدوا الى الحصون للاضئاء بها ، إلا أن العرب تعقبوهم خلال ارتدادهم ، وأمعنوا فيهم قتلا ، فساد الاضطراب صفوفهم ، وملك العرب الباب قبل أن يغلق ثم اقتنحو المدينة ، وهزموا الروم ، وهدموا الحصن ، وأحرقوا السفن الراسية في المرفأ .

وذكر المقرئى أن قبط الفرما أمدوا العرب بالمعونة اثناء الحصار ، وايدة في ذلك المقرئى ، إلا أن حنا النقيوسى عارض هذا الرأي وقال أن القبط لم يساعدوا المسلمين الا بعد أن استولوا على الفيوم ، وعارضه أيضا الدكتور محمد حسين هيكى في كتابه « الفاروق عمر » اذ ذكر أن شعيب مصر



## ١٧١

وقفت من الفريثين موقفًا المتفرج فقد أصابه من الروم الكثير مما أفتقه كل حماسة لنصرهم ، وهو لم يعرف العرب بعد فلا يوجد لديه ما يدعوه الى الترحيب بهم .

### ولنا هنا ملاحظة هامة

فان الروم في مصر وقد رأوا تقدم العرب الى داخل البلاد لم يحركوا ساكنًا ولم يرسلوا جيشًا لمواجهة الجيش العربى في الفرما اكتفاء بالحامية الموجودة بها وكان تقديرهم للموقف يقوم على عدة عوامل :

١ ان الشعور العام في مصر ضد الروم ، فحنى هؤلاء ارسال قوات الى الفرما فيسهل على القبط الثورة عليهم ، مما يضعف موقف الجيش .

٢ ان الشعور العام عند الروم ان العرب قوم معركة ، سبق لهم مواجهتهم في بلاد الشام فكان الحرص واجبا عند لقائهم حتى لا ينقضوا مغامرة تنتهى بهزيمتهم .

٣ رأى الروم ان خير المواقف هو اتخاذ موقف الدفاع وراء حصونهم في داخل البلاد يحميهم النيل الذى يشكل مانعا قويا ضد تقدم المسلمين ... ولهذا كانت خطة الروم هى دعم حصونهم وتقويتها لتكون خطة الدفاع الرئيسى ضد التقدم العربى .

\*\*\*

ثم كانت موقعة **بلييس** حيث التقى المسلمون بجيش للروم بلغ اثنى عشر الفا حامل العدة ، وفيها دار قتال عنيف وانهزم الروم بقيادة أرتوبون ولحقت به خساره كبيرة بلغت ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير .

ووقع قتال آخر في أم دنين فقد تقدم اليها عمرو ، وحاصرها ، ومنع عنها المدد ، وقال المقرئى « أنه قد كان قتال شديد وأن الفتح أبطل على المسلمين » ، وذكر أبو الحسن « كان قتال شديد ، ولم يدر الناس لمن نكون الغلبة » ، واستقر رأى عمرو على مهاجمة المدينة فنلدى في قومه « تقدموا فبكم ينصر الله » . ووضع المسلمون يدهم على المدينة .

\*\*\*

ووصل مدد عربى بقيادة الزبير بن العوام وشارك في معركة **هليوبوليس** ، وهذه المعركة كانت من أهم المعارك التى دارت فوق أرض مصر ، ومرجع أهميتها أن عمرو بن العاص استخدم فيها أسلوبا جديدا حقق به نصرا مؤزرا .

## - ١٧٢ -

كان عمرو يدرك قيمة المفاجأة على العدو من ناحية ، وكان يؤمن من ناحية أخرى بمبدأ ادخار القوى ، بمعنى ألا يدفع بقواته كلها الى المعركة ، وانما يدخر جزءا منها يدفع به الى المعركة في الوقت المناسب ، فتكون قوة جديدة ليست في حساب العدو تدخل المعركة جاهزة مستعدة موفورة القوة غير مجهدة ...

كان جيش عمرو خمسة عشر ألفا وجاءه مدد من اثني عشر ألفا عليه خيرة رجال الحرب ... الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبيدة بن الصامت ، وخارجة بن حذافة ، وعبد الله بن عمرو ، وقيس بن أبي العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرج ، ونافع بن قيس ، وخالد بن يزيد ...

وكان الروم أكثر عددا من المسلمين ، حتى أن رجلا من مصر قال لآخر « ما أعجب أمر هؤلاء العرب ، انهم اتوا الى مصر في قلة من الناس يريدون لقاء الروم في كتابتهم العظيمة » ، الا أن المستمع لم يقتنع بكلامه ورد عليه قائلا « هؤلاء قوم لا يتوجهون الى أحد الا ظهروا عليه » .

ووضع عمرو خطة المعركة على أساس أن يخصص قوتين من المسلمين كل منهما خمسمائة مقاتل لا تشترك في القتال الا بعد أن يكون الجهد قد نال من الروم ، ووضع القوة الاولى عند قلعة الجبل ( موقع القلعة الحالي ) ، والقوة الاخرى عند أم دنين ( موقع الازبكية الحالي ) ، وأمرهما بالدخول في المعركة حين يحمى وطيسها ، ويشتد الضرب ويعنف النزال ، على أن يقوموا بالهجوم على مؤخرة جيش الروم وجانبيه .

وتقدم عمرو بباقي القوة حتى بلغ موضع العباسية الآن ، حيث تلاقت القوتان ودار قتال عنيف ، وعلا غبار المعركة ، وحمل وطيسها وقاتل الطرفان قتال المستهيم ... وفجأة ظهرت احدى القوتين فهاجمت مؤخرة الروم وعصفت بها عصفا ، فسيطر على الروم الذعر والفرع والرعب ، واضطربت صفوفهم وانكسرت حدتهم ، وتقهقروا في اتجاه أم دنين ، حيث كانت تنتظرهم المفاجأة الاخرى ، فقد خرجت القوة الاخرى وهاجمتهم وأضبت فيهم قتلا .

وظن الروم أن جيوشا عربية ثلاثة تقاتلهم ، وثبت لهم أن لا أمل في النصر ، فليس لديهم احتياطي يخوض المعركة ليغير سير أحداثها ، وانحل نظامهم ، ولذا أكثرهم بالفرار ، وهام كثيرون على وجوههم في بلاد مصر السفلى :

## - ١٧٣ -

ولا شك في ان تكتيك المعركة قد حقق هدفه ، ولعبت المفاجأة دورها بنجاح ، فقد وجد الروم انفسهم في موقف يفرض عليهم الاستسلام ، بعد ان اختلفت خططهم ، وفشل تدبيرهم ، وشل تفكيرهم .

كما لعب مبدأ أرجاء القوى دوره بتفوق وتميز ، ذلك انه حشد أعظم قواته ضد الغرض الرئيسي ثم خصص قوات أقل لعمليات أخرى ثانوية فدخلت في المعركة في الوقت المناسب وحقت النجاح المنشود ، وقد استخدم عمرو هذين المبدأين بحكمة وتعقل وذكاء وادراك ..

\* \* \*

وكانت المعركة التالية في بابلين .

وكان للروم في بابلين حصن قوى متين تحيط به أسوار كثيرة بلغ ارتفاعها ستين قدما وسمكها ثمانية عشر قدما ، وذكر النقيوسي أن أصل هذا الحصن قلعة أقامها بختنصر ولما جاء القائد تراجان أقام الحصن على أساس القلعة وزاد في بنائه .

وتولى مهمة الدفاع عن الحصن اثنان من قادة الروم هما أودوثيانوس ، وشقيقه درمتيانوس ، وكان بداخل الحصن ما بين خمسة آلاف وستة آلاف مقاتل ، معهم كثير من المؤن والذخائر ، وكانوا يملكون عددا من المجانيق يضربون بها المسلمين .

أمر عمرو بحصار بابليون ... واستمر الحصار شهرا ...

وجمع قيس كبار رجال الخرس ودعا معهم أسقف بابلين ، وتشاور معهم في الأمر ، وبسط لهم رايه .. قال أن الدبرة في الحرب كانت عليهم ، إذ قضى أعداؤهم على أكبر جيوشهم ثم أتوا لحصارهم ، وقال أنه لا يتوقع وصول مدد اليه قبل اشهر ، وأن الحصن لا يستطيع المقاومة والصبر ، وأن النتيجة وبال عليهم ، ثم اقترح أن يدخلوا في مفاوضات مع العرب يعرضون عليهم الأموال ليرحلوا عنهم وتبقى مصر في أيدي الروم ... واتفق المجتمعون على هذا الرأي ...

وخرج وفد منهم الى حيث عمرو فأدوا رسالتهم .. قالوا ( نقلنا عن المقريزي ) « انكم قوم قد ولجتم في بلادنا ، والاحتتم على قتالنا ، وطال مقامكم

## — ١٧٤ —

في أرضنا ، وانما انتم عصابة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وانما انتم اسارى في ايدينا ، فابعثوا الينا رجلا متكم نسمع من كلامهم ... » .

وبعث عمرو براه الى قادة الروم « ليس بينى وبينكم الا احدى ثلاث خصال : اما دخلتم في الاسلام فكنتم اخوانا وكان لكم ما لنا ، واما ابيتم فاعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون ، واما جاهدتكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم » .

ونقل رسل الروم الى قادتهم في داخل الحصن صورة واضحة المعالم عن معنويات الجند المسلمين .. هذه المعنويات التي لعبت دورا خطيرا في هذه المعركة .. والمعنويات سلاح خطير في المصارك تؤدي دورها بقوة تفوق قوة الماديات ، وقد أثر عن نابليون أنه قال « ان نسبة القوى المعنوية الى القوى المادية في المعركة هي كنسبة ٣ : ١ » ، أى أن جنديا واحدا يتسلح بالمعنويات يستطيع أن يقهر ثلاثة جنود لديهم سلاح وليس لديهم معنويات ... وأثر أيضا عن فيلسوف الحرب الألماني كلاوزفيتز أنه قال « ان القوة المعنوية هي التي تحدد نتيجة المعركة » ، وهذا يعنى أن المقام الاول في المعركة للقوى المعنوية ... وأكد مونتجمري هذا المعنى فقال « ان المصارك تكسب أولا ، وبصفة رئيسية في قلوب الرجال ، فعندما يخرج الأمر من ايدينا يتحول نهائيا الى الجنود ، فان النصر يعتمد على تدريبهم وعلى شجاعتهم وعلى رفضهم تقبل الهزيمة وعلى ثباتهم وصلابة كساحهم وعلى تصميمهم على النصر أو الموت ... وجاء هذا المعنى على لسان جيفلرا في مذكراته فقد جاء فيها « يجب عدم التهوين من شأن الجندي الأمريكي لقدراته التكتيكية التي تجعل منه عدوا رهيبا ... ان الذي ينقصه هو افتقاره الى ارضية ايديولوجية في ممارسة القتال ، ولذلك يتوقف انتصارنا على تحطيم معنوياته » .

### ولكن ماذا قال رسل الروم ؟

قالوا ...

« رأينا قوما الموت أحب الى احدثهم من الحياة ، والتواضع أحب الى احدثهم من الرفعة ، لبس لأحدثهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وانما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، وما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد » ..

### وعاق على ذلك المقوقس فقال :

« والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقدر على قتالهم أحد ، ولئن لم نفتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل ، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض ، وقووا على الخروج من وضعهم » .

وبعث المقوقس إلى عمرو يطلب منه وفدا للمفاوضة فبعث عمرو بعشرة نفر جعل المتكلم منهم عبادة بن الصامت ، فلما التقى المقوقس بعبادة — وكان شديد السواد — هابه وقال « نحوا عنى ذلك الاسود ، وقدموا غيره يكلمنى » ، فأجابه الوفد كله « أن هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وانما نرجع جميعا إلى رأيه » .

واستمع المقوقس إلى أقوال توضح مدى معنويات جند المسلمين .. قال له عبادة « ان فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا منى .. وأنا ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا وكذلك أصحابى انما رغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله رغبة في دنيا ولا طلبا للاستكثار منها .. لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة ياكلها بسد بها جوعه لليلة ونهاره وشملة يلتحفها لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاؤها ليس برخاء وانما النعيم والرخاء في الآخرة ... » .

قال له المقوقس « توجه لقتالكم جمع من الروم لا يحصى عدده .. قوم معروفون بالشدة والنجدة » .

فقال عبادة ردا على قوله « يا هذا .. لا تغرن نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم ، فلامعري ما كان هذا بالذى تخوفنا به ، وان كان ما قلتم حقا ، فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم واشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا ما كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، وأنا منكم حينئذ لعلى احدى الحسينين ، أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، ولأنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا » ... ثم قال « ما منا رجل الا وهو يدعو صباحا ومساء ربه أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده ، وایس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أصحابه وولده » .

وحلول المقوقس وقد هزته هذه الروح المعنوية ، وهذا الايمان الراسخ ، وهذه العتيدة الثابتة أن يصل الى حل سلمى ، فعرض عليه المسلمون أن يختار واحدة من ثلاث : الاسلام أو الجزية أو الحرب ... وفشلت محاولاته ، فقد كان حديث المسلمين واضحا وهدفهم صريحا .. واهتزت نفسية المقوقس واصحابه ، وناقشوا مطالب المسلمين ، فرفضوا الاسلام « لن نترك دين المسيح الى دين لا نعرفه » .. ، ثم رفضوا فكرة الجزية « اذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية فلم نعد أن نكون عبيدا ، والموت خير من ذلك » ولم يبق أمامهم سوى القتال ...

ولابد لنا من أن نشير الى أن ما عرضه المسلمون كان مستمدا أصلا من الأسلوب الاسلامى الذى أمر به القرآن ، ومن المنهج النبوى الذى قام على الدعوة بالحكمة والموعظة ، فلا تهديد ولا وعيد ، وانما عرض يترك للناس حرية التفكير والاختيار ، ومستمدا أيضا من المسلك الحميد للخليفين أبى بكر وعمر ، فلم يكن أحدهما يلجأ الى الاجبار أو التهديد ، انما هى دعوة سلمية آمن بها وأمر باتباعها .

ولابد لنا من أن نشير أيضا الى خوف الروم من لقاء المسلمين . وانهيأر معنوياتهم ، بدليل أنهم لجأوا الى المفاوضات أملا فى الوصول الى حل سلمى ، ولا شك فى أن انهيار معنوياتهم كان من العوامل التى عجلت بهزيمتهم فى بابلون فبالمعنويات تشتد الهمة وتقوى العزيمة ويزيد الاصرار ، وبغيرها يكون الضعف والوهن والجبن والانهازام .

طالت مدة الحصار وامتدت سبعة أشهر ، وضاق المسلمون بطول المدة ، وكان الزبير بن العوام أشدهم ضيقا ، وأكثرهم رغبة فى انتهاء هذا الحصار ، فقام فى الناس وقال « انى أهب نفسى الله ، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » ، وتقدم ليلا الى الحصن ووضع سلما على سوره دون أن يظن اليه أحد وتساق السور ، فلما أصبح على رأس الحصن كبر وسيفه فى يده ، ووصل اصحابه الى مكانه ، واسقط فى يد الروم فلجتمعوا وقرروا الاستسلام وعرض جورج قائد الحصن الصلح فقبله عمرو ، وأغضب ذلك الزبير وقال له « لو صبرت قليلا لانتزات من السور الى داخل الحصن ولكان الأمر على ما نشتهى » واتفق على تسليم الحصن بكلفة ذخائره وآلات الحرب .

**لقد كانت معركة بابلون معركة المعنويات ...**

**\*\*\***

وبعد بابلون وقعت معارك أخرى كان النصر فيها كلها للمسلمين .

وتتقدم عمرو الى طرفوثي ، وتجمع الروم هناك لقتاله وأبلوا بلاء حسنا  
غير أنهم انهزموا .

ونلاحظ أنه تقدم اليها على الضفة الغربية للنهر من ناحية الصحراء حتى  
يتجنب خلال تقدمه المترع والقنوات التي تمثل مانعا مائيا تعوق التقدم . .

ثم سار الجيش الاسلامي الى نفيس . . . وهناك رأى عمرو أن يعبر  
النهر الى المدينة التي تقع على شاطئه الشرقى حيث تجهز الروم لاقائه  
بقيادة دومتيانوس في سفن كثيرة يدافعون بها عن المدينة ، الا أن القائد  
فقد أعصابه ، وانهارت معنوياته ، وهزم نفسه بنفسه ، اذ ترك الجند وهرب  
الى الاسكندرية ، وهرب الجند من ورائه الى قراهم ، ودخل المسلمون  
المدينة من غير مقاومة .

وتعرض المسلمون لموقف سيء عند كوم شريك ، الا أن ثباتهم وقوة  
معنوياتهم أخرجتهم من هذا الموقف سالين ، فقد أرسل عمرو قوة بقيادته  
شريك لمتابعة بعض الروم الفارين ، فاجتمع لهم عدد كبير من الروم وحملوا  
عليهم وكادوا يهزمونهم وأحاطوا بهم من كل جانب ، فأمر شريك احد  
رجالهم ويدعى مالك بن ناعمة ، فخرج على فرس أثقروا واقتحم به صفوف  
العدو حتى أتى عمرو بن العاص وطلب منه المدد ، فلما علم الروم بدنو المدد  
فروا هاربين ( سمى موضع القتال كوم شريك باسم القائد العربي ) .

وقرر الروم مواجهة المسلمين عند حصن كريون . . وكان الموقع مناسباً  
للمواجهة من عدة وجوه . . . ففيه حصن منيع يساعد الجند ويشد أزهمهم . .  
والموقع متسع يسمح بالمشاورة . . . والترعة تحميهم . . . والطريق من خلفهم  
الى الاسكندرية يعطى لهم عمقا . . .

وتولى تيودور وهو قائد شجاع مقدام قيادة الروم . . . ودار قتال  
عنيف والامدادات مستمرة على جبهة الروم . . وحمل المسلمون مرة بعد  
أخرى حملات شديدة ، وأبطأ الفتح عليهم ، وصلى عمرو بالناس صلاة  
الخوف ، واستمر القتال عشرة أيام شديداً عنيفا وأحرز المسلمون النصر في  
النهاية وفتحوا المدينة وهزموا الروم . . .

حدث خلال القتال أن جرح عبد الله بن عمرو جرحاً شديداً ، فطلب من  
وردان مولى عمرو - وكان يحمل لواء المسلمين - أن يرتد قليلاً يطلب

( م ١٢ - شخصيات عسكرية اسلامية )

الروح ، فقاتل له وردان « الروح تريد .. الروح أملك وليس خلفك » ...  
واقبلوا معا على القتال .. فلما سمع عمرو قتل « انه ابني حقا » .

### وتقدم المسلمون الى الاسكندرية ...

وكانت المدينة مسلحة بقوة تزيد على الخمسين ألفاً ، وكانت القوات فيها وفيرة ... هذا فوق أنها تملك طريقاً للامداد عن طريق البحر لا يستطيع العرب ايقله أو تهديده ، ذلك أنهم كانوا لا يملكون شيئاً من آلات الحصار ... ولم تضعف هزيمة المسلمين ازاء هذا الموقع الذي راوه يختلف عن المواقع الأخرى التي واجهتهم ، فهم لا يحاربون عدوهم الا بهذا الايمان الذي ملأ قلوبهم وعمرت به جوارحهم .

وقرر عمرو حصار المدينة ... وكان بعيد النظر فقد رأى أن يبقى جنده بعيداً عن مرمى المجانيق التي كان الروم يستخدمونها من فوق الأسوار يلقون بها على الجند المسلمين وابلا من الحجارة .. وظل المسلمون على حصارهم للمدينة أملاً في خروج الروم لمواجهة وجهاً لوجه .. وظل الحصار قائماً حتى قرر الروم تسليم الاسكندرية بمقتضى معاهدة عقدت بين الطرفين حمل شروطها قيرس فرحب به عمرو قائلاً « لقد أحسنت في الشخوص الينا » ورد عليه قيرس « لقد أعطاكم الله هذه الأرض ، فلا تدخلوا في حرب مع الروم بعد اليوم .. فام تكن بيننا وبينكم عداوة قبل اليوم » .

الا أن الروم عادوا مرة أخرى الى مصر ، في عهد عثمان بن عفان ، وكان قد عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، وولى مكانه عبد الله بن سعد ابن أبي سرح .. وروى ابن الأثير أن بعض أهالي الاسكندرية دعوا قسطنطين امبراطور الروم للعودة الى الاسكندرية ، واستجاب الامبراطور لدعوتهم ، وأعد جيشاً قوياً مدعوماً بأسطول بحري تولى قيادته أحد رجاله المفلويز ويدعى منويل ... ودخل الأسطول ميناء الاسكندرية ، واستولى الروم على المدينة ، ثم تقدموا في طريقهم الى القسطنطينية عاصمة المسلمين .

وتنبه الخليفة عثمان بن عفان ، ورأى أن واليه عبد الله قد أساء الولاية في مصر فأغضب الأهالي بزيادة الضرائب ، وبإهمال تحصين البلاد وحمايتها ، حتى أن أهالي القرى كانت تنثور على المسلمين وتنضم الى الروم .

وفكر الخليفة في الأمر ، ثم قرر أن يبعث بعمر بن العاص لمواجهة الهجوم المضاد .. وتحرك عمرو فعلاً على رأس خمسة عشر ألفاً ...



## - ١٧٩ -

والتمتى الجيشان فى نقيوس . . وكان اللقاء عنيفا قاسيا دار فى البر وفى  
النهر . . وكل من الطرفين يقاتل بحماس وبسالة وشجاعة ، وكثر الترامى  
بالنشاب ، وأصيب خلال القتال فرس عمرو فظل يقود المعركة راجلا .

وشد المسلمون على الروم وهزموهم فارتدوا الى الاسكندرية ، وطردتهم  
قوات عمرو الى هناك ثم حاصرتهم .

ولجأ عمرو الى الدهاء — سلاحه الرئيسى وقت المحن — فأعطى رجلا  
من الاسكندرية يدعى ابن بسامة الأملن على نفسه وأهله وممتلكاته مقابل أن  
يفتح له أبواب المدينة . . . ودخلها عمرو ، وقتل منويل ، ووضع السيف فى  
رقاب الروم ، وأشعل النار فى المدينة .

وانتهى أمر الروم نهائيا من مصر .

واستقر الأمر للمسلمين .

### الشئون الادارية

ان أية قوة محاربة قل عددها أو كثر ، تكون دائما فى حاجة الى ترتيبات  
خاصة تيسر لها عملها وتخفف عنها ظروف المعركة وأحداثها . . هذه الترتيبات  
يطلق عليها فى الحرب الحديثة اسم الشئون الادارية .

وجميع العسكريين يضعون الشئون الادارية فى المقام الاول بالنسبة  
للمعركة ، فهى متممة لاعداد السلاح ولتوافر الروح المعنوية ، ذلك أنها تتصل  
اتصالا وثيقا بالمعركة وبالمقاتلين ، وكلما كان مستوى الشئون الادارية على  
مستوى المسؤولية فلان الجيش يكون مطمئنا عند مواجهة العدو ، وفساد أو سوء  
تنظيم الشئون الادارية فى وقت المعركة يفسدها ويؤدى الى عواقب وخيمة .

ورغم أن نشاط الشئون الادارية فى الحرب الحديثة يتم على رقعة واسعة  
وفى حدود كبيرة ، فإنها فى وقت عمرو كان لها وجودها العملى ، وأثبتت  
كفاءتها ومقدرتها ودورها الكبير فى كسب الحرب

ان وجود الجيش فى أرض غريبة ، وبين أقوام لا تربطه بهم صاة ، أمر  
شاق تواجهه القيادات ، ولهذا فأنها تلجأ غالبا الى الوسائل التى تتفاهم بها  
مع أهل البلاد وتتعامل بمقتضاها معهم ، وفى مقدمة هذه الوسائل دراسة طبيعة  
أهل البلاد وأخلاقياتهم وعاداتهم وتقاليدهم حتى تكون تصرفات الجند داخل

## - ١٨٠ -

هذه البلاد متفتحة مع هذه الدراسة ، فلا يصدر عن الجند ما يفضب الناس منهم ويشهرهم عليهم ، فينصرفون عنهم ، وفي ذلك خسارة كبيرة على الجيش الذي يحرص قاداته على أن يجد العون من أهل البلاد ، حتى لا يثيروا من المشاكل ما يؤثر على حالة الاستقرار الذي تنشده القيادة .

ومن أجل الأمثلة واسطعها ما فعله نابليون حين جاء الى مصر ، فقد درس طبيعة الشعب المصري وحاول أن يتقرب اليه في محاولة يزيل بها الجمود بينه وبين قوائمه ، فكان يحضر احتفالات المصريين ويرتدى ملابسهم ، ويشاركهم في مجالسهم ، ويسمى الى أن يندمج جنوده مع كافة أفراد الشعب .

وكذلك فعل عمرو بن العاص في مصر ... وقد سبق أن اشرنا الى أنه حضر اليها زائرا قبل أن يأتيها فاتحا ، وعاش فيها فترة ، فدرس أحوالها وعرف طباع أهلها وعاداتهم ، وشاهد آثارها ولمس كثرة خيراتها ، وذكر الكندي أنه عرف مسالك البلاد وطرق القدوم اليها ، وأفادته هذه الزيارة كثيرا حين عاد الى مصر فاتحا .

اول عمل قام به عمرو هو **منحه الأمان للبطريق بنيامين** ، فقد أحس بتعلق القبط به وبمحبتهم له ، وكان بنيامين رئيس الأساقفة ويتولى السلطة الدينية في مصر ، وكان لولايته هوى في قلوب الناس لحكمته وحسن رايه ، حتى أنه كان حبيبا اليهم عزيزا عليهم ، لم يتساهل في أمر الدين ، ولم يغمض عن رذيلة في الخلق ، وكان يأخذ القساوسة بالشدة اذا هم جاوزوا الحد في حياتهم .. كان يسعى الى أن يطهر الكنيسة ، ويجزى المسمي من أهلها ، وكان يهدف الى اعادة وحدة الكنيسة القبطية وأن يعيد اليها اطمئنانها واستقرارها ... وكان قد اضطر الى الهرب من الاسكندرية عقب ظهور دعوة قيرس كما اوصى الأساقفة بالهجرة الى الجبال والصحارى ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه .

أصدر عمرو أمرا بمنح البطريق الأمان ودعاه الى العودة آمنا على نفسه وقال في ذلك « فليات البطريق الشيخ آمنا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها ، لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة » .

وبلغ الأمان بنيامين فخرج من مخبئه في الصحراء وسافر الى الاسكندرية حيث رحب به عمرو وقال له « اننى لم أر يوما في بلد من البلاد التي فتحها الله علينا رجلا مثل هذا بين رجال الدين » ، وسعد بشيخين بكلماته فقتل لقومه

## — ١٨٢ —

وأتباعه «عدت الى بلدى الاسكندرية فوجدت بها أمنا بعد خوف ، واطمئنا بعد البلاء ، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم » .

وكانت عودة بنيامين فرصة لتقبل أهل مصر وجود الجند المسلمين بينهم وتعاونهم معهم وتسهيل أمورهم ومهمتهم .

### \*\*\*

ومن هذه أوائل أيضا دراسة البلاد وتفهمها . ذلك أن دراسة لغة البلاد وتفهمها من شأنه أن ييسر التعامل مع الناس ، فإذا تعذر دراستها وجب الاستعانة ببعض أبناء البلد يصاحبون الجيش ويكونون حلقة الاتصال بينه وبين الأهلى ، ولقد أثر عن نابليون أنه حفظ بعض الكلمات العربية خلال وجوده فى مصر وكان يتكلم بها مع الناس تقريبا اليهم ودفعا بالطمأنينة الى نفوسهم ... أما عمرو بن العاص فقد تعذر عليه وعلى جنده التحدث بغير العربية ، وكان الأهلى فى مصر — القبط والروم — يتحدثون بلغتهم ، ومن هنا أصبح انتفاهم متعذرا بين الجيش والأهلى ، ولم ييأس عمرو ... بل لجأ الى بعض رؤساء القبط وقربهم اليه واصطناهم وأحسن معاملتهم وجعل منهم أداة اتصال بينه وبين أهل البلاد ، مما ييسر التعامل بين الطرفين ، وسهل التفاهم بينهما .

### \*\*\*

ان التحرك فى داخل البلاد التى تدور فيها المعارك عملية شاقة لأنها تتطلب طرقا ميسورة ومأمونة يمكن التحرك عليها والانتقال بواسطتها حتى تصل القوات الى مواقع القتال وهى محتفظة بقوتها وحيويتها ، دون أن يصيبها جهد أو تعب ، أو يؤثر على امكانياتها فى القتال وقدرتها على ممارسته ، ولم يجسد عمرو صعوبة فى حل هذه المشكلة الادارية ، فبعد أن احتل حصن بابليون ، وتحرك بقواته فى اتجاه الاسكندرية سحب معه عددا من القبط الذين دخلوا فى سلطانه ، واستعان بهم فى اصلاح الطرق واقامة الجسور .

كما أنه أراد اقامة جسر فوق النيل بجانب بابليون يسهل التحرك وييسر الانتقال ، وكانت اقامته تتطلب توفر مواد البناء ، وهى مواد لم تكن متوفرة عند المسلمين ، ولهذا انتهز فرصة جلاء كثير من المنازل والتصور المحيطة بالاسكندرية وهجرة أهلها الى داخل المدينة، فأمر بأن تنزع أخشابها وحديدتها، وأن يرسل الى بابليون حيث أقام الجسر .

### \*\*\*

## ومن أهم المشاكل الادارية مشكلة وجود اتصال مباشر بين القائد أينما كان وبين جنده .

فال اتصال الجيد يسهل وصول المعلومات وتلقى الأوامر حتى تسير الأعمال الحربية في الخط المحدد لها وبالأسلوب المطلوب ، ولقد بذلت القيادات الحديثة قصارى جهدها لتوفير وسائل الاتصال ، ولهذا فاننا نجد في التشكيلات الحديثة سلاح الإشارة وهو سلاح يشرف على وسائل الاتصال ، ويجعلها على مستوى خدمة القوات بصورة ناجحة وفعالة ، ولا يفوتنا أن نوضح أن القيادات المختلفة تبذل جهدا كبيرا - تقديرا منها لأهمية وسائل الاتصال - لتعطيل وسائل اتصال العدو لضمان وصول التعليمات والأوامر مما يؤثر تأثيرا مباشرا على تحرك القوات وتصرّفها .

ولقد أعطى عمرو لهذه المشكلة كل اهتمامه وعنايته .

فقد حدث في موقعة كرم شريك أن أحاط الروم بالمسلمين من كل جانب ، وهاجموهم هجوما شديدا قسريا ، وانقطع الاتصال بين القوة الإسلامية وقيادتها ، وكان المسلمون في أشد الحاجة الى مدد يشد من أزهم ويعينهم على عدوهم ، فأمر شريك قائد المسلمين في المعركة مالك بن نعامة بلفتحات قوات الروم على فرسه والاسراع الى مركز الرئاسة حيث يوجد عمرو وأخطاره بالموقف وطلب العون ، وفعل مالك ما أمر به ، وأدرك الروم الهدف الذي كان ينشده مالك فأسرعت قوة منهم وراءه لتمنعه من الاتصال برئيسه ، ولكنه أفلت ووصل الى حيث يقيم عمرو ، وثقل اليه صورة الموقف ، فأسرع بأعداد المدد اللازم ، الذي وصل الى أرض المعركة في الوقت المناسب ، وأسهم في تحويل الهزيمة الى نصر .

وحرص عمرو على أن يكون الاتصال بينه وبين القيادة العامة في المدينة قائما حتى تكون لدى الخليفة صورة واضحة المعالم عما يجري في مصر ، وحتى يكون الخليفة على استعداد لتقديم ما يطلب منه من المدد سلاحا أو مقاتلين ، وبقي الاتصال قائما رغم بدائية الوسيلة ، وهي استخدام الخيل في قطع المسافة بين مصر والمدينة وعلى ظهورها رسل يحملون المعلومات والأوامر ، فلم يكن من المتيسر إيجاد وسيلة أخرى أسرع وأجدي ، وعموما فإن هذه الوسيلة كانت ايجابية لأنها حققت الهدف منها .

## ومن المشاكل الادارية التي تعترض الجيش مشكلة أبواء الجنود وسكنهم

ولقد أبدى عمرو اهتماما لحل هذه المشكلة ، فأمر بإقامة مدينة الفسطاط ، وسمح لجنده بامتلاك الأرض وإقامة المنازل ، وفرض على المصريين فريضة الضيافة لمدة ثلاثة أيام

وروى البلاذرى ان الزبير اختط المدينة واتخذ لنفسه فيها دارا ، وجعل فيها السلم الذى صعد به الى سور الحصن ، وابتدأت المدينة صغيرة المساحة ، ثم نمت نماء سريعا بعد سنة من انشائها ، وصارت عاصمة مصر بعد أن رفض الخليفة عمر أن تكون الاسكندرية هى العاصمة ، وكانت أكثر منازلها من اللبن ، علت المباني بها الى أربع طبقت وخمس .

وأقام عمرو فى الموضع الذى كان فيه لواؤه مسجدا سمي مسجد أهل الراية ، كانت له ستة أبواب وفيه منبر يقوم عليه فى خطبته ، وبنى قبلته كما ذكر ياقوت ثمانية من أصحاب النبی منهم الزبير والمقداد وعبادة بن الصامت .

وبنى عمرو مقبرة للمسلمين .

وبنى أيضا حاملت يستخدمها الجنود حفاظا على صحتهم وضمانا لنظافتهم .

## القائد والجنـد

القيادة هى فن معاملة الطبيعة البشرية .

والجنـد فى الحرب يحملون السلاح ، ويخوضون غمار المعارك ، ويتعرضون كل لحظة للموت ، ولا شك أن هناك دوافع كثيرة تدفع الجنـد الى خوض المعركة بروح وقوة وعزم واصرار ، دون أن يفكر لحظة فى الموت الذى يواجهه ، وإنما يكون كل تفكيره فى شيء واحد فقط ، هو انتزاع النصر بأية وسيلة وبكل الجهد وبأعلى ثمن ، ولو كان ذلك على حساب روحه وحياته .

وفى مقدمة هذه الدوافع تأتي العلاقة التى تربط بين القائد والجنـد ، هذه العلاقة تقوِّد عنها ثقة القائد فى جنده ، ثم ثقة الجنـد فى قادتهم .

وهن أهم هذه العلاقة اهتمام القائد بشئون جنده وعنايته بأمرهم وحرصه على سلامةاتهم ومعاملتهم بمعاملة طيبة .

وإذا أحس الجنـد باهتمامات القائد كلن ذلك موضع تقديرهم ، فبيادولونه مشاعرهم وأحاسيسهم ، ويبدلون من ذات أنفسهم فى سبيل تحقيق النصر الذى يسعى اليه .

يقول سترط في هذا المعنى « يجب أن يعرف القائد كيف يعطى جنوده تعييناتهم ، وأى مؤن أخرى لازمة للحرب » .

وروى عن أحد القادة العظام أنه خاطب ضباطه يوما فقال لهم : « انى أناشدكم بصفتكم ضباطا ألا تأكلوا أو تدخنوا أو تجلسوا أو حتى تستندوا على شجرة ، حتى تتأكدوا شخصا أن جنودكم قد هبأت لهم الظروف أن يفعلوا ذلك قبلكم » .

وكان نابليون يمر على الجنود يجلس معهم ويتحدث اليهم ، ويحل مشاكلهم بنفسه ، ويناقشهم في كل الأمور ، ويهيئ لهم وسائل الراحة والترفيه .

وأثر عن مونتمجري قوله لضباطه : « اذا أهملت العامل الانسانى فلن تكون أبدا قائدا ناجحا » .

واذا أراد محقق منصف أن يقيم عمرو بن العاص من هذا الجانب لوضعه في مصاف القادة العظام الذين حفل بهم تاريخ الحرب .

فمنذ تولى عمرو قيادة جيوش المسلمين .. في الجزيرة .. في فلسطين .. في الشام .. في مصر .. في برقة .. في طرابلس .. وهو يسعى بصدق وإخلاص الى زيادة صلته بجنده وتوثيق علاقته بهم ... وكان ذلك من أهم اسباب انتصاراته في هذه الأرجاء كلها .

بعد أن استتب الأمر لعمرو في مصر ، واستقرت الأحوال بها ، قرر أن يمنح جنده حق امتلاك الأرض ، مكافأة لهم على جهادهم الكبير وصبرهم الطويل واعترافا بفضلهم وتقديرا لبطولاتهم ، وكانت تعليمات الخليفة تقضى بغير ذلك حتى يتفرغ الجند للقتال دون ارتباط بالأرض ، ولكنه استطاع أن يقتنع الخليفة برأيه ، فأجازته وسمح للجند بامتلاك الأرض ، على أن يعاملوا كسائر الناس ، فيدفعون عنها الخراج .

وأعطى عمرو للجند نصيبهم من الجزية ولم يحرمهم وسمح لهم بإقامة دور للأقامة ، وبنى لهم مسجدا يقيمون فيه شعائر الدين .

ومن أبرز ما اتصفت به قيادة عمرو فوق رعايته لمصالح جنده ومحافظة على سلامتهم ، اعتماده على القادة الأصغر ... قادة الصف الثانى .

فكما اهتم عمرو بالجند اهتم بالقادة الأصغر ، وارتبط بهم برباط الأخوة

والاحترام والتقدير ، ايماناً منه بأن القائد لا يعمل وحده في الميدان ولا يتحمل وحده عبء المعركة ومسئولية القتال ، فهناك قادة أصغر يعملون تحت قيادته ، هم حلقة الاتصال بينه وبين الجند ... وهم عادة يكونون على مستوى يسمح لهم بتفهم الأوامر وتنفيذها على الوجه الذي يريه منهم ، ولهذا فإن العلاقة بين الطرفين يجب أن تقوم على الحب والود والتقدير والاحترام ، ومن هنا تتولد الثقة ... ولا شك في أن احجام القائد عن منح معاونيه من القادة الأصغر سلطاتهم عمل لا يتلاءم مع طبيعة الحرب ، ويعتبر تخلفاً وجموداً في تشكيم القائد .

ومن واجب القائد أن ييث في القادة الأصغر الصفات اللازمة التي تؤهلهم مستقبلًا ليكونوا قادة لهم مكانتهم في التاريخ العسكري ، يحملون الرسالة ويكملونها ... يجب أن ييث فيهم اليقظة وحسن المظهر ، والشجاعة ، والحزم ، والثقة ، وقوة التحمل ، والقدرة على التصرف ، والحماس ، والتواضع ، والروح المرحية ، والنزاهة ، والذكاء ، والحكمة ، والعدل ، والولاء ، وقوة الشخصية ، والمشاركة الوجدانية للجنود .

وكان اهتمام عمرو بالقادة الأصغر جزءاً من سياسته العامة في الاهتمام بكل من يخرط تحت قيادته ، ولقد نال القادة نصيباً وافراً من اهتمامه وتوجيهاته وارشاداته .

وكان القادة الأصغر يدركون عظم المسؤولية الملقاة على عاتق القسائد ولهذا تجمعوا حوله في رباط قوى يبادلونه الرأي ويناقشونه في لين ، ويقدمون المشورة ويتفقدون الأوامر ، وكانوا خير معاونين ، اعتمد عليهم اعتماداً كبيراً في كل معاركه وكانوا جميعاً يتميزون بصفات القائد وسماته ... فيهم ايمان عميق ، وفكر ثاقب ، وعقل ناضج ، وعقيدة راسخة ، ووجدان حي ، وشجاعة موفورة واقدام جرىء ...

ولقد وصف الخليفة عمر بعضهم في رسالة بعث بها الى عمرو قال فيها « انى قد امددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل بمقام ألف » ... من هؤلاء : الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبيدة بن الصامت ، وخارجة بن حذافة ، وآخرون ... ولقد أسند عمرو الى كل منهم عمليات مستقلة ، فقاموا بها على خير وجه وادوها أحسن ما يكون الأداء .

روى البلاذرى أن عمراً وجه خارجة بعد فتح الاسكندرية الى الفيوم والأشمونين وأخميم وقرى الصعيد ، فنجح في مهمته وصالح أهل هذه البلاد .

- وكان عبادة سفيره الى القوقس .
- والزبير بن العوام كان له فضل في فتح حصن بابلين .
- ويسر بن أوطاة فتح مدينة دوان آخر فتوحات شمال أفريقيا .
- وعبد الله بن الزبير فتح صبراته .
- وعقبة بن نافع فتح برقة وزويلة .
- وعبد الله بن حذافة كان بطل معركة عين شمس .
- وعمر بن وهب فتح تنيس ودمياط ودميرة .
- وغيرهم كثيرون ... كل منهم أدى واجبه بذمة وضمير وشرف .

### السياسة والحرب

ان القائد العسكري يجب ان يتصف بالسياسة والكياسة .  
 أى أن يكون انسانا اجتماعيا ، يعرف كيف يستغل الظروف لصالح القضية التي يجاهد في سبيلها ، وكيف يكتسب الشعوب العام وعطف الناس واحترامهم وتقديرهم .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى المثل في هذا المجال يوم الفتح العظيم ، حين دخل مكة ، واستسلمت قريش كلها ، وانتظرت حكمه فيها ... لقد عرفنا رسول الله عن أعدائه ، ولم يشأ أن يذيقهم ذات الكأس التي أجبروه يوما على أن يشرب منها ... لقد سميت نفس رسول الله كل السمو ، وارتفعت فوق الأحقاد وفوق الانتقام ، .. ها هم أولاء أهل قريش كبيرهم ووضيعهم في قبضة رسول الله ، أمره فيهم نافذ ، وحياتهم معلقة بكلمة تفوه بها شفتاه ، ... وها هو ذا رسول الله وقد أمكنه الله من عدوه ، وجعل معه رجال ينفذون رغبتة ويحققون كلمته يستطيعون أن يبيدوا قريشا بأكملها فهم مع رسول الله في موقف المنتصر القادر الذي لا ترد له إرادة ولا يخيب له أمر ... سأل رسول الله قومه « ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » فقلوا : « أخ كريم وابن أخ كريم » .. فعفا رسول الله عنهم قائلا : « اذهبوا فانتم الطلقاء » ... وكان عفوه عليه السلام عملا سياسيا حكيما كانت له آثار نفسية بعيدة المدى لدى جميع العرب الذين كانوا يتوقعون منه الثأر ، فلما وجدوه سمحا كريما جاءوا اليه يؤيدونه ويبيعونه ، وأسلمت قريش رجالا ونساء ، وبقيت .



## - ١٨٧ -

وقائدنا عمرو كان يجيد الجمع بين الحرب والسياسة ، وعرفت قريش عنه ذلك في جاهليته ، فجعلته سفيرها لدى النجاشي ، وعرف عنه ذلك رسول الله بعد اسلامه فجعله سفيره الى عمان .

لقد ساس عمرو البلاد التي فتحها - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة له وأسوة في كل عمل قام به - بأسلوب سياسي حكيم استمده من روح الاسلام الكريمة وأصوله العظيمة ومبادئه الانسانية ، فكانت مكاسبه كثيرة ، وأقبل عليه الناس في مصر وفي شمال أفريقيا يرحبون به وبالاسلام .

في مصر كانت لعمرو جولات سياسية تاجحة بجانب جولاته العسكرية المظفرة ... وكان التسامح الديني أول خطوة سياسية موفقة له ، فقد أباح حرية العقيدة والدين ، وسار في هذا الاتجاه على نهج الاعتدال والتسامح ، ولم يكن له هوى مع أحد المذاهب الدينية السائدة في مصر ، وثق منها موقفاً أرضى الطرفين ... وجعل صلته برجال الدين من الطرفين متساوية تقوم على أساس الاحترام والتقدير وحرية العبادة ، مع الزام الطرفين بالسياسة العامة التي تقرها القيادة السياسية الاسلامية في حكم البلاد .

طلب المقوقس من عمرو أن يلتقي ليتباحثا في أمر الصلح ، فلما التقى به رحب به ترحيباً أشعر الرجل بالسعادة والغبطة ، وأكرمه وأحسن وفادته ، وقال له : « لقد أحسنت في الشخوص إلينا » فسعد الرجل وقال له : « ان الله قد أعطاكم هذه الأرض » .

وأعظم عمل سياسي قام به هو اطلاق سراح بنيامين ، فعقد أحسن بمدي تعلق الناس به فأمر « أينما كان البطريق نعهده بالحماية والأمان وعهده الله ، فلبأت إلى هاهنا في أمان واطمئنان ، ليلي أمر ديانته ويرعى أهل ملته » ، وجاء في رواية أخرى أنه قال : « فليات الشيخ والبطريق آمناً على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة » .. وهو في هذا القول يمتح الأمان لكافة الاقباط في مصر وفي غيرها وتحققت بذلك الحرية الدينية ، وعاد بنيامين مقبول بما يليق به من الترحاب والتكريم بعد غياب ثلاثة عشر عاماً عشرة منها في حكم هرقل على حد ما ذكره سلويزس .

وعفا عمرو أيضا عن جميع رجال الدين ودعاهم الى العودة من مخابئهم ليباشروا عملهم الدينى فى حرية كاملة مطلقة ، وصور ساويرس اثر هذا العمل السياسى الجليل عند عامة المصريين فقال : « فرحوا كما تفرح الأسماك اذا حلت قيودها ، وأطلقت لترتشف من لبان أمهاتها » ، وهكذا خرج القبط من عهد ظلم وعسف تطاول بهم الى عهد فيه سلام وأمان واطمئنان . . .

والخطة السياسية الأخرى كانت فى أسلوب عمرو فى التعامل مع بنيامين ، فقد كان يلتقى به دائما ويستشيريه فى أمور البلاد ويعمل بمشورته ورأيه . . . لقد استماله الى جانبه فاستمال معه الشعب كله .

**ومن الأعمال السياسية الهامة إطلاق الحريات . . . كل الحريات . . .**  
وكان من نتائج ذلك أن أقبل عتلاء الروم والمصريين على دراسة المذاهب المختلفة ، ودخل كثير منهم فى الاسلام بعد اقتناع ودراسة .

لم يفرض عمرو خلال حكمه نظاما سياسيا خاصا ، وأبقى الحكم المدينى على ما هو عليه ، لم يفر فيه شيء . . . ولما كان العرب رجال حرب وسيف فانه رأى أن يبقى أكبر حكم الروم فى أعمالهم يديرونها كما كانت سائرة عليه من قبل ، وسارت طائفة كبيرة من عامة الروم على هذا المنهج ، الا أن البعض منهم لم يرض أن يبقى تحت حكم الاسلام فجعل العرب مكانهم عمالا من القبط . . . ترك المسلمون أعباء الحكم وسياساته لأهل البلاد ، وتفرغوا لشئون الدين وأموره .

**وكان نظام الضرائب الذى وضعه عمرو جزءا من خطته السياسية لاصلاح المجتمع المصرى والنهوض به ،** لقد خفف من الضرائب وجعلها تتناسب مع الدخول حتى لا يرهق الناس . . . وأعفى عمرو القرى التى أصابها الخراب من الجباية ، وجعل فى كل بلدة قطعة أرض يخصص ريعها للمنافع العامة .

\* \* \*

وأخيرا مات عمرو . . . ودفن بسفح المقطم .

— ١٨٩ —

مات بعد حياة طويلة حافلة بالعمل الجاد والجهاد العظيم .

عندما جاءت الوفاة استقبل القبلة وقال مناجيا ربه : « اللهم انك امرتنا  
بمعصينا ، ونهيتنا فارتكبنا ، وهذا مقام العائذ بك ، فان تعف فأنت اهل ،  
وان تعاقب فبما قدمت يداي ، اللهم لا قوى فاعتصر ، ولا برىء فاعتذر ،  
ولا مستكبر بل مستغفر استغفرك وأتوب اليك ، ولكن لا اله الا الله » .

وقال لابنه يصف لحظاته الأخيرة « والله كأن السماء قد اطبقت على  
الأرض ، وكأنى أنفوس من سم ابرة ، وكأن غصن شوك يجذب من قدمي  
الى هامتي » .

\*\*\*



الشخصية الخامسة

المثنى بن حارثة

« رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العباد »  
قيس بن عاصم

## غير مجهول النسب

شخصية عربية أصيلة ممتازة ، كان لها دور كبير في حياة العرب والاسلام ... دور ملء بالبطولات عامر بالأمجاد ، زاهر بالقومية أصيل في أحداثه وقائمه .

قلد عربي له تاريخ عسكري مجيد لم تسلط عليه الأضواء ، رغم أن بطولاته كانت حديثا على كل لسان ، وعبريته لم يختلف فيها مؤرخان .

أول مسلم هاجم امبراطورية الفرس في عقر دارها ، فحل عن المسلمين مسئولية لم يحملها غيره ، وجرا العرب على محاربة الفرس فرغ بذلك معنوياتهم .

كان نشاطه العسكري فوق أرض العراق بداية لفتحها فيما بعد .. وكانت معركة البويب ايدانا بانهيار الدولة الساسانية وانتشار الاسلام في ربوع العراق .. تنالها كما كانت معركة اليرموك ايدانا بانهيار دولة الروم وانتشار الاسلام في ربوع الشام .

بدأ حياته العسكرية في بداية عهد أبي بكر ، وانهاها شهيدا متأثرا بجراحه التي أصيب بها في معركة الجسر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ... وبين البداية والنهاية كتبت وسجلت قصة حياة بطل لا يبارى كانت مشرقة حافلة بالأمجاد والبطولات .

هذا هو المثنى بن حارثة الشيباني ...

« رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد » ، على حد وصف قيس بن عاصم ، حين سأل الخليفة أبو بكر : « من هذا الذي تأتى أخبار وقتلته قبل معرفة نسبه ؟ » .

والمثنى ينتمى الى بنى شيبان ، أحد فروع بكر بن وائل ، الذي ينتهى نسبه في ربعة ، كانت لغتهم العربية ، وعبادتهم الأوثان ، وموطنهم في اليمامة فيها بين البحرين الى أطراف سواد العراق ، وحدد الهمداني ديارهم فقال : « انها تبدأ من اليمامة الى البحرين ، الى سيف كاظمة ، الى البحر ، فأطراف سواد العراق ، فالأبلة ، فهيت » ، وذكر البلاذري أن أرض البحرين كانت مملكة للفرس ، وكان بها كثير من العرب من عبد قيس وبكر بن وائل وتميم ، وكانوا مقيمين في باديتها .

كان لبني شيبان أمجاد كبيرة وأيام جلييلة في تاريخ العرب ، ظهر منهم هانيء بن قبيصة صاحب واقعة ذي قار .. وبسطام بن قيس صاحب القول المشهور : « قد علمت العرب أنا بناء بيتها الذي لا يزول ، ومفرس عزها الذي لا يحول ، لأننا أدركهم للثار ، واضربهم للملك الجبار ، وأقولهم للحق ، والدهم للخصم » ... ومنهم مرة بن ذهل وابنه جساس الذي كان قتله كليباً السبب المبشر لحرب بين بكر وتغلب دامت سجالات أربعين عاماً .

ذكر ابن الأثير أن الاسلام جاء : « وليس في العرب أعز داراً ولا أمتع جاراً ولا أكثر حليفاً من شيبان » .

وسجل لهم التاريخ موقفاً بطولياً في موقعة ذي قار التي دارت رحاها ضد الفرس ، فقد زلزلت سيوف بني شيبان ورماحها تاج كسرى ، وقضى رجال بني شيبان وأبطالهم على جموع الفرس حتى أن رسول الله قال لأصحابه من يوم ذي قار : « هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نصروا » .

في هذه البيئة التي تميزت بالبطولة والكفاح والرجولة نشأ المثنى وترعرع ، وكان لها دون شك أثر كبير في انماء روحه ونشؤته على الايمان بالبداء والتصلب بالمعقيدة والجود بالنفس والصدق والعزيمة والصبر والجلد والتحمل والشجاعة والاقدام والقوة والتفنن في ضروب الفروسية والاستماتة في الحرب .

ولقد اختلفت الروايات في اسلام بني شيبان ، جاء في بعضها أن المثنى وفد على النبي سنة تسع مع وفد قومه فأسلم وأسلموا ، وبعث رسول الله إليهم العلاء بن الحضرمي ليتولى شئون الدين عندهم ، ويعلمهم مبادئ القرآن وأصوله ، ويفقههم فيه ويؤمهم في صلاتهم ويقضى بينهم بما يقضى به الدين ... وجاء في البعض الآخر أن الرسول بعث العلاء بن الحضرمي في العلم الثامن الهجري الى أهل البحرين يدعوهم الى الاسلام ، وذكر البلاذري أن رسول الله بعث معه كتاباً للمنذر بن ساوى جاء فيه : « سلام على من اتبع الهدى ، فإني أدعوك الى الاسلام .. أسلم تسلم يجعل الله لك ما تحب ، وأعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر » .

وأسلم كثيرون من بينهم بنو شيبان ، وبقي من بقي على دينه وادى الجزية .

ومع اختلاف الروايات ، فإن هناك اتفاقاً في الرأي على أن بني شيبان دخلوا في الاسلام عن ايمان واقتناع ، وكان المثنى بن حارثة من أوائل المؤمنين ، وكذلك كانت زوجته سلمى ؟

( م ١٣ — شخصيات عسكرية اسلامية )

## - ١٩٤ -

ولا شك في أن اسلام قوم كبنى شيبان كان نصرا للاسلام وفتحاً مبيهاً في منطقة البحرين ... وليس أدل على ذلك من موقفهم من فتنة الردة فقد أبوا أن يستجيبوا لداعى الردة وبقوا على اسلامهم ، وظل المثنى مؤمناً راسخ العقيدة ، أبى أن يعود أدراجه الى عبادة الجاهلية ، واتخذ من المرتدين موقفاً ايجابياً ؛ فقاوم الحطم بن ضبيعة - زعيم المرتدين - الذى دعا قومه الى قتال أبى بكر والى منع الزكاة ، ثم جمعهم وسار بهم الى قطيف وهجر ، وانضم المثنى الى جيش المسلمين بقيادة العلاء بن الحضرمى الذى حركه أبو بكر الى البحرين لمواجهة المرتدين ، وشارك في بقاء راية الاسلام خفاقة عالية في هذه المنطقة التى يزيد من حساسيتها جوارها لبلاد الفرس حيث كانت النار تعبد .

ان الايمان القوى الراسخ في قاب وذهن ووجدان المثنى هو الذى حدد موقفه من الردة والمرتدين ، فقد كان هذا الايمان سياجاً حفظه وصانته فأصم أذنيه عن دعوة الردة ، ثم كان دافعاً أثاره وحمله فاتخذ موقفاً ايجابياً وجمع الجموع وانضم الى جيش العلاء وأبلى بلاء حسناً خلال القتال ، ثم تولى عملية مطاردة المنهزمين متهماً على طول ساحل البحر واستولى على القطيف وتقدم حتى جاور حدود بلاد الفرس ..

كل للمثنى اخوان : المعنى ومسعود ...

كان المعنى ساعده الأيمن في القتال ، لمس شجاعته وبسالته فجعل منه قائداً الخيالة ، وكانوا يطلقون عليها اسم المجردة ( أى الكتيبة من الخيالة التى لا مشاة معها ) .. شهد معه جميع معاركه ، وخاضها الى جانبه ، ومن أشهر عملياته العسكرية استيلائه على حصن المرأة ، وهو حصن قريب من البصرة كان لامرأة تدعى كامورازاد ..

وكذلك كان الأخ الثانى مسعود ؛ فجعله المثنى قائداً للمشاة ، فأصبحهم في معظم المعارك ، وأبلى بلاء حسناً في واقعة الجسر ، واستبانت في القتال وجرح ، ولم تمنعه اصلبته من المشاركة الجادة في موقعة البويب حيث نال شرف الاستشهاد .

وكان خاله عمران بن مرة أحد زعماء قومه وموضع فخرهم لبطلته وشهامته وبسالته ، كان له اسمه وأماجه وعلاو مكانته ورفيع منزلته ، حتى أن الشاعر العربى اعشى همدان قال عنه انه : « ساد في الجاهلية وساد في الاسلام » ، رأى فيه المثنى مثلاً وقدوة فاحتذى به واقتدى ببطلته وسار علي منهجه ونسج علي منواله .



وشاركته زوجه سلمى بنت حفصة حياته ، ورافقته الى رسول الله فاعلنت اسلامها ، وعاشت معه حياة جهاده كلها ، وشهدت معه المعارك فوق أرض الفرس ، ذاقته مرها وأهوالها ، وسعدت بالانتصارات العظيمة التي حققها زوجها ، وبقيت الى جانبه حتى أسلم الروح متأثرا بجراحه ... ولم تنس واجبها تجاه ديها كمرأة مسلمة لها دور ومهمة ، فظلت في الميدان بعد أن تزوجت من سعد بن أبي وقاص الذي تولى القيادة الاسلامية في جبهة فارس بعد وفاة المثنى ، وشهدت المعارك العظيمة تحت رايته حتى تم النصر الكامل ودانت دولة الفرس بالاسلام ...

وظلت تعيش بعد وفاته بطولاته في ميادين القتال ، وتتخيله في كل معركة يخوضها المسلمون بطلها ورجلها ، حتى أنه عندما هاجمت كتائب الفرس إحدى وحدات المسلمين يوم أرمات ( معركة القادسية ) صاحت هلعة متذكرة بطولة المثنى « وامناه ! ولا مثنى للخيال اليوم » ، وأغضبت صيحتها سعد بن أبي وقاص فطمها قائلا : « وأين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى » فقالت له : « أغيرة وجبنا » .

وارتبط اسم المثنى بيوم مجيد من أيام العرب هو يوم الفرات ، اذ امتطى صهوة فرسه الدليكة ، وتولى قيادة أهله وعشيرته في قتال ضد بني تغلب قرب الفرات ... لقد أحرز انتصارا رائعا عليهم وقتل رجالهم وأغرق كثيرين منهم في الفرات ، وساق أنعامهم وأخذ أموالهم ، وكان انتصاره أحدوثة زملائه ، حتى أصبح يوم الفرات حدثا تاريخيا يذكر به العرب أهم أحداثهم وتواريخهم وقد تغنى به شاعر من بني شيبان فقال :

ومنا الذي غشى الدليكة سـيـفه  
على حين أن أعيا الفرات كتائبه

### الكم والكيف

ان المتعمق في دراسة تاريخ الحرب والمتابع لظروفها وتطورها ، يدرك ان هناك نظريتين سادتا ميدان الحرب منذ عرف الانسان الحرب حتى يومنا هذا ...

النظرية الاولى هي الكم أى العدد .. ويقصد به عدد المقاتلين الذين يشتركون في القتال ويواجهون العدو ، وكمية السلاح التي يستخدمونها ، سادت هذه النظرية ميدان القتال خلال القرون الطويلة التي سبقت الاسلام ، يقدر كان النصر في المعركة دائما للجانب الأكثر عددا والأوفر سلاحا ، ولهذا

## - ١٩٩ -

كان القادة يسعون دائما الى ان يتوافر تحت لوائهم العدد الكبير من المقاتلين ، والعدة الكثيفة من السلاح ، وكان مجرد اجتماع هذا العدد يدخل الطمانينة الى قلب القائد فيضمن الى حد كبير النصر في لقله المنتظر مع عدوه .

وسعيا وراء العدد الكبير وجدت فئة الجنود المرتزقة ، وعرفت هذه الفئة في التاريخ ، وجاء ذكرهم في مواقع كثيرة ، واتخذ هؤلاء الحرب مهنة للكسب والرزق ، وكانت القيادات ترحب بهم وتدفع لهم أجورهم ، لأنهم كانوا يمثلون زيادة في عدد القوات مما يزيد الفرصة في كسب المعركة .

ولما جاء الاسلام واذن للمسلمين بحمل السلاح ومواجهة أعدائهم دفاعا عن عقيدتهم ووجودهم ، اهل الرسول نظرية الكم الى حد ما ، واهتم اهتماما بالغا بالكيف .. أمضى أنه عليه السلام اهتم بالفرد المحارب ذاته ، بقدراته وامكانياته ومشاعره ومعنوياته ... أى اهتم باليد القوية التى تحمل السلاح ، والقلب المؤمن الذى يخفق من خلف السلاح ، والعقل المفكر الذى يدبر وسائل استخدام السلاح ... وبذلك اقلم الاسلام النظرية الثانية التى سادت ميدان المعركة على انقاض النظرية الاولى .. أى أن الاسلام دعا الى الاهتمام بالكيف دون الكم ذلك أن الحرب تعتمد أساسا والى حد كبير على نفسية المقاتل ومعنوياته ويأتى الاهتمام بالسلاح في المرتبة الثانية ..

وهذه النظرية أخذت بها القيادات العسكرية التى جاءت بعد الاسلام وآمنت بها واعتمدت عليها في كافة خططها استعدادا لاية معركة ادراكا منها لأهمية الروح المعنوية التى هى — من وجهة نظر المشتغلين بعلم النفس — القدرة على العمل والصمود بتصميم وعزم مهما كان العمل قاسيا مرهقا .

ويؤيد ما نذهب اليه قول المارشال بودينى : « أن الفوز في الحرب يكسبه الطرف الذى يتمتع بروح معنوية أسمى من غريمه ، فالروح المعنوية غالبا ما تعاون الجيش على النصر حتى ولو كانت الظروف كلها مجتمعة ضده » ... وتسائل بودينى : « ما قيمة قوة الجيش في عدده وعدته ان كانت روحه المعنوية على درجة من الضعف ؟ » ، وأجاب فقال : « أنه لا شك يفقد معداته في الدور الاول من القتال ، ومن ثم يلحق الهزيمة » .

لقد انتصر المسلمون في بدر رغم قلة عددهم وكثرة عدوهم ذلك أنهم كانوا يتميزون بروح معنوية تفوق معنويات عدوهم .. وكلدوا أن ينهزموا في حنين يوم أعجبهم كثرتهم .. ومن أمثلة التاريخ الحديث أن الجندي الفرنسى حارب بهام ١٨٠٠ تحت قيادة نابليون وانتصر ، ثم حارب عام ١٩٤٠ تحت قيادة

قيجان وهزم ... ومرجع النصر والهزيمة هو التفاوت الكبير في المعنويات ..

عاش المثنى فترة حيله قبل أسلامه يشهد معارك المسلمين ضد أعدائهم ، وأدرك أن الاسلام ينتصر بالكيف دون الكم ، وأن جنده الميامين كتبوا أروع وأشرف صفحات التاريخ العسكري رغم قلة عددهم ، وأن النصر الذي حالفهم في مختلف معاركهم كان عامله الأول والأكبر يتمثل في معنويات المقاتلين التي حاضوا بها المعارك سعيا الى نصر عظيم او استشهاده كريم ..

وآمن المثنى بهذه النظرية ادنى وضع أساسها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل الكيف هو ركيزه معاركه ، فلم يهتم بالكم قدر اهتمامه بالكيف .. واعتمد في حروبه على معنويات رجاله دون كثرتهم ، وإيمانا منه أن الكثرة العددية لا تضمن النصر ، وأن السلاح في يد ضعيفة لا قيمة له ، وأن القلب الخالي من الايمان لا يصمد في معركة ، وأن النفس الضعيفة الخائفة التي تشنرى الحياه ونحصر عليها لا تجسر على طول المقام في الميدان ، وأن القدرة على القتال ومواجهة العدو تتوقف أساسا على ما في الرجال من بسالة وحماس وجلد ومبايرة وعزم .. وهمة وإرادة ، وبضحية وانكار للذات ، ودراية ومعرفة وخبرة وكفاءة ..

في ضوء هذه المعاني كلها ، ومن خلال ما آمن به المثنى ، اهتم القائد العظيم اهتماما كبيرا بنفسيه رجاله ، حتى أصبحوا قادرين على مواجهة الأحداث بما فيها من مخاطر ، قادرين على خوض المعارك وتحمل أهوالها دون أن تهتز أيديهم وهي تحمل السيوف والرماح ، أو ترتعد قلوبهم وهم يواجهون عدوا يفوقهم عددا وتسليحا ، أو تفلت أعصابهم وهم يتعرضون لمناجيات المعارك وما أكثرها ..

وخلص المثنى معاركه كلها وقواته على درجة عالية من المعنويات .. روح متوثبة راغبة في القتال مشتاقة اليه مقدمة عليه لا تخشى الموت ولكنها تتمناه سعيا الى الجنة التي وعد الله بها المقاتلين من عباده ... وكان هذا هو سر النجاح الكبير والفوز العظيم الذي أحرزته قواته في غالبية معاركه ... سمع المثنى بعض رجائه في إحدى معاركه يرددون في خوف وقلق واضطراب : « ما أسرع القوم في طلبنا » فقال لهم : « لو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين .. التمس الأجر ورجاء النصر » ..

يقول المثنى للمسلمين : « لا يعظم عليكم هذا الوجه ( يقصد الفرس ) ، فقد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على شقى السواد واجتروا من قبلنا ولها

ان شاء الله ما بعدها .. وتثير كلماته مشاعر الناس فيقوم أحدهم وقد هزقه كلمات القائد فيقول : « انما كان تعودنا عن غزو هؤلاء الفرس الى يومنا هذا شمشقة من شقاشق الشيطان ، واني قد وهبت نفسي لله » .. وتلتهب حماسة الناس وترتفع روحهم فيتقدمون للخروج حتى بلغ عدد الخرجين عدة آلاف .

وفي معركة البويب رأى المثنى خلا في صفوف بنى عجل فبعث اليهم يقول : « ان الأمير يقرئكم السلام ، ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم » ، فتثور حميتهم ، ويزداد حماسهم ، ويرددون في صوت كالرعد « نعم » .. تماما كما فعل مونجمرى حين تولى قيادة الجيش الثامن في «العلمين» ، فقد خاطب جنده مثيرا حماسهم وأبلغهم أنهم يقاتلون دفاعا عن شرف الامبراطورية وأمجادها ، وان انتصارهم يزيد أمجادهم مجدا ، وأن هزيمتهم تصيب الامبراطورية في شرفها وتاريخها ، وأدرك جنوده ما يعنيه وتفهموا كلماته وأدركوا خطورة دورهم وأهميته فسمعوا الى تحقيق النصر وحققوه .

وعندما اشتد القتال في البويب جرح مسعود - أخو المثنى - فتضعف معه ، وخاطبهم مسعود وهو يتلوى من ألم الجرح : « يا معشر بكر بن وائل ارفعوا راياتكم رفعكم الله ، ولا يهولنكم مصرعي » .. ومات مسعود متأثرا بجراحه ، وبلغ المثنى النبأ فلم يجزع ولم يحزن لأن قتل أخيه - وهو يجاهد - شرف يتمناه كثيرون ، وخشى ان يؤثر مقتل أخيه في الناس فخاطبهم قائلا : « يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخى فان مصارع خياركم هكذا » .. ما أبلغ هذه الكلمة في موقف حرب عصيب ، وما أعظم أثرها في قلوب المقاتلين ، لا شك في أنها اشعلت معنويات الجند فدفعتهم الى مواصلة القتال والمداومة عليه بصلابة وصدق وعزم وإيمان .

وكان المثنى لا يترك فرصة يتحدث فيها الى الجند تمر دون أن يحدثهم بغية اثاره معنوياتهم وحماسهم ، حتى تكون قدراتهم مكفولة وامكانياتهم محفوظة ومشاعرهم ملتهبة ... كان دائما يشجعهم على القتال ويدعوهم الى الصمود وكان يردد عليهم دائما : « عاداتكم في أمثالكم .. انصروا الله ينصركم » .

وفي مواقف الحرج والشدة - وما أكثرها خلال المعركة - كانت عادة المثنى أن يتجه بقلبه وحسه الى ربه يناشده العون والتأييد والنصر ، ويذكر جنده بوعد الله ويخاطب ايمانهم ... وهو في ذلك يتشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم حين أتجه الى ربه يوم بدر يناشده النصح والتأييد ... اللهم فنصرك الذى وعدتني ..

## - ١٤٩ -

وبيئنا نتقدم قوائمه من سوق بغداد الى الأنبار ، تنبه بحس القلبد العالم القدير ، الى أن وهنا أصاب جنده ، وأن قلعا قد تسرب الى قلوبهم ، فخشي أن تقزعزع ثقتهم ويهن عزمهم ويضعف حماسهم ، فجمع الجند وخاطبهم بكلام هو أروع ما يتوجه به قائد الى جنده ، ولهذا ستناوله بالتعليق لأهميته ..

### قل المفتى :

« أيها الناس ، أجهدوا الله ، وتناجوا بالبر والتقوى ، ولا تنلجوا بالاثم والعدوان ، انظروا في الأمور وقدروها ثم تكلموا ، انه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد ، ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم » .

### وقال :

« ان للغارات روعات تنتشر عليها يوما الى الليل ، ولو طلبكم عدوكم أدرككم وأنتم على الجياد العرب وهم على المكاريف ( جمع مكرف أى الخيل غير الأصلية ) البطاء ، حتى تنتهوا الى عسكركم وجماعتكم ، ولو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين .. التماس الأجر ورجاء النصر » .

### وقال :

« فثقتوا بالله وأحسنوا الظن ، فقد نصركم الله عليهم في مواطن كثيرة وهم أكثر منكم وأعز » .

في هذه الخطبة على قصرها نرى ...

● **ان المفتى قد اتجه بمشاعره وأحاسيساته الى الله أولا ...** هذا الاتجاه يصور لنا ايمانه العميق بالله ، وهو ينقل هذا الايمان الى جنده ، فيدعوهم الى ذكر الله وحده ، كما يدعوهم الى الثقة الكاملة في الله ، لأنه تعالى أيدهم بنصره في معارك كثيرة كانوا هم فيها أقل عدة وعددا .

ولا يختلف اثنان في أن الايمان القوى العميق بالله من أهم العوامل النفسية والمعنوية ، فهو يعطى الفرد المقاتل شجاعة وحماسة وقوة وعزما وتصميما واندفاعا ، وهو يزيل من نفسية الفرد وتفكيره الخوف ... ذلك السلاح القاتل الذى يهزم الفرد فى داخله قبل مواجهة عدوه .. فان الفرد المؤمن لا يخف أبدا أن يدركه الموت ، اقتناعا بأن الموت حق على كل نفس ، وأنه أمر مكتوب يأتى فى موعد محدد دون تقديم أو تأخير ، وهناك مثل شائع يقول : « لا يسكن الخوف مع الايمان » ، والشخص المؤمن بعتيدته نادرا

ما يتطرق الخوف الى قلبه ، ولقد أكدت التفسيرات العلمية السيكولوجية انه متى تملك الخوف الفرد أفقده قدرته على التصرف الصحيح ، وأفقده كفاءة القتال ، ان لم يؤد به الى حالات الشلل العقلية والانهيارات النفسية .

● **ان المثني قد دعا جنده الى عدم الاندفاع وراء الشائعات ، ويطلب منهم ان يترثوا ويتبينوا ويقدرروا الأمور تقديرا سليما حتى لا يكون تسرعهم من عوامل فشلهم ، كما ينصحهم بعدم الانصات الى الشائعات ، ويصور لهم خطورتها ، وخطورة الحديث الخافت الذي يرمى الى الهدم لا الى البناء .**

فالشائعات سلاح خبيث بتار سريع المفعول قوى الأثر سهل الاستخدام ، يثير الدعر والرعب والحواف ، ويقضى على كل أثر للروح المعنوية ، ونضعف بفضلها قدره على حمل السلاح ، وينملك المقاتل تسعوره بالخوف والرغبة ، ويصبح ضعيفا مشتبك الفكر زانغ البصر مضطرب الأعصاب ... . وقيل فيها انها الحرب التي تشر بغير حاجة الى سلاح يذف أو دمه تدرف ، وبغير حاجة الى نقطة دم تذل أو رجل يقتل ، وفي ذلك قال المسيو رينو رئيس وزراء فرنسا في ٢١ مايو ١٩٤١ : ان فرنسا جثت على ركبتيها امام الجيوش الألمانية تطلب الصلح لحسن استغلال الألمان للشائعات التي هدت نفسية الفرنسيين .

● **ان المثني قد وضع أمام جنده صورة واضحة المعالم لحالة عدوهم الذي تملكه الذعر فأفقدته وشله ، فلم يعد قادرا على السمع في طلبهم ، وهو بذلك يصور معنويات العدو التي أصبحت في حالة من الانحطاط ، تضعف عنده الرغبة في القتال ، وتقلل من عزمه وحماسة وقواه نتيجة للانتصارات العديدة عليه في عمليات الاغارات المتعددة ، وهو بذلك يرفع بطريق غير مباشر معنويات جنده .**

● **ان المثني في خطابه قد أثار في الجند الثقة بالنفس والسلاح ، فهو يقول لهم ان خيلهم تفوق خيل العدو ، لانها خيل أصيلة تعودت أمور الحرب منذ زمن بعيد ، تكثر وتفر في براعة وفن ، تفوق خيل العدو التي وصفها بالضعف والبطء وعدم القدرة على الحركة السريعة التي تحتاجها المعركة وتتطلبها أحداثها المتغيرة .**

● **ان المثني قد أثار في جنده الهممة والحماس والشجاعة وهي مقومات الروح المعنوية ، مؤكدا لهم ان لقاء العدو لن يؤثر في مبادئهم وشجاعتهم وقدرتهم ، لانهم يقاتلون في سبيل أحد أمراء نصر عظيم أو استشهاد كريم ، والمسلم حين يسمع حديث النصر أو حديث الشهادة يتسى كل شيء الا القتال**

## — ٢٠١ —

ويطرد عن نفسه الخوف واليأس ، ويظل قوى النفس عظيم الهمة ، مؤمناً بأن الله معه ، يصدق وعده ، وينصر جنده ، ويعز عبده .

هذه المعانى التى وردت فى خطاب المثنى لا تغيب أبداً عن قيادات اليوم التى تهتم اهتماماً بالغاً بإثارة روح الجهاد وكذلك الحماس الدينى لدى الجند ، ولا عجب فى هذا فإن جيوشهم اليوم تحرص على أن يكون بينها رجال دين يذكرون المقاتلين بواجبهم ويحدثونهم حديث الجهاد الدينى ، ويؤكدون لهم أن الله يبارك أعمالهم ويحيى جهادهم ويبارك خطواتهم .

كما أن قيادات اليوم تعطى جانب الشائعات غاية اهتمامها ، وتسعى بكل جهد الى محاربتها ، ومقاومة آثارها عند المقاتلين ، ولهذا فهى تحرص على تشكيل جهاز خاص يتتبع الشائعات ويقضى عليها خوفاً من أن تتسرب الى نفوس الجند ومعنوياتهم فتصيبهم فى أعز أسلحة القتال .

كما أن قيادات اليوم تحاول جاهدة أن تضع أمام الجند صورة مهزوزة غير صحيحة عن العدو ، بهدف إثارة حماسهم وأحاسيسهم بأنهم يقاتلون عدواً ضعيفاً هيناً لا حول له ولا قوة ، وأنه لا يصل الى مستوى حماسهم وقدراتهم ، وأنهم سيهزمونه لا محالة لأنهم أكثر منه حماسة وقدرة وجلداً .

وتحاول قيادات اليوم أن تولد نوعاً من الصداقة بين الجند والسلاح الذى يستخدمونه حتى تقوم الثقة بين الطرفين ، لأن ثقة الجندي فى سلاحه تجعله أكثر إيماناً به وتدفعه الى الحرص عليه حرصه على الحياة .

وهكذا يكون المثنى صاحب الفضل فى إثارة أمور أسسسية لأبد من معالجتها مع الجند خلال المعركة ... وهو بذلك يكون قد سبق القيادات الحديثة فى ادراك هذه الأمور ومعالجتها بالصورة الواقعية وبالأسلوب العلمى ، والدليل الواضح على ذلك أن الهدوء والثبات قد عادا الى جنده بعد أن استمعوا الى كلماته وفهموا معناها ، فلفظوا الأفكار السيئة التى سيطرت عليهم ، وأخذوا يفكرون بجدية فى مهمتهم الجليلة ، ويعيشون ذكرى انتصاراتهم ، وكل الأمل عندهم هو سحق الفرس وإزالة دولتهم ، ورفع راية الاسلام فوق ربوع بلادهم .

## القائد والقيادة

يدير دفة الحرب دائما العنصر البشرى .

والجيش الذى يحرز النصر يكون متبيزا فى عنصر القيادة .

والقائد الذى يتولى قيادة وإدارة المعركة يجب أن يكون مدركا لمسئولية القيادة ، مقدرا لتبعاتها ، فاهما لأبعادها .

وتاريخ الحروب يؤكد أن القائد الجيد الممتاز هو الذى يحرز النصر ، وفى ذلك يقول المارشال فوش « أن الجيش الذى يريد أن يفوز بالنصر لابد أن تتوافر لديه عوامل من الدرجة الأولى أهمها علم القيادة ، والرجل الذى يتولى إدارة المعركة لابد أن يكون ذا موهبة خاصة هى القدرة على القيادة » .

والقيادة من لا يمكن مشاهدته ولكن يمكن التعرف عليه بآثاره ونتائجه ، وإن تعبئة آلاف الجنود ليست بالمهمة الرئيسية فى تجهيز الجيوش ، ولكن المهم هو وجود القائد الكفء ، فعلى قدر كفاءته تكون كفاءة رجاله ، فتأبليون لتولى قيادة جيش مهلهل قليل السلاح والعتاد قليل المؤن أكثره من الحفاة ، واستطاع — رغم ذلك — بكفاءته أن يقود هذا الجيش الى أعظم الانتصارات فى تاريخ فرنسا حين دخل بهذا الجيش سهول لمبارديا وغزا به إيطاليا .

والمقصود بكفاءة القائد ما تكون عليه روحه ومشاعره وتجاربه وصلاته بالجنود ، والقوات عادة تتأثر الى حد كبير بالقائد ، فكيفما يكون القائد يكون جنده ، وقد قال أحد فلاسفة اليونان « أن أول عمل القائد هو ارضاء جنوده وما بقى بعد ذلك فهو سهل ميسور » .

والمتنى بن حارثة واحد من القادة الذين يحكم لهم التاريخ بالكفاءة والقدرة، ويضعه فى مصاف القادة العظام ، فقد تولى قيادة جيش من أهله وعشيرته حارب به بلاد الفرس وكثرت فى هذا الوقت أعظم البلاد وأقواها ، ثم وجه إليها أنظار الحكومة الإسلامية فى المدينة ، ومهد أمام هذه الحكومة سبيل أعداد الجيوش وبعثها حتى تم الفتح الإسلامى لبلاد العراق .

ولقد أثبتت الأحداث التاريخية نجاح المتنى كقائد استطاع بكفاءته وقدرته أن يحتل مكانة مرموقة فى تاريخ عصره ، وأن يحتل مثل هذه المكانة فى التاريخ عامة ، ومرجع ذلك ما كان يتوافر لديه من صفات القيادة ومواهب القائد وعناصر الشخصية العسكرية التى تتطلبها ظروف المعارك .



## - ٢٠٣ -

ولكن ما هي صفات القيادة التي تتوافر في القائد الكفاء ؟

ان هناك شبه اجماع على صفات محددة منها الايمان والثقة والارادة والمثابرة والعلاقة بالجند ومواجهة الحقائق والقدرة على التصرف وقوة الشخصية والشجاعة وسعة الحيلة وانكار الذات وبعد النظر ... هذا بالإضافة الى المعرفة التامة بشئون الحرب وكيفية معالجتها وتقدير مواقفها واعداد الخطط اللازمة .

وبدراسة تاريخ المثني ومتابعة حياته يمكن بسهولة أن نقرر أنه كان رجلاً شجاعاً مقداماً ، اتصف بكل صفات القسائد الكفاء ، وأن أحداث المعارك التي خاض غمارها وأحرز فيها النصر تلو النصر تؤيد هذا الرأي وتؤكدده .

ونحن سنعرض لهذه الصفات لنعزز هذا الرأي .

**ان الباحث عن سر النجاح الكبير الذي أحرزه المثني يجده كامناً في  
ايمانه العميق .**

فما لا شك فيه أن قوة الايمان هي التي تدفع الى النصر ، ولقد دخل الايمان قلب المثني وملاً نفسه نورا منذ سمع عن الدين الجديد حين خرج الرسول ومعه أبو بكر وعائى ليعرض بنفسه على القبائل دعوته ، فقد نزل عليه السلام وصاحبه بمجلس عليه السكينة والوقار ، يضم كبار رجال بنى شيبان ومن بينهم المثني ، وتحدث اليهم الرسول الكريم فقال « اُدعوكم الى شهادة أن لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله ، وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به ، فإن قريشاً قد تظاهرت على الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد » ، وتلا رسول الله عليهم بعض الآيات من الذكر الحكيم ، واستمع اليها القوم ومعهم المثني ، الذى تجاوبت نفسه مع الدين الجديد ، ووقع القرآن في قلبه موقعاً حسناً ، ودوت في جوارحه كلمة الحق ، واتجه بكل عواطفه ومشاعره وأحاسيسه الى الرسول تلتفت أذناه كل كلمة ، حتى اذا ما انتهى عليه السلام قلل له المثني « قد سمعت مقالتك واستحسنيت قولك يا أخا قريش ، وأعجبني ما تكلمت به » . وظل المثني يتابع أخبار الدعوة حتى أيقن تمهلاً صدقها فدخل في الاسلام عن عقيدة راسخة وفكر متيقظ واقتناع كامل .

ولما تعرضت الأمة الاسلامية لفئة الردة رفض أن يرتد عن دينه الذى اختاره قلبه وفكره ، بل ظل على هذا الدين ولم يقف منها موقفاً سلبياً ، وانما انضم الى قوات العلاء بن الحضرمي وعاونوه معانوة صالحة في القضاء على

## — ٢٠٤ —

المرتدين .. وعندما فر عدد منهم على طول ساحل البحر ، جمع جيشا وطاردهم به وفئتك بهم ، ووصل بقواته الى القطيف ثم دلتا الفرات ، حيث واجه دولة الفرس التي كانت تسند قوات المرتدين بقيادة الحطم بن ضبيعة .

ودفعه ايمانه العميق الى عرض رسالة الاسلام على أهل السواد .. ثم اتجه بتنكيره الى دولة ساسان ، فلجأ الى أبى بكر الصديق حين ولى الخلافة يعرض عليه فتح هذه الدولة واخضاعها ، فلما استجاب أبو بكر وعين خالد بن الوليد قائدا للجيش الاسلامى ، لم يغضب بل رضى — تحت ضغط ايمانه — لأوامر أبى بكر وعمل تحت امرة خالد كجندى بسيط يتلقى الأوامر وينفذها .

ورغم قلة جنده بعد أن عاد الى مركز القيادة فإنه خاطب كسرى قائلا « انما أنت أحد رجلين ، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة — عند الله وفي الناس — الملوك » .

بهذا الايمان القوى العميق الراسخ قاتل المثنى قوات الفرس التي تفوقه عددا وعدة في معارك كثيرة ، وانتصر عليها انتصارات ساحقة نقل بها آيات المجد من أبطال الفيل الى أبطال الخيل والابل .

ان هذا الايمان سما به عن الحياة ، فما كان يكثرث لشيء فيها أو يبأس على فائت منها ، عاش حياته بهذا الايمان متجها الى الله خاصة في أوقات الشدة ، يستمد منه العون والقوة ، وكان مبدؤه الذى عاش عليه حياته هو كلماته التى قالها لجنده « ثقوا بالله وأحسنوا به الظن » ، و « انصروا الله ينصركم » و « احمداوا الله ، وتناجوا بالبر والتقوى ولا تناجوا بالاثم والعدوان » .

### قلنا ان الثقة بالنفس والاعتماد عليها من أهم صفات القائد الناجح

فالثقة بالنفس عماد كل عمل ناجح ، وهى تنولد نتيجة للدراك والفهم والمعرفة ، ولا شك فى أن المثنى حين قرر أن يحمل عبء العمل العسكرى فى أرض السواد ، كان واثقا بنفسه مقتنعا بأنه يستطيع أن يتحمل العبء وأن يؤديه .. ولكن من أين أتته هذه الثقة وهو مقبل على عمل خطير جسيم اذ يواجه دولة عظمى فى زمنه ؟ .

لعل هذه الثقة كانت للدراسات الكثيرة التى قام بها المثنى عن أهل السواد ، فقد تتبع أحوال العجم ، وتنسم أخبار العرب القاطنين فى أرض السواد ، وانتهى الى أن العجم يسومون العرب الأذى والظلم ، وأنهم

## — ٢٠٥ —

يستضعفونهم ، فشنوا عليهم الغارات مستغلين في ذلك ملوك الحيرة الذين كانوا يخضعون لسلطانهم ، وعرف أن العرب يقاسون الظلم ، وأنهم لا يشعرون بالأمن والسلام والطمأنينة في وسط العجم .

ولم تقتصر دراسته على العرب وحدهم وإنما امتدت الى العجم أنفسهم ، فتبين له أن الاضطراب يسود بلادهم ، وأن الناس هناك حاقدون على الولاة ، وأن فروع البيت المالكة في نزاع مستمر ، وأن البلاد مزعزعة الأركان مهلهلة الجوانب ، لا ضابط فيها ولا رابط ولا منظم للشئون، تعمها الفوضى والاضطراب، أهلها مختلفون شيعة واحزابا ، وأمرؤها نافرون متباعدون .

واحس المثنى من هذه الدراسات والمعلومات أنه يستطيع أن يفعل شيئا له قيمته بخدم به الاسلام والمسلمين ، فقرر أن يقتحم أرض السواد بمن تبعه من بنى شيبان .. وتجمع لديه فعلا ثمانية آلاف خرج بهم الى هناك بهدف أن يعين العرب ، وأن يصد عنهم الأذى ، وأن يرفع عنهم الظلم ، وأن يرد اليهم اعتبارهم ، وأن يرتفع بهم الى مستوى الكرامة الانسانية ، وأن ينشر بينهم مبادئ الاسلام الخالدة ، وأن يأخذ بأيديهم الى حياة أفضل .

وكان المثنى واثقا بأنه سينجح في مهمته لأن الله تبارك وتعالى وعد بفتح بلاد الفرس وبلاد الروم ، فقد روى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه قد لاحت له عليه السلام أنوار تصور الحيرة ومدائن كسرى وقصور الروم بشارة من الله تبارك وتعالى بأنها ستفتح على يد رجاله .

وكما كان المثنى واثقا في قدراته ، كان جنوده ورجاله يثقون به ثقة كبيرة ، حتى أنهم حاربوا تحت قيادته وبجانبه ولازموه في كل معاركه وغاراته ، وشاركوه متاعب المعركة وجهدها ، وقاسموه انتصاراته ، وقضوا تحت أمرته فترة طويلة بآتمرون بأمره وينفذون تعالييه ... وقد قال مارشال فوش « أن القائد الذي يكتسب ثقة رجاله يمكنه توجيههم الى أى عمل يريد ، مهما كانت خطورته ونتائج ، وهو مطمئن تماما الى أنهم سوف يؤدونه على أحسن ما يكون الأداء ، باذلين أرواحهم رخيصة في سبيل تحقيق غرضه » .

**ان قوة الارادة والتصميم من العوامل الهامة التي تحقق النصر في المعركة**  
والقائد صاحب الارادة القوية هو الذي يستطيع أن يدير أمور المعركة ويحركها حسب رغبته ، وهو الذي يستطيع أن يخوض المعركة بثقة وأمل وعزم وتصميم ، وهو الذي يستطيع أن يخرج منها منتصرا قويا .

## - ٢٠٦ -

وحياة المثنى العسكرية تؤكد أنه كلن يتميز بقوة الإرادة التي دفعته الى الاستمرار في الاهتمام بشئون أرض السواد ، وفي التصميم على الاطاحة بدولة ساسان الفارسية ... وضح هذا الاستمرار في غاراته الكثيرة المتعددة التي قام بها وحده في أرض السواد مبتدئا بالاغارة على مدينة فارس قوية منيعه تسمى دهشتا باذ اردشير التي دخلها عنوة وخربها وغنم أموال قاطنيها وسماها العرب لكثرة ما أصابها من الخراب « الخريبة » ، ثم تقدم بعدها الى مدينة الأبله ( في موقع البصرة حاليا ) ، وكانت بها قوة فارسية كبيرة فانتصر عليها وأسر منها كثيرين ، ثم عطف على الحيرة ووقعت مناوشات كثيرة بينه وبين سكانها ، وكان اصراره في مقدمة عوامل نجاحه فيها ، حتى أنه أثار روح الثغور والتمرد في القبائل العربية ضد الحكم الفارسي ، فحملت بعض هذه القبائل السلاح في وجه حاكمها .

وقد وضح تصميمه على الاطاحة بدولة ساسان حين انتقل الى المدينة ليلتقي بالخليفة أبى بكر ، لينقل اليه صورة واضحة المعالم عن أرض السواد ، ويضع بين يديه تقريرا عن نشاطه هناك وعن حالة البلاد الداخلية ، ويدعوه الى أن تتدخل الحكومة ، ويهون عليه أمر العراق ويغريه بأرض فارس التي كانوا يطلقون عليها اسم جنة الأرض لكثرة غلاتها ووفرة خيراتها . . عرض على الخليفة أن يتولى هو أمر الحملة هناك ، وقال له « أمرنى على من قبلى من قومي أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفك تاحيتى » ، واقتنع أبو بكر برأيه ، وقرر أن يوجه جيشا الى هناك بقيادة خالد بن الوليد بعد أن تشاور مع أصحابه وأهل الرأي ، وعرض عليهم ما أوضحه المثنى ، فوافقوه وأشاروا عليه بأن يجيبه الى طلبه ، فأصدر أبو بكر أمره بتأميمه وباستمراره في عملياته حتى يصل خالد .

ووضع تصميمه أيضا حين ترك قواته في العراق بعد انتصاره في بلبل تحت قيادة بشير بن الخصاصية ، واتجه الى المدينة يطلب المدد والعون ، وما أن وصل المدينة حتى وجد أبا بكر طريق الفرائس يقاسى من مرضه الأخير ، فلما عرض عليه حاجته الى المدد استدعى أبو بكر عمر بن الخطاب رغم سوء حالته الصحية وقال له « اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به ، وإنى لأرجو أن أموت في يومى هذا ، فان أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وان تأخرت الى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخاق بمثله ، وبالله لو أنى أنى ( بكسر النون المخففة ) عن أمر الله وأمر رسوله لأخذلنا ولعاقبنا فباضطربت المدينة نارا .

وان فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولادة أمره وحده » .

وهكذا رسم أبو بكر في أواخر أيامه سلسلة الفتح العربي في العراق ، ولا شك في أن ما أمر به الخليفة كان مصدره الأول المثنى بن حارثة الذي كان يصير ويصمم على ضرورة اتمام هذا الفتح ، فقد كان يرجو ذلك وبإراء أهلا واجب التنفيذ ...

ولم ينته هذا التصميم وهذه الإرادة عند وصية أبي بكر ، وإنما بقي المثنى بالدينونة يرقب تنفيذ هذه الوصية ، ففي صبيحة اليوم التالي لدفن أبي بكر ، اجتمع الناس بناء على دعوة عمر بن الخطاب الذي تحدث اليهم في أمر الخروج الى فارس ، فلم يستجب اليه أحد ، فظل يستنفرهم ثلاثة أيام ، ورأى المثنى أن الناس تخشى الخروج الى فارس ، وترحب به الى الشام ، لأن فارس أثقل البلاد عليهم ، لشدة سلطانهم ، وقوة شوكتهم ، ولكثرة قهرهم الأمم ، فوقف في الناس خطيبا مهونا الأمر داعيا الى الخروج ، قال : « أيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فقد تبجحنا ريف فارس ( أى تمكنا من المقام فيه ) وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ، واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها ان شاء الله ما بعدها » ... وبعد مقالته استجلب الناس وكان أولهم أبو عبيد بن مسعود الثقفي .

**وكان المثنى قدوة طيبة لجنده ...** وقد أشرنا الى أن الجند ينظرون الى القائد ويتمثلون به ويعملون كما يعمل ويعيشون حياتهم كما يعيش ، فهو مثلهم ورائدهم في كل عمل وفي كل تصرف ، والجند عادة يصوغون أنفسهم في القالب الذي يصوغه لهم القائد اذا نال احترامهم وتقديرهم واعجابهم ... ولقد كان المثنى مثلا واسوه للجند ، ودلائل ذلك أنهم قدروا فيه رجولته وخلقه وشخصيته ومظهره ومقدرته ، وأنهم كانوا يعتزون به ويفخرون بقيادته ، الى حد الزهو ، فقد شاطروه مجده في ميادين القتال ، وقاسموه انتصاراته ، وحملوا معه عبء الهزيمة حين هزم المسلمون في الجسر .

كان المثنى يضع خطط المعارك بنفسه وكان يشارك في تنفيذها شأنه في ذلك شأن أقل جندي في جيشه .. فما من معركة خاضها الا وهو في المقدمة وعلى رأس الجيش .. لم يكن يبعد عن أحداث المعركة بل كان دائما في مركز قيادته يرقب المعركة عن كثب .. كان جفده يرويه عن قرب ينظم ويرتب ويقاتل مثلهم تماما ، فباكسبه ذلك حبه واحترامهم وتقديرهم .. بعث مرة بقوة من

رجاله بقيادة فرات بن حيان وعتبة بن النهاس للأغارة على أحياء من تغلب والنمر في صفين .. وعندما علم أهل صفين عبروا الفرات وتحصنوا في الجزيرة .. وأحس المثنى بالضيق لأنه لم يخرج مع الخارجين ولم يشارك جنده إحدى معاركهم ، فقرر أن يلحق بهم وليسهم معهم ، وليكون بينهم عند لقاء العدو فامتطى صهوة فرسه ، ولحق بهم بعد أن خلف على الناس عمر بن أبى سلمى الهجينى .

وكان المثنى يوزع المغنم والمكاسب على جنده ولا يحتفظ لنفسه بشيء حتى لا يحرم أحد الجند من حقه .

وكان تقديرا منه لرجاله يمنحهم الفرصة لظهور مواهبهم وقدراتهم ، وكان يسند اليهم عمليات لها أهميتها حتى ترتبط نتائجها بأسمائهم ... حدث أثناء مطاردته جيش هرمز بعد الانتصار عليه في كاظمة وفرار عدد من رجاله في اتجاه المدائن ، أن أمر بحصن تقيم فيه أميرة فارسية يسمى « حصن المرأة » ، فأسند أمر حصاره إلى أخيه المعنى حتى لا يعطله الحصار عن هدفه الأساسى ، وتقدم هو إلى هدفه ... وحدث في موقعة البويب أن استعان بثلاثين من المسلمين هما بشر بن أبى رهم والنسير ، كما استعان بمذعور في موقف آخر ..

كان جنده يرون فيه بطلا شجاعا لا يهاب شيئا حتى الموت ، ولهذا كانوا يخوضون المعارك واثقين في مقدرتهم ومقدرة قائدهم ، ومن هنا كانوا لا يعباون كثيرا بعدوهم ... بعدده مهما كان كثيفا أو بعدده وآلاته مهما كانت ضخمتها .

في بابل كان جيش أعدائه يستعين بفيل كبير لم يكن العرب قد شاهدوه من قبل ، وكان وجود هذا الفيل يسبب اضطرابا في صفوف المسلمين ، كما أدى هذا السلاح الجديد الذى لم يعتادوه إلى خوعهم ، فقد كان ظهوره مفاجأة ، وكان المثنى لا يحجم أبدا في الوقت الذى يكون فيه التقدم واجبا ، ولهذا قرر أن يقتل الفيل بنفسه ، ولكن كيف يقتله وهو حيوان ضخم يثير منظره الرعب في نفوس العرب ؟ ، أن قتله مهمة خطيرة ، ومع هذا قرر أن يتقدم هو وحده لأداء هذه المهمة دون أن يسندها إلى أحد من رجاله ليكون قدوة لهم في الاقدام والشجاعة ، وتقدم فعلا نحو الفيل ، وأخذ يحاوره وينهال عليه طعنا بالرمح ، حتى أصابه في مقتل ، وأنتد المسلمون من عدو كان يخيفهم ويفرق جموعهم .

وفي الجسر تعرض المسلمون لموقف خطير نتيجة لقطع الجسر ، وراى المثنى ما هم عليه من غم وكرب ، فأسرع إلى عروة بن مسعود وأمره بأن يشد

## — ٢٠٩ —

الجسر ، وأن يمنع ما بينه وبين العجم « انطلق الى الجسر ، فوقف عليه ، وحال بين العجم وبينه » ، ثم تولى هو بنفسه مهمة مهاجمة الفرس ومعه جماعة من الفرسان ، وظل يصيح في الناس « يا معشر العرب انا دوئكم فاعبروا على هيئتكم ، لا تدهشوا ولا تفرقوا » .

ومن أهم الأسباب التي جعلت من المثنى قدوة لرجاله ، أنه كان يتميز بصفة انسانية كبيرة ، فقد كان يعمل في صمت ايمانا منه بأن العمل في صمت هو سبيل النجاح ، ومن هنا ظهرت حقيقته للناس ، فقدروا كفاءته واعترفوا بقدرته واحترموا شخصيته .

ولقد تعلق به جنده لأنه رغم انتصاراته المتعددة لم تمتلئ نفسه بالفروغ ، ولم يتظاهر بالتكلف أو التصنع ، ولم يتعال عليهم ، وانما عاش معهم كواحد منهم ، فأحسوا به رجلاً صادق الحس حسن البصيرة جيد التقدير ، يحكم على الأمور بفهم ، لا يأخذ بالمظاهر والقشور ، يضبط نفسه ، لا تثيره الصفات ، ولا تفقده الكبر الصواب .

كان المثنى محرر النفس من التعاضم والكبرياء والغطرسة والمظاهر الكاذبة ، وكان يبدو أمام الناس على حقيقته ، فلا يلبس غير ثوبه ، ولا يبدو في مظهر ليس له ، ولا يدعى القول ، ولا يعطى لنفسه ما لا يستحق ... تجمع رجاله بعد النصر العظيم في البويب يتجاذبون الحديث ويتسامرون وهم مغتبطون بالانتصار ، وتذكر المثنى وهو بينهم المسلمين الذين قتلوا عند الجسر ، حين أمر بمنع الفرس المرتدين من اجتياز النهر ، فأدرك هؤلاء أنهم سائررون الى نهايتهم فأخذوا يقاتلون المسلمين بشدة ويستمتيتون ، ويقتلون كل مسلم يلقونه حتى قتل كثير من المسلمين ... تذكر المثنى هذا العدد من المسلمين الذي قتل وأسف لذلك ، وقال لرجاله « لقد عجزت عجزاً وقى الله شرها بمسابتى اياهم الى الجسر حتى أحرضهم » ثم أردف « فلتى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى فانها كانت منى زلة » ... هكذا بمثل هذه الصراحة يعترف القائد لجنده بخطئه ثم يدعوهم الى عدم الاقتداء به والوقوف في مثل هذا الخطأ ، ويعددهم ألا يعود الى مثله مرة أخرى ... انه بهذا التصرف يؤكد تواضعه ومعرفته قدر نفسه ، ووصوله الى مرتبة من التواضع لا يدانيه فيها احد ... انه يعلن أمام جنده ندمه على خطأ وقع فيه حتى لا يقعوا هم فيه بعد ذلك .

وانظر الى تواضعه الذي تتجلى فيه روح المساواة بأجلى مظاهرها وهو

( م ١٤ — شخصيات عسكرية اسلامية )

يمر بين الصفوف أثناء موقعة البويب ، فيقول لجنوده وهو يحدثهم ويشجعهم ويحثهم على القتال « والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء الا وهو يسرنى لعامتكم » .

**تميز المثنى بحسن تقديره للموقف ،** ولقد اتفق المؤرخون جميعا على أن أية معركة تستلزم من القائد قبل خوضها تقديرا لموقفه وموقف أعدائه ، اذ بناء على هذا التقدير يضع القائد الخطة التى يواجه بها عدوه . . وتقدير الموقف من العمليات الشاقة التى تحتاج الى ذهن متوقد ومقدرة على الفهم والبحث والدرس والاستقصاء ، والقائد الكفء القدير هو الذى يستطيع أن يقدر الموقف تقديرا سليما صائبا ، لأن هذا التقدير هو الذى يقرر نتيجة المعركة الى حد بعيد .

كان المثنى دائما يقدر الموقف العسكرى تقديرا سليما صائبا ، ولهذا كان يدخل المعركة مطمئنا على نتائجها . . . فهو فى موقعة بابل مثلا رأى أن وجود الفيل خطر على قواته ، فقدر الموقف بسرعة وقرر قتله الآن فى قتله رفعاً لمعنويات المسلمين وفيه هدم لقوة الفرس الذين كانوا يعتمدون أساسا عليه ويرون فيه سلاحا يحقق مفاجأة تكتيكية ويسبب للمسلمين ذعرا واضطرابا . . وهو فى موقعة الجسر وجد أن قطع الجسر فيه هلاك لجنده فقرر أن يشده ليسمح للمسلمين المتقهقرين بالعبور سائلين . . وفى الحالتين نفذ ما استقر عليه رأيه ونجح نجاحا كبيرا أحس المسلمون بنتائجه وآثاره .

كما أنه حين وصلته أخبار عن تجمع القائد نرسى فى كسكر انتظارا لوصول مدد آخر اليه بقيادة الجالينوس ، قدر الموقف بسرعة ، ورأى أنه من الأفضل أن يسرع الى لقاء نرسى قبل وصول المدد ، وخاصة أن المعلومات التى تجمعت لديه كانت تفيد بأن قوة نرسى قليلة فى العدد والسلاح ، وانتصر المسلمون على نرسى فى السقاطية . . . وما أن وصل الجالينوس الى قرية باوسما حتى أمر المثنى قواته بمهاجمته فأنزلت به خسارة كبيرة فانسحب الى المدائن .

وفى الجسر عرض الفرس أن يعبر المسلمون النهر اليهم ، وقبل العرض أبو عبيد بن مسعود — وكان قائد الجيش — الا أن المثنى بعد أن قدر موقفه رفض فكرة أبى عبيد ، وأشار عليه أن يبقى فى مكانه وأن يترك الفرس يعبرون الا أن أبى عبيد لم يأخذ برأيه ، فكانت الهزيمة المرة التى لحقت بالمسلمين فى هذه الموقعة ، خسر فيها المسلمون كثيرا ، اذ تعرضوا لغدر الفرس الذين هاجمهم أثناء عملية العبور وأصابوهم اصابات بالغة .



وعندما أحس المثنى بدنو أجله بعث الى سعد بن أبي وقاص برسالة — بعد أن كان قد قدر الموقف — أوضح له فيها وجهة نظره ، ونصحه بأن يلزم بجند، مراكزهم على حدود الصحراء ، حتى تحمي الصحراء ظهورهم في حالة انتصار العدو فتكون عمقا استراتيجيا لهم ، وتكون نقطة ارتكاز يهاجمون منها عدوهم . ووجهة نظر المثنى في ذلك أن الفرس لا يجيدون حرب الصحراء ، وأن العرب لا يجيدون القتال في داخل المدن ، وهو بهذا الرأي يهيئ المسلمين الميدان المناسب للمعركة حيث تستطيع طبيعتهم أن تنتصر .

**والنقطة المشرفة في حياة المثنى كقائد أنه كان قائدا قوميا آمن بالتومية العربية** ويتفانى في سبيلها ، كان يؤمن ايمانا راسخا بضرورة اتحاد العرب مع اختلاف مواقعهم ومشاربهم ودياناتهم ضد عدوهم المشترك ، وكان يرى في هذا الاتحاد نصرا وعزة ، ذلك أنهم يمثلون قوة غالبية تحمي الكيان العربي وتذود عن وجوده وتدافع عن شرفه ، ولهذا كان المثنى أول الدعاة الى تومية المعركة ، وكانت قوميته من أكبر معنوياته ، مهدت له سبيل الحصول على الزعامة بين قومه ، ففدا زعيما عظيما احتل مكانة مرموقة في تاريخ العرب ...

دعا المثنى القبائل النصرانية التي جرى في عروقه الدم العربي لتنضم اليه وتحارب معه تحقيقا لمبدأ القومية العربية ، واستجابت له هذه القبائل بصدق واخلاص اقتناعا بوجهة نظره وايمانا بأن العرب تجمعهم قومية تحتم عليهم أن يتعاونوا جميعا صفا واحدا ضد عدوهم المشترك .

ففى موقعة الجسر دعا حوصلة بن المنذر الطائي المكنى بأبى زيد — وهو شاعر نصراني عمر طويلا ومات في خلافة عثمان بن عفان وهو على نصرانيته — لينضم الى العرب فاستجاب له وحارب الفرس أعداء العرب ، وانتصر للعرب الذين يتفقون معه لغة وتاريخا ومسكنا ودما ... ودعا أنس بن هلال النمرى « يا أنس انك امرؤ عربى وإن لم تكن على ديننا ، فاذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى » ، وخاطب ابن مردى الفهد ونصارى بنى تغلب ليجمعهم بصفتهم العربية معه في معركته ضد الفرس ، وانضم هؤلاء له وعاونوه بصدق في موقعة البويب .

\*\*\*

وفوق ذلك كله فقد عرف عن المثنى أنه كان ذا همة ، وعزيمة ماضية ، وإرادة صلبة ، ونشاط مستمر ، ورباطة جأش ، وثبات قلب ، وبعد نظر ،

وحسن مظهر ... ولكن ذكيا يقظا ، شجاعا حازما غيورا على عملة ، قوى التأثير في جنده ، مرحا ، نزيها ، حكيما ، عادلا ، منكرا لذاته ... كان يؤمن بالولاء ... يشترك جنده مشاعرهم واحاسيسهم وافراحهم واتراحهم ، كان يتجنب العناية بمصالحه وراحته على حساب عملة ... كان متفائلا يفكر في النجاح ، وينظر الى الاشياء بعين الامل لا بعين اليأس والقنوط ، ويفكر في النصر دون الهزيمة ، وفي المباداة والهجوم دون الدفاع ، لم تؤثر علفته في تصرفاته او افعاله ، كان يزن الامور ويقدر الاشياء ، يؤمن بالعدل والمساواة ، لم يأخذ الامور بالمظاهر ، وانما كان يتعمق في حقائقها ويبحث عن اصولها .

هذه هي صفات القيادة وسمات القائد ، برزت في شخصية المثنى بصورة جليلة واضحة ، فلم يعد هناك شك في أنه كان قائدا ممتازا ، ومحاربا من الطراز الذي تبحث عنه الأمم في تاريخها ، لتجعله منارة ومثالا ، ولتفخر به بين نظائره من قادة الحرب واعلام الفكر العسكري .

### المستشار العسكري

تحرص القيادات العسكرية الحديثة على أن توجد بجانب قائد القوات هيئة استشارية يطلق عليها اسم « الأركان العامة » ويتولى رئاسة هذه الهيئة ضابط له وزنه وثقله يسمى « رئيس الأركان » ... ووظيفة هذه الهيئة أنها تدرس ظروف المعركة من مختلف الزوايا والنواحي ، ثم تقدم للتقائد المشورة والرأي في كل ما يتعلق بشئون الحرب وظروف المعركة ، وتهتم الدول والقيادات بأن تكون هذه الهيئة على مستوى المسؤولية فنا وعلما وقدرة وخبرة ، لأن ما تقدمه هذه الهيئة للقائد من دراسات وآراء يكون الأساس الأول في التخطيط للمعركة ثم في سير أحداثها ، ويقدر سلامة ما تتقدم به هذه الهيئة يكون النصر في المعركة .

ولقد تولى المثنى بن حارثة هذه الوظيفة حين قاد أبو عبيد بن مسعود الثماني قوات المسلمين في العراق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ومارس المثنى هذه الوظيفة لأول مرة في موقعة الجسر ، وكان صادقا في مهمته ، لم يحبس مشورة ، ولم يحجب رأيا ، وانما كان يقدم الرأي في كل مراحل المعركة بأمانة وصدق وإخلاص بدافع من احساسه الديني العميق وادراكه الواعي لمسئوليته كمسلم فرض عليه الجهاد .

فعلى اثر تولى عمر بن الخطاب الخلافة بدأ يعد الامدادات ليعيث بها الى العراق ، تنفيذا لتعليمات أبي بكر بالآ تشسغله وماته عن امداد جيش

العراق ، وجمع الناس لهذا الغرض في فناء مسجد الرسول ، ورفع راية الجهاد ، وتحدث الى الناس في الخروج عونا للمسلمين في أرض فارس ، والناس تخشى الخروج الى هناك وترى الخروج الى بلاد الشام ، وخاطبهم عمر فقال « أيها الناس ، أن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ( طلب الكلا في موضعه ) ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطراء المهجرون عن موهود الله ؟ ، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال « ليظهره على الدين كله » والله مظهر دينه معز ناصره ، مول أهله ووارث الأمم ... أين عباد الله الصالحون ؟ » .

وشعر الناس بما في ثقافتهم من سبة لهم بعد أن تكلم الخليفة ، وتقدم أبو عبيد بن مسعود الثقفي وقال : « يا أمير المؤمنين ، أنا سبعتك وأطعناك ، وأنا أول من أجاب هذه الدعوة ، أنا وقومي وعشيرتي » ، وكان أبو عبيد أول منتدب لهذا الأمر ، ووقف من بعده كثيرون وأعلنوا استجابتهم ، منهم سليط بن قيس وهو أنصاري خزرجي من بني النجار شهد بدرًا وما بعدها ، وقتل يوم الجسر ، وسعد بن عبيد وهو أنصاري أوسى شهد بدرًا ومات في القادسية شهيدًا ، وتتابع الناس وخاطب أحدهم الخليفة فقال « يا أمير المؤمنين ، إنما كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس الى يومنا هذا شقشة من شقشات الشيطان ، وإنني قد وهبت نفسي لله ، ومن أجابني من بني عمي ومن اتبعني » .

وعندما تجهز الجيش وأصبح على وشك التحرك ، دعا عمر أبا عبيد وولاه قيادة الجيش ، فلما اعترض أهل المدينة قائلين : « أمر عليهم رجالا من السابقين من المهجرين أو الأنصار » ، قال عمر : « لا والله لا أفعل ، إن الله رفعكم بسببكم وسرعتكم الى العدو ، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بآرياسة منكم من سبق الى الدفع ، وأجلب بالدعاء ، والله لا أؤمر إلا أولهم انتدابا » .

وزود عمر أبا عبيد بالنصح ، وطلب منه أول ما طلب أن يستشير أصحابه ، وألا يتفرد برأى ، وألا يتعجل الأمور في الحرب ، وأن يحسن معاملة جنده « استمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فإنها الحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكث ( الرزين العاقل ) الذي يعرف الفرصة والكف » .

وسمح الخليفة لأهل الردة الذين أظهروا التوبة بالأسهم في المعارك وفي الخروج مع الخارجين ، بعد أن طال حرمانهم من شرف الجهاد منذ عهد أبي بكر .

رسم اذن الخليفة للقائد أسلوب العمل ، وهو ذات الأسلوب الذي تتخذه القيادات في العصر الحديث . . . أمده بمستشارين كسليط بن قيس ، وأمره بأن يستشير أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وأن يسمع منهم ، وأن يشاركهم في الأمر . . . . . وهؤلاء يمثلون هيئة الأركان في الجيوش الحديثة .

وخرج أبو عبيد من المدينة والناس يخرجون معه ، وينضمون اليه أثناء مسيره ، حتى بلغ عدد من أصبح تحت امرته عشرة آلاف مقاتل .

وما أن وصل الى حدود العراق حتى جاءه المثنى فسلمه القيادة ، وعاد الى الصفوف جنديا ، ولكن أبا عبيد الذي يعرفه جيدا صفاته وسماته ونبوغه وقدره وحفه ، جعله قريبا منه يعرض عليه المواقف ويتلقى منه النصح والرأى والتوجيه ، ومن هنا أصبح المثنى على رأس هيئة الأركان ، مستشارا عسكريا يدرس ويفحص ، ثم يقدم الرأى ، وما من شك في أن رأيه الذي يديه كان له وزنه وأهميته ، ذلك أنه صادر من شخصية مارست الحرب على أرض العراق ، وخاضت المعارك ضد الفرس ، فأصبح لديها رصيد من الخبرة والمعرفة ، وبذلك كان اختياره لهذا العمل اختيارا صاحبه التوفيق ، ولقد أثر عن مونتجمري أنه قال في حديث لبعض المراسلين الحربيين بعد انتصاره في العلمين أن من عوامل انتصاره اختياره لرئيس أركان حرب ( مستشار عسكري ) حازم وثق فيه وابتعد هو عن التفاصيل وتركها له يدرسها ويقدم الرأى والمشورة . .

وعلى الجانب الآخر كان الفرس يعدون أنفسهم لمعركة فاصلة ينهون بها الأعمال العسكرية ويتقضون بها على قوة المسلمين ، كانوا قد تناسوا مشكلاتهم الداخلية وسعت بوران ابنة كسرى الى توحيد الصفوف ، فدعت القائد رستم وأطلقت يده في أمور الدولة ، وولته قيادة الجند وأمرت له بالسمع والطاعة ، ورسمت معه خطة مواجهة المسلمين على أساسين : أعداد جيشين كبيرين قويين بقيادة جابان ونرسي ، ودعوة دهاقين السواد ليثوروا ضد المسلمين . . . . . واستدعى القائدان وتولى كل منهما قيادة جيش كثيف . . . وتحرك جابان الى الحيرة . . وتحرك نرسي الى ذي قار . .

ومما يجب الاشارة اليه أن رستم الذي القيت عليه مسئولية محاربة المسلمين ، كان يؤمن بأن النصر النهائي سيكون للمسلمين ، فقد قيل عنه أنه كان عالما بالنجوم وأنه رأى فيها نهاية فارس ، ولما صرح بذلك لبعض خلصائه

## - ٢١٥ -

سئل كيف يتولى أذن أمر فارس وهو يعلم نهايتها فأجاب : « الطمع وحب الشرف » .

تقدمت قوات المسلمين الى النمارق ، وكان المثنى قائد الخيالة حيث قابل قوات جبابان قتالا عنيفا مريرا حتى هزمه ، وأسره عربى يدعى مطر بن فضة ، ولكنه نجح بدهائه فى اجبار المسلمين على فك أسره . . . . فقد كان مطر يجهل شخصيته ، فوعده بمال وغلادين وقال له : « انكم معشر العرب اهل وفاء ، فهل لك أن تؤمننى وأعطيك غلامين أمريدين خفيين فى عملك وأعطيك كذا . . . وكذا . . . » وأجزل الوعد ثم قال له : « أدخلنى على أميركم حتى يكون ذلك بمشهد منه » ، ودخلا معا على أبى عبيد الذى لم يعرفه هو الآخر وأمنه ، فشاهد على ما تم بينهما وأطلق سراحه ، وذكرت بعض المراجع ان بعض المسلمين عرفوا شخصيته فقادوه الى أبى عبيد وقالوا : « انه الملك ، وهو الذى غدر بنا وحاربنا » ، وطالبوا بقتله ، فرفض قتلا : « انى أخاف الله أن أقتله ، وقد آمنه رجل مسلم . . . وان كان قد غدر فانا لا أغدر » وأطلق سراحه .

ثم هاجم المسلمون نرسى فى السقاطية ، وانهزم الفرس ، وفر نرسى .

وفى باروسما التقى المسلمون بالجلينوس الذى كان متقدما لاغاة نرسى ، وانتصر المسلمون أيضا وفر الجلينوس الى المدائن .

وكان للمثنى حتى هذه اللحظة دور هلم فى المعارك التى دارت ، فهو الذى أشار على أبى عبيد أن ينحرك بسرعة الى لقاء نرسى فى كسكر قبل أن يصله مدد الجلينوس فيدعم مركزه ويعزز موقفه ويشدد من أزره ، وبذلك وضع المثنى مبدءا عسكريا هاما هو عدم القتال فى جبهتين فى وقت واحد ، فقد انتصر المسلمون على جيش نرسى ثم جيش الجلينوس كل على حدة ، وفى معركتين متتاليتين ، ولا شك فى أن النصر كان ميسورا على هذه الصورة ، لأنه فى حالة تجمع الجيشين قد يصعب مواجهتهما معا والانتصار عليهما ، هذا فوق أن المسلمين لم يكن فى استطاعتهم وقتها تقسيم أنفسهم الى جيشين لمواجهة الفرس فى السقاطية وباروسما فى وقت واحد لخطورة ذلك .

ولعل القارئ يذكر أن قيادة جيوش الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية كانت تسعى الى فتح ميدان جديد حتى تضطر قوات المحور الى القتال فى أكثر من جبهة مما يضعف لديها القدرة على المواجهة والامداد السليم لكل جبهة . . . وعندما نجحت فى ذلك ( النزول على شواطئ أفريقيا الفرنسية الشمالية

ثم غزو صقلية واقتحام القارة الأوروبية ، كان هذا النجاح بداية الفشل والانهيال في جبهة المحور .

كان للمثنى بجانب هذه المشورة موقف آخر ، فقد تولى مطاردة الفارين ، فلاحقهم وأنزل بهم خسائر فادحة واستسلم له قائدان من كبار قادة الفرس هما فروخ وفروثاداز ، فبعث بهما إلى أبي عبيد .



وأزعجت هذه الانتصارات رستم ، فدعا بأشد المعجم على العرب وهو القائد ذو الحاجب بهمن جاذويه ، وعينه قائدا لجيش كبير العدد يماونه الجالينوس ودفع إليه براية كبرى وهى راية من جلود النمر تسمى درفش كابيان وكانت لا ترفع أمام الجيش إلا لأمر عظيم . وكان تحت قيادة بهمن ثمانون ألفا من المقاتلين وعشرون فيلا .

وبدأ الاستعداد للقاء جديد .

وتقدم بهمن بقواته حتى نزل قس الناطق ، وهى موضع على شاطئ الفرات الشرقي قرب الكوفة .

ونزل أبو عبيد والجيش على الضفة الأخرى لنهر الفرات عند المروحة ، فى مواجهة جيش الفرس .

وكان واضحا أن هناك اختلافا كبيرا فى كثافة وعدة كل من الجيشين . ثمانون ألف مقاتل من الفرس ومعهم عشرون فيلا ، يواجهون عشرة آلاف فقط من المسلمين .

وبعث بهمن إلى أبي عبيد يعرض عليه : «أما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وأما أن تدمونا تعبر إليكم » . فقد كان لابد من أن يعبر أحد الجيشين النهر إلى حيث الجيش الآخر حتى تتم المعركة .

وجمع أبو عبيد مستشاريه وهيئة الأركان ، وكان المثنى فى مقدمتهم ، وعرض عليهم رسالة بهمن ، فأشار عليه المثنى بعدم العبور « لا تعبر يا أبا عبيد » . «أنا ننهاك عن العبور » ، واقتنع سليلط برأى المثنى وأيده ، ودعا إلى عدم العبور ، ولكن أبا عبيد عارضهم ، وصمم على العبور ، فألحا عليه أن يستجيب لهما وأن يتبع رأيهما ، ولكنه ظل على رأيه وازداد تمسكا به ، وقرر أن تعبر قواته وأقسم فى مواجهة المعارضين ليقطعن الفرات إليهم قائلا :

## - ٢١٧ -

« لا يكونوا أجراً على الموت منا بل نعبر اليهم » ، فزاد في الإلحاح وناشداه :  
« ان العرب لم تلق مثل جنسود فارس مذ كانوا ، وانهم قد حفلوا لنا ( أى  
اجتمعوا ) واستقبلونا من الزهاء ( أى العدد الكبير ) والعدة بما لم يلقنسا به  
أحد ، وقد نزلت منزلاً فيه مجال وملجأ ومرجع من مرة الى مرة » .

ولم يستمع اليهما أبو عبيد ، وأصر على رأيه قائلاً : « لا أفعل » ، ثم  
وجه حديثه الى سليط « جئت والله يا سليط » فغضب سليط ورد عليه قائلاً :  
« أنا والله أجراً منك نفساً ، وقد أشرنا عليك بالرأى ، فستعلم » .

وازاء هذا الإصرار الغريب من جانب أبى عبيد ، أثار عليه المثني أن  
يتم العبور مفاجأة أملاً في أن تصل القوات الى مواقعها دون تدخل من جانب  
العدو ، ورفض أبو عبيد هذا الرأى أيضاً وأصر على أن يكون العبور على  
مراى ومشهد من العدو !!

لابد لنا هنا من وقفة نحلل فيها تصرف أبى عبيد . فان أصراره ومخالفته  
لرأى مستشاريه كان دون شك خطأ كبير ، ولهذا الخطأ جوانب ثلاثة ما كان  
يجب أن يقع فيها قائد كأبى عبيد .

لقد تجاهل أبو عبيد آراء أصحابه ومستشاريه .. وهذا خطأ ، لأن رأى  
الجماعة يكون دائماً أرجح من رأى الفرد ، فالجماعة ترى بعيون كثيرة ، وتفكر  
باعتقولات متعددة ، وتبحث الأمر من مختلف زواياه .

هذا فوق أن الشورى مبدأ اسلامى أصيل ، فالاسلام قام على الشورى ،  
وهى تعنى الاستماع الى رأى أصحاب الرأى والاهتمام به ، لأن الاسلام  
حرص على روح الجماعة « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، « مليك  
بالجماعة وايلك والفرقة » ، « يد الله مع الجماعة » ..

وحرص الاسلام يعنى الرغبة في تقويم النزعة الفردية ، واشاعة عادة  
تبادل الرأى ، والتشاور في الأمر ، والتناصح في كل موطن يقبل التناصح .  
ويعنى كذلك استعراض وجهات النظر وتمحيص الآراء والأفكار ، ولا عجب  
في ذلك فان « الدين النصيحة » وإذا كانت النصيحة والشورى وتبادل الرأى  
ضرورة بالنسبة لأوجه الحياة كلها ، فهى من أهم الضروريات في شؤون  
الحرب ومن ألزمها ، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى رسوله وهو المعصوم المؤيد  
بالوحي أن يشاور ويأخذ رأى غيره ، ويستمع الى النصيح ، ويستعين بأهل  
الخبرة والتجربة « وشاورهم في الأمر » ، وأصبحت الشورى « وأمرهم

شورى بينهم » ركيزة قوية من ركائز الدولة ومظهرها من مظاهر ديمقراطيتها ..

ولقد آمن رسول الله بأهمية الشورى ، فكان يتنازل في مواقف كثيرة عن رأيه ، ويأخذ برأى أصحابه ، ولم يتمسك عليه السلام برأيه في موقف قتال ...

حدث ذلك في بدر مرتين ، الأولى : حين أراد أن يقف على رأى المهاجرين والأنصار في مواجهة قريش ، فجمعهم وقال لهم : « أشيروا أيها الناس » فلما أشاروا بالخروج للقتال خرج ... والثانية : حين نزل عليه السلام والمسلمون أدنى ماء من بدر فجاءه الحباب بن المنذر وهو عليم بالمكان وسأله « يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » فأجاب الرسول : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » ، فأشار عليه الحباب بتغيير موقع المسلمين ، واستجاب الرسول له وسمع منه ..

وحدث مثل ذلك في أحد ... فقد كان هناك رأى يرى الخروج لللاقاة جيش قريش ، وكان هناك رأى آخر يخالفه ويدعو الى البقاء في المدينة والدفاع عنها ، وكان الرأى بالخروج هو الغالب ، فخرج المسلمون رغم أن رسول الله كان يرى الدفاع دون الخروج ، ولكنه عليه السلام استجاب لرأى الغالبية ...

وحدث مثل ذلك أيضا في الخندق ، فقد جمع الرسول المسلمين للتشاور فلما عرض سلمان فكرة الخندق وافقوا عليها وأسرعوا جميعا وفي مقدمتهم رسول الله الى حفره .

وبهذا الأسلوب عالج أبو بكر وعمر أمور المسلمين ، لم يكن أحدهما ينفرد برأى ، وانما كانا دائما يميلان الى رأى الجماعة ، ولم يتمسك أحدهما برأيه في موقف أبدا ... كما كان رسول الله — يستخلصان الرأى السديد من أصحاب الآراء الطيبة ، والأفكار الصحيحة ، والخبرة المفيدة ، والنظرة الصائبة ...

ولقد كانت تعليمات عمر الأبي عبيد حين ولاة قيادة الجيش أن يستشير أصحابه ، وأن يناقشهم الأمور ، وأن يسمع منهم ... لقد قال له في صراحة ووضوح « اسمع من أصحاب النبی صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين » .



بعد هذا كله يتعجب المرء لموقف أبى عبيد !!

لماذا انفرد بالرأى ؟؟. ولماذا لم يستجب لرأى الصحابة ؟؟. ولماذا لم يسلك سبيل رسول الله وهو أسوة حسنة ؟؟. ولماذا لم يفعل كما فعل أبو بكر ومن بعده فعل عمر ؟؟ لماذا لم يحترم رأى عمر له ونصحه إياه قبل مسيره ؟؟. لماذا ضرب بأراء الآخرين عرض الحائط ؟؟

لعله كان يؤمن بقوة المسلمين ، ويرى أن لا عائق يثقف أمام هذه القوة ، ولعله كان يرى في عدم العبور مظهرا من مظاهر الخوف أو الوهن أو الضعف ، ولعله أراد أن يستعرض عضلاته أمام جيش أعدائه ...

ولكن مهما كان رأيه ، ومهما كانت مبررات هذا الرأى ، فان انعبور كان مخاطرة ، والحرب خدعة ، والمسلمون حتى هذا الوقت لم يكونوا قد تعاملوا مع البحار والأنهار ، هذا فوق أنهم كانوا يحاربون فوق أرض غير أرضهم ، بل هى أرض عدوهم ، وهو أدرى بطبيعة الأرض ومسالكها ، فوق أنه يستطيع أن يستعيض ما يفقده من الرجال أو العتاد أو مستلزمات الحرب ، ولقد أثبتت أحداث المعركة — كما سنذكر فيما بعد — صدق وجهة نظر المثنى ، ومن نادى برأيه وآمن بفكره .

ومن جانب آخر فان أصعب العمليات الحربية هى عمليات العبور للموانع المائية ، فالأنهار والبحار تعتبر موانع طبيعية يستغلها المدافع استغلالا كبيرا بعرقلة تقدم عدوه المهاجم .. لقد أثبت التاريخ الحربى صعوبة اجتياز هذه الموانع ، وخاصة أن عملية العبور تتطلب اعدادا دقيقة وتدريباً شاقاً وجموعاً كثيفة وسرية مطلقة وهمة عالية وروحا وثابة ... هذا فوق أن المدافع الذى يتقف خلف هذا المانع المائى تكون لديه فرصة اصابة المهاجم خلال عبوره ، والتمكن منه ، ذلك أن مرحلة العبور تعتبر مرحلة فقدان التوازن للجيش مما يجعلها فريسة سائفة الأسلحة العدو ، ولهذا يفكر المهاجم مرة ومرات قبل أن يقرر العبور أو يقدم عليه ، ومن هنا كان خطأ أبى عبيد ... لقد كان فى إمكانه أن يدعوا عدوه للعبور فيحبل دونه مشقة هذه العملية بكل صعوبتها .

ومن جانب آخر فقد عرض المثنى على أبى عبيد — وقد رأى شدة تمسكه بفكرة العبور — أن يتم العبور مفاجأة . وم، والمفاجأة عنصر هلم من عناصر النصر فى المعركة ، يأتى دائما فى مقدمة أصول الحرب ومبادئها ... ولقد أدركت القيادات فى مختلف العصور أهمية المفاجأة ، فكانت تجعلها أساس خطتها ... والمفاجأة فى المعركة تعنى مفاجأة فى العدد ، أو فى السلاح

المستخدم ، أو في محور الهجوم ، أو في وقت الهجوم ، ولقد استخدم الرسول المفاجأة في أكثر من موقف .. والمثنى حين دعا الى أن يكون العبور مفاجأة إنما كان يفكر بعقلية حربية متطورة فاهمة للمزايا الكثيرة التي تترتب على حدوث المفاجأة ... ففواته أولا ستعبر النهر في وقت لا يعرفه العدو ، ومن مكان يجهله ، فتصل الى مواقعها على الجانب الآخر للنهر دون أن يصيبها اجهد نتيجة لتدخل العدو خلال العبور ، ودون أن تفقد عددا من رجالها أو سلاحها .. هذا فوق أن الظهور المفاجيء فوق أرض العمليات يزلزل كيان العدو ويفقده توازنه ويضعف معنوياته ، فيصبح غير قادر على المقاومة أو الصمود ، كما يصبح مجبرا على القتال في ظروف لم يعمل حسابها ولم يضعها موضع الدراسة أو التفكير .

نخرج من هذا التحليل الى حقيقة لعلها أصبحت واضحة تماما أمام القارئ ، وهي أن أبو عبيد قد أخطأ وجانبه الصواب فيما اتخذ من قرار خالف به رأى أصحابه ومستشاريه ، وأحداث المعركة تؤكد ذلك تماما .

أمر أبو عبيد الجيش بالعبور ... وكان بهمن قد أخلى منطقة ضيقة صغيرة للمسلمين على الجانب الآخر للنهر لا تسمح لهم بالحركة والمنورة والكر والفر .. وعندما بدأ المسلمون اجتياز النهر لم يمهلهم حتى يتموا العبور ، بل أصدر أوامره لجيشه فحملوا على المسلمين وهاجموهم في عنف فأنزلوا بهم خسائر فادحة ، حتى هؤلاء الذين وصلوا الى الشاطئ قابلتهم فيلة ضخمة مدربة على القتال عليها جلاجل تحدث رينبا أخاف الخيل ، ففرت فزعة لا تلوى على شيء ، ولم يلبث منها الا القليل ، وقتل من المسلمين كثيرون ، واشتد الأمر بهم ، فأمر أبو عبيد الناس أن تترجل ، ومضى بهم الى مواقع الفرس ، واشتبك معهم بالسيوف ، الا أن الفيلة كانت تتقدم الى المسلمين وتدفعهم فيضطربون ويفزعون ثم يفرون .

وأحس أبو عبيد بخطورة هذا السلاح الجديد الذي واجهه أول مرة ، ورأى فيلا أبيض يضرب الناس بخرطومه يمنة ويسرة ، فقرر أن يتقدم اليه ليقتله ، وقال له أصحابه : « انا نخاف عليك » ، فقال : « ان ربي ينصرني ، ولكن أخبروني هل لهذا الفيل من مقتل ؟ » ، قالوا : « اذا قطع خرطومه فهو يموت » ، فقال : « انى حامل على هذا الفيل ومن حوله من الفرس » ، فقالوا له : « دع عنك هذا الفيل » ، ولكنه رفض وقال : « انى لحامل على هذا المخلوق ، فانظروا ان قتلته وهزمت من حوله فانا أميركم » ، وان قتلت فأخى الحكيم أميركم ، فان قتل فولدى وهب ، فان قتل فولدى مالك ، فان قتل

— ٢٢١ —

فولدى جبر ، فأبو محجن ، فالثنى « ... ثم تقدم إلى الفيل وحاوره ودأوره  
وضرب خرطوميه بسيفه فقطعه وهو يرتجز :

يا لك من ذى أربع ما اكبرك

يا لك في يوم الوغى ما أنكرك

انى لعال بالحسام مشفرك

وهالك وفى الهلاك لى درك

وهاجم الفيل أبا عبيد ، وضربه برجله ، فألقاه على الأرض ، ثم وقف  
فوقه حتى مات ...

واستمرت المعركة والقادة الذين عينهم أبو عبيد وسماهم ، يقتلون واحدا  
وراء آخر ... كما قتل عدد كبير من بنى ثقيف ... وأحس عبد الله بن مرثد  
الثقفى بخطورة الموقف وبأن المسلمين منهزمون لا محالة ، فأراد أن يوقف  
اندفاع المسلمين ناحية جسر مقام على التهر ليهربوا ويعودوا إلى مواقعهم في  
المروحة ، وأراد في ذات الوقت أن يعيد ثقتهم بأنفسهم ، فبادر إلى الجسر  
وقطعه وهو يصيح في الناس « أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم ،  
أو تظفروا » ، وجزع الناس لقطع الجسر فوثبوا في النهر فغرق منهم كثيرون .

وشاهد الفرس ما أصبح عليه المسلمون فشدوا عليهم ، واضطروهم إلى  
الانسحاب تجاه الجسر المقطوع ، وهنا زاد الأمر تعقيدا ، وارتفعت خسائر  
المسلمين ، وقتل أبطالهم وفي مقدمتهم سليط وأبو مخنف أبو زيد الأنصارى  
وهو أحد جامعى القرآن على عهد رسول الله .

وأصبح الموقف شائكا خطيرا حرجا عصيبا ... وكان لابد من إجراء  
سريع يحى المسلمين ويحفظهم ويصد عنهم طعنات الفرس ، ولم يكن بين  
المسلمين من يقدر على مواجهة هذا الموقف سوى المثنى ... فلما رأى ما لحق  
بالمسلمين من نكبات ، تناول اللواء ، وتولى القيادة ، وفكر بسرعة ، وقدر  
الموقف ، وقرر ضرورة الانسحاب ، على أن يتم بسرعة كبيرة ودون خسارة  
في القوات ... أمر على الفور عروة بن مسعود « انطلق إلى الجسر فقف  
عليه وحل بين العجم وبينه » ، ثم أمر بتشكيل جماعة من الفرسان ، وضعها  
تحت قيادته مباشرة ، تقوم بحماية المسلمين ومهاجمة الفرس وتعطيلهم عن  
متابعة المسلمين ، وهاجم بقواته الفرس وهو يثير الناس : « يا معشر العرب  
أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تدهشوا ، ولا تفرقوا أنفسكم فانا لن نرايل  
حتى نراكم على الجانب الآخر » .

## - ٢٢٢ -

وجعل المثنى يقاتل ، ويحمى ظهور المسلمين أثناء العبور ويحول بين  
الفرس وبينه ... وأصابته وهو في موقفه طعنة رمح غاصت لها حلقات درعه  
في جنبه ، وظل رغم الإصابة يناضل في شجاعة ، ويثاوم هجمات الفرس في  
بطولة ، حتى عبر المسلمون جميعا الجسر ، ثم عبر هو ورجاله في النهاية ..

ولم تنته مهمته عند هذا الحد ، وإنما بقى مع الرجال على الضفة  
الأخرى ، بمنع الفرس من العبور خلف المسلمين ، وظل يصدهم حتى زهدوا  
في العبور والمطاردة ...

وهكذا نجح المثنى في انقاذ الجيش الاسلامي من مخالب الفرس ، ومنع  
الدم العربي من أن يسفك على أرض فارس :

وما أن نجح الجيش الاسلامي في عبور النهر حتى أمر المثنى بالانسحاب  
فورا الى الحيرة ، ثم تابع انحذاره الى الجنوب حتى اليس ، فقد خشي أن  
يعبر بهم جاذويه النهر اليهم وهم على هذه الحالة من التفكك والاجهاد  
والارهاق فيتمكن منهم ويهزمهم ، وتكثر بذلك خسائرهم ويفقدون بالتالي ميدانا  
هاما من ميادين القتال .

وانسحاب المثنى بالقوات الاسلامية كان خطة عسكرية لها قيمتها ...  
فالانسحاب أمر تقرر جميع القيادات .. وهو في لغة الحرب لا يعنى في كل  
الحالات هزيمة ، ولا يدل على انكسار أو ضعف ، وإنما قد يكون جزءا من  
خطة عامة تستلزمها ظروف المعركة .

وهنا يبرز تساؤل هام يفرض نفسه في هذا الموقف ، وهو : لماذا انسحب  
المثنى حتى وصل الى حدود الصحراء ؟

والاجابة على هذا التساؤل تلقي الضوء على عبقرية المثنى الحربية  
وكفاءته وقدرته في مواجهة الأحداث وتقدير الموقف .

ان المثنى جندي عربي .. وجنده عرب .. وهؤلاء عاشوا حياتهم في  
الصحراء ، وقضوا عمرهم بين رمالها ، وخاضوا غمار معارك كثيرة في جاهليتهم  
أو في بداية الاسلام فوق أرضها ، ومن هنا فهم جنود مدربون على قتال  
الصحراء ، يجيدون الكر والفر والهجوم والادبار ، وهم بهذا يفوقون عدوهم  
في حرب الصحراء ، لأنه يعيش في بيئة مختلفة فيها مبان وحقول ونخيل وجداول  
وأناهار ، وهو في ذات الوقت مدرب على حرب المدن ، وهذه تختلف تماما في  
جوهرها وأصولها عن حرب الصحراء التي يجيدها العرب اجادة تامة فائقة .

## - ٢٢٣ -

ومن جانب آخر لو أن معركة نشبت بين الفريقين وانتصر فيها الفرس فإن الصحراء تمنح الجند المسلمين عمقا استراتيجيا يمكن استغلاله لصالحهم في الانسحاب إلى الورا دون أن يستطيع الفرس ملاحقتهم ومطاردتهم ، فتقل بذلك خسائرهم ، ويستطيعون أن يعيدوا تنظيم قواتهم ، وأعداد صفوفهم ، وجميع شملهم ، استعدادا لهجوم مضاد ، أو لشن غارات ضد العدو ، تفقده الاستقرار الذي ينشده .

ومن جانب ثالث فإن وجودهم على حافة الصحراء يجعل الطريق مفتوحا إلى رئاسة القوات في المدينة بحيث يمكن الاتصال بهذه الرئاسة لتدبير المؤن والامدادات التي تشد من أزهرهم في مرحلة إعادة الاستعداد لشن هجوم مضاد .

### \* \* \*

لقد تغير الموقف بعض الشيء بعد، أن وصل المثنى إلى اليبس ، فقد اختلف أهل فارس ، واضطر ذو الحاجب إلى العودة بجيشه إلى العاصمة ، وترك قوة يقودها جابان ومردانشاه ، سارت لمطاردة المثنى وتعبه ، فخرج إليها المثنى وأسر القائدين ثم قتلها وضرب أعناق القوة كلها .

وبانتهاء موقعة الجسر بدأت مرحلة جديدة في الصراع القسائم فوق أرض العراق ، وعاد المثنى ليتولى من جديد قيادة المسلمين في معاركهم التالية ضد الفرس ، والذي يثير الاهتمام هنا أن المثنى قد استفاد كثيرا من هذه المعركة ، واتخذ من أسباب الهزيمة دافعا إلى النصر .

لقد كان للمثنى في موقعة الجسر صفتان . . صفته كمستشار عسكري لأبي عبيد ، وصفته كمحارب ضمن الجيش الإسلامي . . ولقد أدى المثنى واجبه تماما إذ قدم النصيح والارشاد والتوجيه بصدق وأخلاص . . . وأدى واجبه كمقاتل فشارك في المعركة بكل مشاعره وأحاسيسه ، ولم تقعه الاصابة عن انهام رسالته . . . وأدى للجيش كل ما يمكن أن يؤديه الرجل الشريف لقوائه المسلحة . . . وتفانى في أداء واجبه وأخلص لمهته ، وأدى الأمانة المنقاة على عاتقه خير أداء .

لهذا ما أن انتهت معركة الجسر حتى أقت القيادة مقاليدها إليه ووضعت على رأس الجيش الإسلامي في معاركه القادمة ضد الفرس .

## الجمولة الأخيرة

القت المقادير على عاتق المثنى مسئولية مواصلة العمل العسكى فوق أرض العراق ، وتقبل هو هذه المسئولية باهساس المسلم المؤمن الذى بقدر واجبه ويعرف مهمته ، ويدرك أن رسالة الاسلام يجب أن تواصل مسيرتها فى طريق الكفاح الانسانى الشريف .

قدر المثنى موقفه ، ودرس أمور المسلمين الذين معه ، ورأى أن أية معركة قادمة تتطلب مددا وعونا حتى يستطيع أن يعيد تنظيم القوات وترتيبها ، فبعث الى الخليفة عمر يطلب المدد .

ولم ينتظر حتى يبيت الخليفة فى طلبه ، وحتى تصل اليه الامدادات عبر الصحراء ، فقد يستغرق ذلك وقتا طويلا ، بل باشر عمله كقائد لهذا القطاع الحيوى ، فبعث برسله الى من يليه من قبائل عربية يدعوها الى الانضمام اليه والاتحاد معه ، واستجابت له القبائل ، وجاءته وفود عظيمة ، وتوافدت عليه جموع ضخمة منهم نصارى بنى النمر وعلى رأسهم أنس بن هلال النمرى ، ومنهم عدد غفير من نصارى بى تغلب وعلى رأسهم عبد الله بن كليب الثعلبى ، ولا شك فى أن انضمام النصارى الى المسلمين قد أضفى على المعارك التى وقعت بعد ذلك ضوءا وشرافا ومجدا ، لأن هؤلاء النصارى عرب فى أصلهم رأوا أن ينحازوا الى جانب اخوانهم المسلمين العرب ، وقالوا فى ذلك « نقاتل مع قومنا » ويرجع الفضل فى ذلك الى شاعر نصرانى هو حوصلة بن المثير الطائى وكان يعرف باسم أبى زيد الطائى ، فقد كان قادما من الحيرة فى بعض شؤونه فرأى ما أصاب العرب المسلمين فتحركت فيه دماؤه العربية ومشاعره القومية وعز عليه أن ينهزم قومه وأن ينتصر عليهم قوم يختلفون عنهم لغة وتاريخا وقومية وسكنا ودما ، فإحاز الى جانب المسلمين ، وشجع هذا الموقف باقى القبائل النصرانية فسلكت مسلكه واتخذت موقف التحالف مع اخوانهم العرب المسلمين .

وفى المدينة كان عمر مشغولا بأمر الحملة وكان يهمله أن يحرز الجيش الاسلامى نصرا ينسيه هزيمة الجسر حتى ترتفع مغنوياته وتعود اليه ثقته فى نفسه ، ولهذا بعث يطلب الناس للخروج ، وتوافد العرب على المدينة ملبيين ندائه مستجيبيين اليه .

ولما كان عمر قد رفع الحظر عن أهل الردة ، فقد كتب الى جموعهم من

بنى عبد القيس ان يخرجوا الى العراق ، ففرحوا بهذه الدعوة التي جاءتهم بعد وقت منعوا فيه من المشاركة في المسيرة الحميدية ، وقرروا الخروج .

وكان بنو بجيلة متفرقين مشتتين في القبائل ، وطلب جرير بن عبد الله البجلي من عمر أن يجمعهم فوافق وبعث الى عماله « انه من كلن ينسب الى بجيلة في الجاهلية ، وثبت عليه في الاسلام ، فأخرجوه الى جرير » ، ثم أصدر أمره الى جرير « اخرج حتى تلحق المثنى » ، الا أنه اعترض على ذلك وفضل الخروج الى الشام ، وما زال عمر به ، وعرض عليه الربع من خمس ما يفتىء الله على المسلمين بالاضافة الى نصيبهم من الفء ، فقبل وتولى قيادة سبعائة فارس من رجاله وسار بهم الى بلاد فارس .

وقدم غالب بن عبد الله وعرفجة بن هرثة الى الخليفة على رأس قومهما ووافقوا على التحرك الى العراق ، بعد ان قال غالب لقومه « يا عشيرتاه اجيوا أمير المؤمنين الى ما يرى وأمعنوا له » .

خرج مع الخارجين بنو الأزد وعليهم عرفجة بن هرثة ، وبنو كنانة وعليهم غالب بن عبد الله ، وبنو حنظلة وعليهم ربيع ، وبنو ضبة وعليهم عصمة بن عبد الله الضبي ، وصحب الخارجون نساءهم وأبناءهم .

وتلقى جرير وهو على رأس الخارجين جميعا رسالة من المثنى يقول فيها : « انا قد جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا ، فعجلوا للحاق بنا ، وموعدكم البويب » .

وفي الوقت الذي كان المثنى يعد جيشه وينظم أموره وينتظر المدد ، كان الفرس أيضا يرتبون للقاء جديد . . . واستطاع رستم والفيروزان أن يصلا الى اتفاق يضع حدا لحالة القلق والاضطراب التي كانت تسود البلاد ، واتفقا على تقسيم السلطة بينهما ، ثم اتفقا على توحيد الجهد للقضاء على الجيش الاسلامي ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف جمعا جيشا كثيفا قويا ، وجعلا عليه القائد مهران بن مهربنداد الهمداني ، وأمداه بعدد كبير من الفيلة ، وكلفاه بالتقدم الى مواقع المسلمين . . .

ونود أن نشير الى أن مهران كان من قادة الفرس الأمجاد ، كان طموحا له آمال عريضة ، ورأى أن أهل فارس ما زالوا يعيشون أياما مجيدة منذ انتصر ذو الحاحب في الجسر ، ولهذا قرر أن يفوق انتصاره على المسلمين ( م ١٥ — شخصيات عسكرية اسلامية )

## - ٢٢٢ -

انتصار ذى الحجاب ، فيضمن بذلك التفاف الناس حوله وارتفاع رصيده مما يدفع به الى مكان الصدارة بين قومه . . . .

وتقدم مهران بقواته التى بلغ عددها اثنى عشر الفا ، ونزل فى أرض تدعى بسوس — قرب الكوفة — فى مواجهة قوات المثنى .

وعلم المثنى بنزول قوات الفرس واستعدادها فى منطقة بسوس ، فاستبشر بذلك ، واعتبر نزولهم فى هذه المنطقة فألا طيبا ، وقال فى ذلك لرجاله « أكد مهران وهلك ، ونزل منزلا هو البسوس » .

وكان لابد لى يتم اللقاء بين الطرفين أن يلتقيا معا على إحدى ضفتى النهر ، وهذا يعنى أن يعبر أحد الجيشين الى حيث الجانب الآخر ، وبعث مهران الى المثنى يقول : « اما أن تعبروا إلينا ، واما أن نعبر إليكم » .

وتنبه المثنى فى هذه المرة الى خطورة العبور ، وتذكر ما جرى قبل موقعة الجسر من مشاورات ، وعادت به ذاكرته الى أيام الجسر حين أصر أبو عبيدة على العبور مخالفا بذلك رأى أصحابه وما نتج عن ذلك من هزيمة قاسية .

وكان من الطبيعى أن يثبت المثنى على رأيه الذى نادى به قبل موقعة الجسر ، ولهذا بعث الى مهران يقول له « اعبروا إلينا » .

وعبر الفرس النهر الى البويب ، فى ثلاثة صفوف ، مع كل صف فيل ، وكان للفيلة خلال عبورها صوت وضوضاء ، فقال المثنى لجنده « ان الذى تسمعون فئيل ، فالزموا الصمت واتبروا همسا » . . وهذا التوجيه للجند له أهميته ، فالفيلة أحدثت أثناء التحرك صوتا وصل الى مسامع المسلمين ، فأدركوا أن الجيش يضم عددا من الفيلة ، وكانوا قد قاسوا كثيرا منها فى موقعة الجسر ، ولهذا فقد كن من الضرورى أن يعدوا أنفسهم لمواجهة هذا السلاح الذى يستخدمه أعداؤهم . . .

وبهذا الصوت الذى وضح أثناء التحرك يكون الفرس قد فضحوا أنفسهم ، وأضاعوا ميزة ظهور هذا السلاح ك مفاجأة فى المعركة لما للمفاجأة من أثر على نفسية المقاتلين ، ولقد صور المثنى ذلك فى قوله : « ان الذى تسمعون فئيل » ، ولم يشأ المثنى أن يقع جنده فى هذا الخطأ ، فمنصحهم بالتزام الصمت



وبالتكلم بهمس حتى لا يعرف العدو عنهم شيئاً ... وهو بذلك يكون قد التزم بمبدأين هامين من مبادئ الحرب وهما السرية وسلامة القوات .

وبفكر رجل الحرب المخك الفاهم الواعى أعد خطة اللقاء ، فقسّم جيشه الى فرق ، تولى أمرها رجال ميامين من رجاله ... فعلى مجنبتية جعل بشير بن الخصاصية ويسر بن أبى رهم ، وعلى مجردته ( الخيل ) أخاه المعنى ، وعلى الرجل ( المشاة ) أخاه مسعود ، وعلى الطلائع ( المقدمة ) النسير ، وعلى الردء ( الاحتياط ) مذعورا ، وجعل مركز القيادة في القلب .

وبفكر رجل الحرب المخك الفاهم الواعى اهتم - بعد اعداد قواته ماديا - بالجانب المعنوى للجند ، ايماناً منه بأن معنويات الجند هي السلاح الرئيسى في المعركة ، وبأن النصر عند اللقاء يتوقف أساساً على القوة المعنوية ، وبأن الجانب الذى يتميز بمعنويات عالية هو الجانب الذى يحرز النصر ، فكان يعتمد الصفوة ويميز بين الجند على فرسة الشمووس ( سمي الشمووس للين صريكته وطهارته ) وكان المثنى لا يركبه الا اذا قاتل ، فاذا فرغ من القتال ، دعه وتركه ) ، يحضهم ويردد على أسماعهم « انى لأرجو الا تؤتى العرب اليوم فتلكم » والله ما يسرنى اليوم لنفسى شيء الا وهم يسرنى لعابكم » ... وكان يذكرهم بالحروب والوقائع الماضية والغزوات السالفة ، ويعرفهم بمواقع الشجعان ومصارع الفرسان ، وينصع أممهم ما وعد الله به الشهداء من ثواب في دار النعيم ... ظل المثنى يخاطب مشاعره حينده وينشط الهمه ويقوى العزائم ويجذب النفوس الى الحرب ويحمس الناس للقتال ويحرّض المؤمنين عليه ... وكان الوقت رمضان ، ورأى المثنى أن المعركة تتطلب كل الجهد من المقاتل ، واختفى أن يؤثر الصوم على قدرة الرجال ، فامرهم بالامطار « امها الناس ، انكم صوام ، والصوم مرقة ومضعفة ، وانى أرى من الراى أن تفتروا » فتتووا بالطعام على عدوكم » .

ولم يشأ المثنى أن ينفرد بهذا الراى ، وخاصة أنه بمس حائبا دينياً هاماً ، وبتصل بأحدى ركائز الدين وهو الصوم ، فعرّض الأمر على الناس حتى يقولوا رأيهم في صراحة دون حرج ، ورأى الناس راية وأفطروا ، ومن هنا يكون المثنى قد جعل الالتقاء الفكرى أساساً للعمل العسكرى ، وبذلك يكون قد وصل الى مستوى الامتياز في القيادة الناجحة .

وبدا المثنى في تدبير خطة اللقاء ، وكان يؤمن بأن الهجوم هو خير وسائل الدفاع ، وهذا الذى آمن به راى حديث في الحرب تلتزم به القيادات ، وطبقا لما جاء في كتاب « الثمرين على الحروب » فإنه يعمل على كسب السيطرة

الأولية وحرية العمل والزام العدو اتخاذ خطة التدافع وانعاش روح القوات المعنوية ، واضعاف روح قوات العدو ...

لقد عرف المثنى ذلك كله وأدركه منذ زمن بعيد ، وسبق به القيادات الحديثة مما يؤكد أصالته العسكرية وامتيازته الحربى ...

وحدد المثنى ساعة الصفر ، وأتفق أن يكون موعدها عندما يكبر للمرة الرابعة ، وكان التكبير عند المسلمين هو الاذن بالهجوم ، وبه كانت دائما تتحدد ساعة الصفر أى ساعة بدء العمليات ... قال لهم المثنى « ائى مكبر ثلاثا ، فتهيئوا ، ثم احملوا مع الرابعة » .

ولكن ميدان المعركة هو ميدان المفاجآت ...

وهذا يتطلب من القائد أن يكون يقظا متفتحا مستعدا لاية مفاجآت يجد نفسه أمامها ، والقائد الناجح هو الذى يستطيع إذا ما واجهه موقف غير متوقع ، أن يضبط أعصابه ، وأن يحكم عقله ، وأن يفكر بسرعة حتى يجد المخرج .. أما اذا سيطرت المفاجأة عليه فانها تشل تفكيره ويصبح غير قادر على الرؤية الصحيحة ، ويكون الأثر المترتب على ذلك خطيرا للغاية ، ذلك ان الجيش بكامل عدته وعدده يكون صيدا ثميناً .

ترى اية مفاجأة تعرض لها المثنى ؟

وكيف كان تصرفه حيالها ؟

كان المثنى قد أعد خطته على أساس أن يبدأ هو بالهجوم ، ولكن قبل أن يبدأ المسلمون هجومهم بدأه الفرس ... وكانت لهم المبادأة ... هاجموا بعنف وخالطوا المسلمين ، والتحم القتال .

كان للمفاجأة — كما هي العادة — اثر على المسلمين ، فقد اختلت صفوفهم وخاصة فى جبهة بنى عجل ، ولكن المثنى القائد اليقظ لم يدع الفرصة تضع من يده ، فبعث اليهم يقول : « ان الأمير يقزئكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا المسلمين اليوم » .. فاعتدل بنو عجل ، وشدوا مع سائر الجند ، وعادت صفوفهم الى الانتظام وتمكنوا من السيطرة على الموقف ، وواجهوا عدوهم بصبر وثقة وامل ، وبذلك فقدت المفاجأة التى تعرضوا لها قيمتها وأثرها ، وتغلبوا عليها .

- ٢٢٩ -

ودام القتال ساعات طويلة واشتد اللقاء وعنف الصدام ، وخاض المسلمون المعركة بايمان راسخ وعزم شديد ودفع قوى وجراة هائلة واستبسل نموذجي وصمود بطولي .. وكان اكثرهم استبسالاً هؤلاء الذين فرواً يوم الجسر كأنهم يريدون أن يكفروا عن هزيمة الأمس .

ولم ينس المثنى واجبه كتقود معركة مصيرية تحدد مستقبل الاسلام في أرض العراق ، فظل خلال الاشتباك يرقب الجند ويدير المعركة ويعمدل الصفوف ، ويشرف على سير القتال ، ويباشر مهامه ، فيمر بين المقاتلين يثير حماسهم ويشجعهم ...

واراد المثنى أن يوجه الى الفرس ضربة قاصمة ، فدعا أنس بن هلال النهري وقال له : « يا أنس انك امرؤ عريى ، وان لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتنى قد حملت على مهران ، فأجل معى » ، ثم دعا أبا مردى النهري ( عبد الله بن كليب الثعلبي ) وقال له ما قاله لأنس .

اذن فالمثنى كان يستهدف قتل مهران ذاته ، وفكرة القضاء على قائد الجيش المعادى فكرة صائبة ، لأن القائد هو رأس الجيش وعقله المفكر وقلبه النابض وحماسه المستمر ، فإذا فقد الجيش قائده فقد عنصرها هاما من عناصر المعركة ، وبالتالي فقد القدرة على مواصلة القتال ، لأنه لا يستطيعه دون الرأس المفكر المدبر الذى يحرك ويرتب وينظم سير العمليات .

وهاجم الرجال الثلاثة مهران ، ونجح غلام ثعلبي في قتله ، واستولى على فرسه ، وظل ينشد مزهوا « أنا قتلت مهران ... أنا قتلت المرزبان » .. وما أن أعلن قتله حتى تضعضع قومه وتراجعوا في اتجاه النهر يعبرون ويبتغون النجاة ...

واحس المثنى بمشاعر القوم فصاح في رجاله وهو يشد على الفرس « عاداتكم من أمثالكم ، أنصروا الله يثركم » ... ثم أسرع الى الجسر يقطع على الفرس خط الرجعة ويردهم عنه ، ليحصرهم بينه وبين رجاله المقاتلين وهم يحيطون بهم من كل جانب وسيوفهم تأخذهم من كل ناحية ، تقتلهم شر قتله حتى قيل ان الجندي المسلم كان يقتل وحيداً عدداً من عدوه وهم غير قادرين عليه ، وقد أحصى المؤرخون مائة رجل من الغرب قتل كل منهم عشرة من الفرس ، وقيل أن ما أزهق من الأرواح في البويب فلق ما زهق في أية معركة أخرى ، اذ قدر عدد القتلى من الفرس بمائة ألف ، وبقيت جثثهم صرعى طريحة في الميدان حتى بليت وصارت عظاما ، ولم تدفن الا بعد بناء الكوفة ،

وروى أن أهل تلك الناحية كانوا يأتون البويب ، فيرون فيها بين موضع أسكون وبنى سليم « عظاما بيضا تلولا ، تاوح من هامهم وأوصالهم يعثر بها » .

وأطلق على يوم البويب يوم الاعشار ، ووصف المثنى الفرس فقال :  
« قتلت العرب والعجم في الجاهلية وفي الاسلام ، والله لمئة من العجم في الجاهلية كانوا أشد على من ألف من العرب ، ولمئة من العرب اليوم لأشد على من ألف من العجم ، ان الله اذهب بأسهم ، ووهن كيدهم ، فلا يروعنكم زهاء ترونه ، ولا سواد ولا قسى فجج و لانبال طوال ، فانهم اذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت » .

واستشهد عدد كبير من بنى النمر وبنى تغلب ، وكثيرون من عرب العراق كان منهم خالد بن هلال ، ومسيعود بن حارثة ، وأنس بن هلال النمرى النصراني ، وقال المثنى في رثائهم « والله ليهون على وجدى أن شهدوا البويب ... وأقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا وفي الشهادة كفرة » .

وغنم المسلمون مغنم كثيرة .

ووصف عروة بن زيد الخيل انتصار المثنى في البويب فقال :

هاجت لعروة دار الحى أحزانا  
واستبدلت بعد عبد القيس همدانا  
وقد أرانا بهيا والشمل مجتمع  
اذ بلانخيلة قتلى جند مهرانا  
أيام سار المثنى بالجنود لهم  
فقتل القوم من رجل وركبانا  
سما لأجناد مهران وشيعته  
حتى أبادهم مثنى ووجدانا  
ما ان رأينا أميرا بالمعراق مضى  
مثل المثنى الذى من آل شيبانا  
ان المثنى الأمير القرم لا كذب  
فى الحرب أشجع من ليث بخفانا

\*\*\*

وبعد البويب قاد المثنى المسلمين في عدة غارات بقصد الاستطلاع وجمع الأخبار عن الفرس .. وهاجم سوق الخنافس والأنبار وبادوريا وقطرب وسوق بغداد وصفين ، ونجحت هذه الغارات ، وغنم المسلمون كثيرا .

### وكان لهذه الغارات أهداف عسكرية في المقام الأول ..

**منها ... إثارة الرعب والفرع في نفوس أهل فارس عامة وجندها خاصة،** فتنزل معنوياتهم منحنطة ونفسياتهم محطمة وأفكارهم مشتتة ، فلا يقوون على لقاء ، بل يجبنون عنده .. وفي ذات الوقت فإنها تعطي المسلمين ثقة في أنفسهم، واطمئنانا إلى كفاءتهم ، وإيماننا بالنصر الذي يسعون إليه ... هذا بالإضافة إلى إخضاع بعض القبائل العربية التي تقطن أرض السواد وتدين بالولاء للفرس وتشكل خطرا على الوجود الإسلامي .

**ومنها .. زيادة خبرة ومعرفة الجند المسلمين بطبيعة أرض أعدائهم ..** ودراسة طبيعة أرض القتال تأتي دائما في الصدارة .. وهذه الدراسة تجعلهم يتطبعون بنوعية القتال فوق هذه الأرض ، حيث أن بيئتهم أساسا هي الصحراء ، وحرب الصحراء التي تعودوها تختلف عن الحرب في أرض فارس، حيث الأنهار والحقول والوديان والمدن ، والحرب في هذه المناطق لها طابع خاص يستلزم معرفته ، وأسلوب معين يجب اتباعه .

**ومنها .. تعزيز موقف الجيش الإسلامي ،** فيحس الجند أنهم يقفون على أرض صلبة ، وأشاعر الفرس بها صار عليه الجند المسلمون من قوة ، وما أصبحوا عليه من شدة وبأس .. وهذا من شأنه أن يرفع من الروح المعنوية عند المسلمين ، ويشمرهم بقوتهم ، ويزيدهم اقتبالا على القاهب النفسي والاستعداد القتالي .

**ومنها .. منع العدو من محاولات جمع الصفوف وحشد الحشود وإعادة** ترتيب القوات وتنظيمها ، استعدادا للقضاء آخر أو مواجهة جديدة ، فهذه الغارات تأخذ عليهم وقتهم وتشل تفكيرهم ، فهم لا يعرفون من أين تأتيهم الضربة التالية ، فيظلون في حيرة من أمرهم وبالتالي لا يفكرون في التيلام بعمل هجوى .

**ومنها .. التدريب العسكري العملى على مواجهة العدو ..** ولا شك في أن هذه الغارات كانت نوما من التدريب الذى يعد الجند نفسيا وعمليا لخوض غمار أية معركة ، إذ أن هذا النوع من التدريب العملى يصقل نفوسهم

- ٩٣٢ -

وبعدها أعدادا فنيا سليما .. وهذا النوع من التدريب هو أعظم معلم للجيش وللهذا فإن القيادات الحديثة تبذل قصارى جهدها في أن يكون التدريب قريبا لواقع المعركة وظروفها ، حتى يتعود الجند ، ويصبحوا قادرين على تحمل أعبائها وقت وقوعها .

**ومنها .. انقضاء على قوة الفرس الاقتصادية** التي هي أساس قوتها العسكرية ، فلا شك في أنه حيث يوجد اقتصاد قوى توجد جيوش حديثة وقوية ، وذلك أن أعداد الجيوش يتطلب اقتصادا وطنيا سليما وراسخا ، ولقد كانت اقتصاديات فارس تكن في أسواقها ، حيث يأتي إليها التجار من داخل أراضيها ومن أرض السواد ومن مختلف البلاد والنواحي ، وتجتمع بها أموال كثيرة لا حصر لها ، حتى أن بعض المراجع أجمعت على أن أموال سوق بغداد وحده ، تقدر بأموال بيت المسلمين كله .

بدأت هذه الغارات بعد الانتهاء من معركة البويب وكانت أولها على سوق **الأنصافى** وهى سوق يتوافد إليها تجار كثيرون من جميع أنحاء البلاد .. وكانت هذه السوق هى أقرب الأسواق الى موقع المثنى ، وكان موعدها قد قرب ، فتحرك إليها سريعا ، ووصلها في موعد مناسب ، فهاجم السوق ، واستولى على ما بها .

ثم خرج بعد ذلك قاصدا **سوق بغداد** ، وكان معه عدد من أهل الحيرة يدلونه على الطريق ، ووصل بقواته الأنبار وهناك وجد الجسر مقطوعا ، فاستدعى مرزبانها ويسمى شفروخ ، ووعده الأمان ، وطلب منه المعاونة في اصلاح الجسر ، دون أن يوضح له أنه في طريقه الى سوق بغداد تحقيقا للمفاجأة وضمانا للسرية « انما أريد أن أغير على المدائن ، وأريد أن ترسل معنى الأدلاء ، وتعتقد لى الجسر لأعبر عليه الفرات الى المدائن » ، واستجاب له شفروخ وعقد له الجسر ، فعبر ، وتقدم ، ثم سأل الأدلاء « كم بيننا وبين بغداد ؟ » فأجابوه « أربعة أو خمسة فراسخ وقد يمضى عليكم ليل » . وهنا أدرك المثنى أن الجند قد أجهدهم السير وأن الأمر يتطلب منحهم بعض الراحة حتى يتجدد نشاطهم ، فأمر بإقامة معسكر لجنده ، يقيمون فيه الليل .. وما أن أقدم المعسكر حتى صدرت تعليمات مشددة من القائد :

● بإقامة أحراس على معسكر الجند تتناوب الحراسة ليلا ، ويسمح لباقي الجند بالراحة والنوم .

● بتكليف بعض فرسانه بالقيام بأعمال الدوريات حول المعسكر ،  
ولسافات بعيدة .

● بالقبض على كل من يستراب فيه قرب المعسكر ، حتى لا تنتقل  
أخبار التحرك الى العدو فيعد نفسه للقائهم .

وهذه التعليمات تستهدف مبدئين هامين في مبادئ الحرب الحديثة هما  
السرية الكاملة ثم تحقيق المفاجأة .. فبفضل السرية يظل العدو جاهلاً بنوايا  
المسلمين .. وعلى قدر جهله تكون المفاجأة .

وفي آخر الليل أيقظ المثنى جنده استعداداً للتحرك ، فتناولوا فطورهم  
وعلفوا خيلهم ، وأعدوا سلاحهم ، ثم جاء أمر التحرك قبل طلوع الشمس ،  
وهذا يعنى أن يتم التحرك قبل أول ضوء على حد تعبير العسكريين اليوم ، وفي  
اختيار هذا الموعد سبق عسكري ، إذ أن كافة التيارات العسكرية الحديثة  
تختار دائماً أول ضوء للتحرك أو للهجوم .

وتقدمت القوات الى هدفها ، وكان وصولها مفاجأة ، وهجومها مفاجأة ،  
فلم تجد صعوبة في وضع يدها على كل ما احتواه السوق .

وكانت آخر غارات المثنى فوق أرض العراق هي تلك الغارات التي  
قصدت إخضاع بعض العرب ، الذين يسكنون أرض السواد ، والذين يدينون  
بالولاء للفرس ، حتى لا يكونوا شوكاً في ظهر المسلمين عند لقاءاتهم المرتبة  
مع أعدائهم وتطهير هذه المناطق وإخضاعها لسلطانة فكرة عسكرية سليمة ،  
تقتضيها متطلبات المعركة ، فليس من المقبول أن يواجه جيشاً بينما تكون لهذا  
الجيش عيون وأعوان ، يمكنها أن تطعن من الخلف .. لهذا أرسل المثنى  
جرير بن عبد الله البجلي الى منطقة ميسان .. وهلال بن علفة الى ديستميسان  
وفرق جنده في السواد تحت قيادة عصبة بن عبد الله الضبي ، وعرفجة بن  
هرثة البارقي ، والكج الضبي .. وأمر الجميع بإخضاع سكن هذه المناطق  
من العرب لسلطة المسلمين .

وأرسل المثنى فرات بن حيان وعتبة بن النهاس للاغارة على احبياء من  
تغلب والنمر في صفين .. ثم لحق بهم وشساركهم في الهجوم المفاجئ عليهم  
فأسلم القوم دون قتال .

وكانت جماعة من تغلب قد تجمعت على دجلة مع قوم من تكريت ، فسار

اليهم المثنى ، وعلى مقدمته حذيفة بن محسن ، وعلى مجنبيه التعمان بن عوف ومطر الشيباني ، وهاجم القوم في تكريت ، وأصابهم .

فرى هل تحققت أهداف هذه الغارات ؟

نعم .. فالمنطقة كلها أصبحت تحت سلطة المسلمين وفي أيديهم ، واتسع نطاق الأرض التي يسيطرون عليها ، وأصبحت جموعهم قريبة من مواقع الفرس ، في انتظر لقاء حاسم يحسم الأمور نهائيا .

نعم .. فالفرس تطلعوا الى هذا اتوسع العربى بخوف وقلق ، وأحسوا بأن حياتهم قد قربت النهاية ، وأن سلطانهم الى زوال ، وأن النصر العربى يتأكد يوما بعد يوم ، وأن استقرار المسلمين فوق أرضهم أصبح أمرا مؤكدا كما أن نهاية دولتهم قد أصبحت أمرا وشيك الوقوع ، وكانوا يتساءلون « فما بعد بفسداد وسلباط وتكريت ، الا المدائن » .

نعم .. فقد غنم المسلمون مغانم كثيرة خسرها الجانب الآخر ، فقد انتقلت ثروة فارس الى أيدي العرب ، وبعث القائد العربى بنصيب بيت المال الى المدينة ، فامتلات جوانب المسجد ، واضطر الخليفة عمر الى اقامة حراسة عليها ، كلف بها اثنين من أشد المسلمين هما عبد الرحمن بن عوف وعبد الله الأرقم .. لقد كان ما بعث به المثنى شيئا لم تره أعين المسلمين من قبل .. جواهر ولؤلؤا وذهب وفضة وأشياء أخرى كثيرة .

\*\*\*

بينما كان المثنى يقود المسلمين من نصر الى نصر .. كان الفرس يفكرون فى أمر أنفسهم .. ماذا بعد ؟ .. المسلمون متقدمون منتصرون .. وهم يلقون الهزائم متكررة متعددة .. وأحس الفرس أن الخطوة الاسلامية التالية هى عاصمة ملكهم ، فراءوا أن يفعلوا شيئا ينقذون به بلادهم ، وكان واضحا أن هناك اختلافا كبيرا بين رستم والفرزان على السلطة ، فاجتمع معهما أهل فارس وتحدثوا اليها صراحة « والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما ، وقبل أن يشمت بنا شامت ، ونشفين نفوسنا منكما » ، وأزاء هذا الاصرار ، اتفقا على أن يتولى يزدجرد العرش ، وأن يتعاونوا معه لصد المثنى ، ولطرده القوات العربية .

وأدرك المثنى ما يجرى فى صفوف الفرس ، فجمع رجاله وعرض عليهم الامر وتشاور معهم ، بعد أن وضع امامهم تقديره للموقف ويتلخص فى أن الفرس



— وقد وحدوا كلمتهم وجمعوا صفوفهم — في سبيل اعداد جيش يواجهونهم به ، فضلا عن أن أهل السواد سيثورون عليهم عندما تحدث مواجهة مع الفرس .. واتفق الرأي على أن يعرض الأهر على الخليفة وأن يطلب منه مددا سريعا .. كما اتفق على الانسحاب بالقوات الى تخوم شبه الجزيرة .

وانسحبت القوات فعلا واحتلت موقعا دفاعيا يمتد من الجبل ( موقع بالبادية على امتداد القادسية ) الى شراف ( جنوب الكوفة بثلاثة أميال ) الى غضى ( جبل البصرة ) ، وعززت مواقعها ببقامة مسلح ونقط عسكرية .

وأراد الخليفة عمر أن يخرج بنفسه قائلا « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » ، ولكن أصحاب رسول الله اعترضوا ، وطلبوا منه أن يبقى بالمدينة ، قال له عبد الرحمن بن عوف « أقم وابعث جندا ، فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد ، فإنه ان يهزم جيشك فليس كهزيمتك ، وانك ان تقتل أو تهزم خشييت أن لا يكبر المسلمون ، والا يشهدوا أن لا اله الا الله أبدا » .

وتقرر اسناد قيادة الجيش الى سعد بن أبى وقاص .

\*\*\*

مرض المثنى مرضه الأخير واشتد عليه المرض نتيجة للجرح الذى أصابه يوم الجسر وأحس منيته ، فاستخلف على الجند بشير بن الخصاصية ورحل الى نموه في شراف وهناك أسلم الروح .. وانتهت حياة قائد حمل على عاتقه أشرف رسالة وأداها أشرف ما يكون الأداء ... انتهت حياته ليقتز اسمه بين أسماء القادة العسكريين وليحتل مكانة مرموقة بين رجال الحرب وأبطال المعارك .

ملت المثنى وهو رجل غير خامل الذكر ومجهول النسب ولا ذليل العماد .

## ختمام

أما بعد ..

فها هو ذا الكتاب يأتى الى نهايته .

والكتاب يتناول خمس شخصيات عسكرية اسلامية ... صورا حية للقيادات المظفرة ، وللعسكرية الرائدة ... صورا مضيئة الجوانب ، مملوءة بالعزة والايمان والثقة والقدرة ... صورا واضحة المعالم للفكر العسكرى المتقدم ، وللعنلية العسكرية المتطورة .

والكتاب يعرض لحياة خمس شخصيات عسكرية اسلامية ... أبطالها رجال حرب أذاذ ، وقادة معارك أشاوس ، أبلوا بلاء حسنا فى قيادة الدعوة الاسلامية والدفاع عنها ، وقدموا أروع الأمثلة وأرقاها فى القيادة الحكيمة ، والخطط الرشيدة ، والانتصارات الباهرة ، والفتوحات العظمى ، والجندية الحازمة الواعية .

وأخيرا ....

أرجو مخلصا ، بقدر ما بذات من جهد ، وأخلصت من درس ، أن يجد القارئ فيه شيئا جديدا ومفيدا ... والله المستعان .

محمد فـرج

## مراجع الكتاب

أهم المراجع العربية التي كانت موضع الدراسة خلال اعداد الكتاب  
( مرتبة حسب الحروف الأبجدية )

أسد الغابة في معرفة الصحابة	ابن الأثير
الاستيعاب في معرفة الأصحاب	ابن عبد البر
السيرة الطيبة	
الطبقات الكبرى	ابن سعد
تاريخ الملوك والأمم	الطبري
رسالة العثمانية	الجاحظ
سيرة ابن هشام	
فتوح الاسلام	الواقدي
فتوح البلدان	البلاذري
مروج الذهب	المسعودي
نهج البلاغة	جمعه الامام اللغوي محمد بن احمد الحسيني

وكانت كافة الكتب والمؤلفات والبحوث والمحاضرات التي تناولت  
شخصيات هذا الكتاب تحت نظرنا أثناء اعداده ، ونظرا لكثرتها فلننا  
نكتفي بهذه الاشارة .

# فهرس

صفحة	
٣	الاهـداء
٧	مقدمة الطبعة الثانية
٩	مقدمة الطبعة الاولى
١٥	الشخصية الاولى : على بن أبى طالب
١٦	شخصية متميزة
٢١	سيد الشجعان
٢٨	موقعة الجمل
٤٠	موقعة صفين
٥٩	الشخصية الثانية : سعد بن أبى وقاص
٦٠	رجل من اهل الجنة
٦٣	الجنـدى
٦٧	الأسد فى برائنه
٧٠	توجيهات القائد العام
٧٦	منطق الأبطال
٨٠	الأيام الخالدة
٩١	ذلات لهم البحور
٩٥	الشخصية الثالثة : خالد بن الوليد
٩٦	البطل
٩٩	ميدان المعركة
١٠٣	الايمان
١٠٧	سيف الله
١٠٩	خالد وروميل
١١٥	الحرب البردة

صفحة

١٢٣	نهر الدم
١٢٨	التحرك العظيم
١٣٢	خالد ومونتجمرى
١٤٥	الشخصية الرابعة : عمرو بن العاص
١٤٦	شخصية فريدة
١٤٨	على طريق الهداية
١٥٢	الامن وسلامة القوات
١٥٨	توجيهات القائد العام
١٦٣	أرطابون العرب
١٦٨	محرر مصر
١٧٩	الشئون الادارية
١٨٣	القائد والجنود
١٨٦	السياسة والحرب
١٩١	الشخصية الخامسة : المنى بن حارثة
١٩٢	غير مجهول النسب
١٩٥	الكم والكيف
٢٠٢	القائد والقيادة
٢١٣	المستشار العسكري
٢٢٤	الجولة الأخيرة
٢٣٦	خاتمة
٢٣٧	المراجع
٢٣٨	فهرس الكتاب
٢٤٠	للمؤلف

## كتب المؤلف

دار الفكر العربى	المبقرية العسكرية فى غزوات الرسول
دار الفكر العربى	السلام والحرب فى الاسلام
دار الفكر العربى	الفتح العربى للعراق وفارس
دار الفكر العربى	المدرسة العسكرية الاسلامية
دار الفكر العربى	شخصيات عسكرية اسلامية
دار الفكر العربى	الامة العربية على الطريق الى وحدة الهدف
دار الفكر العربى	غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم
دار الفكر العربى	( بدر - احد - خيبر - الخندق )

رقم الايداع ١٩٧٤/٣٩٩٥

دار عطوه للطباعة



تطلب جميع منشوراتنا من  
مؤسسة

**دار الكتاب الحديث**  
للطبع والنشر والتوزيع .

الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير  
بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضي  
ت : ٣٤٣٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤